



مراد منتيش

MURAT MENTEŞ

الموت عمل سهل

RUHI MÜCERRET

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الموت عمل سهل

RUHI MÜCERRET

رواية

مراد منتيش

MURAT MENTEŞ

ترجمة

مهتاب محمد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي

RUHÎ MÜCERRET

ردمك 978-614-02-3542-7

تصميم الغلاف: علي القهوجي

مراد منتيش

«كل ما ورد في هذا الكتاب مستمد من الخيال

ولا أتمنى أن يتحقق مطلقاً».

(م.م)

[عوني واو]

«الحياة في مكان آخر».

(ميلان كونديرا)

«الأنا شخص آخر».

(آرثر رامبو)

اصطدام قطار الكوكا كولا

بسفينة البيبسي!

«إنه أمر أشبه بإطلاق مجموعة أبرٍ

من روسيا وأمريكا ، والتحكم بتصادمها

منتصف المحيط الأطلسي».

(رولف ديتير هوير)¹

- كيف تسير الحياة معك ؟
- عليك أن تسأل من يحيها..
- لم أقابلك البارحة ، أين كنت ؟
- كنت في جنازة طيبي الذي أخبرني قبل ثلاثين عاماً بأنني لن أعيش سوى لثلاثة أشهر.
- فليتغمده الله برحمته..

كنت أجلس مع السيد روجي في حديقة الشاي على الرصيف البحري لمنطقة حيدر باشا ، وقد اصطفت فرقة النوارس على المرطم تتجاذب النعق ولكنها الإسكندنافية. فيما الغاقات الهائجة تشق سطح البحر النايلوني كفرقة باليه نحو الأعماق وتعاود الخروج..

- كفاك سيد روجي ، فقد ذاب السكر منذ زمن بعيد ، اشرب شايك..

- إنَّ الرياضة الوحيدة التي أتقنها ؛ تحريك الشاي.

- لا تقسُ على نفسك يا صديقي ، لا زلت قوي البنيان.

ارتشف الشاي الفاتر في ثلاث رشقات متتالية.

- بالله عليك قل لي سيد عوني ، ما الفارق بيني وبين وعل لا شاغل له سوى

الحفاظ على البندقية التي ائتمنه الصياد عليها؟

- لا زلت صياداً يا مولاي ، حتى وإن هرم الذئب فلن تتغير طباعه.

- ومن ذا الذي يريد بلوغ المائة من العمر؟ - قالها متذمراً.

- من بلغ التاسعة والتسعين - أجبته.

وفيما أخذ النادل يجمع الكاسات الفارغة سألتنا:

- أترغبون في شيء آخر؟

رفعت اصبعي:

- سأخذ.. علبة كوكا كولا..

فيما سأله روجي مجرد بنبرة المحكوم بالإعدام وهو يتلو آخر رغباته:

- ألدیکم بیسی فاترة؟

بدت على النادل حنكة القادر على تدبر كافة المعضلات.

- إن شئت يمكنني تسخين الزجاجاة في الفرن لبعض الوقت؟

- سيكون ذلك مقبولاً..

كان السيد روجي فيما مضى يعمل حارساً ليلياً في محطة حيدر باشا ، وكنا نزوره بين الحين والآخر ، كما كانت السيدة زهرة - مديرة المحطة - تعامله باحترام بالغ ، وتقوم بزيارته أيضاً ، وكان يحظى بالاحترام ذاته من بقية موظفي المحطة. ورغم محاولاته الابتعاد عن البقية ، فقد كان يلوح بين الفينة والأخرى كضوء الفئار في العتمة ، وكشعيرات الشيب اللامعة كالملح الصخري التي تتخلل لحانا.

ومن مكبرات الصوت المثبتة على عواميد المصابيح التي تحيط بحديقة الشاي ، كانت تصدح أغنية الثنائي (Güzin - Baha) “الشباب الذي يناصبني العداء”:

“أنت الوردة الرقيقة التي تزين حديقة عشقي ؟

أم اليراعة التي تنير ليالينا؟”.

- تروقني هذه الأغنيات الحديثة - علّقت ، ولكن ما إن خرجت الكلمات من فمي حتى أدركت أنّ الأغنية قد مضى على صدورها ثلاثون عاماً.

- ما كان يفترض مطلقاً أن يطول الزمن بي حتى أستمع إلى هذه الأغنية يا سيد عوني.. في أي عام ولدت أنت ؟

- لقد أبصرتُ النور في ربيع الأول من العام ألف وثلاثمائة وتسعة وثلاثين.

وضع النادل البيبسي والكوكا كولا على الطاولة وغادر.

- تعني العام ألف وتسعمائة وعشرين ميلادية ؟

- لقد أصبت كبد الحقيقة.

- حين ولادتك كان عليّ شرب كأس الشهادة منذ زمن طويل.. ولكن جلوسنا متقابلين ونحن نحتمسي المشروبات ليس دلالة خير. ما كان عليّ الزواج مطلقاً ، ورؤية موت أبنائي. حين أنظر في المرأة ترتعد فرائصي هلعاً.

- ولما ذلك سيد روحي ؟

- لأنني أحد علامات القيامة ..

في تلك الأثناء سمعنا صفير باخرة تصدح - فووووب!..

- آه ؟ انظر روحي بيك ، إنها سفينة يببسي .

- سفينة يببسي ؟ - التفت روحي مجرد خلفه ينظر إليها .

كانت السفينة الملونة بألوان البيبسي تقترب من الميناء ، ومن مدخنتها التي صممت على شكل زجاجة يببسي ضخمة ، يرتفع دخان كثيف. وقد ارتدى كافة ركابها زي البيبسي ، وهم يرقصون على وقع نغمات أغنية البيبسي التي طغت على كل الأصوات المحيطة. ألم يكن ظهر السفينة برأيكم يظهر الفتيات أكثر جاذبية مما لو كنّ في ملاهي الرقص ؟ في أحد أركان الرصيف البحري كان مراسلو المحطات التلفزيونية قد بدأوا البث برفقة الكاميرات والميكروفونات الملونة. من الواضح أن بعض نجوم الغناء كانوا يرافقون مسافري طاقم البيبسي أيضاً.

رفع السيد روحي علبة البيبسي ليوجه التحية للسفينة ، وبعد برهة من التردد رفعت زجاجة الكوكا كولا وقرعتها بعلبة السيد روحي. فرغم أنني لم أضع رشفة كحول واحدة في فمي منذ اثنين وعشرين عاماً ، ولكنني في المحصلة رجل كحولي .

- كيف ؟ هل أعجبتك السفينة ؟

- ما رأيك أن نصعد إلى متنها نحن أيضاً سيد عوني ؟ - يقال إنّ الشيوخوة طفولة

ثانية ، بالفعل إنها كذلك .

- بالطبع - ناديْتُ النادل - أيها الشاب ؛ كم حسابنا ؟

نهضنا متثاقلين ، فيما كُنّا نراقب السفينة بإعجاب كبير ، لقد فتنّت أبصارنا ..

وفي تلك الأثناء بالذات تصاعد دوي وحشي من مبنى المحطة ، غووووووور!!
كان قطار يسير مسرعاً بمحاذاة الرصيف المرمرى..

أحمر اللون ، مقطوراته على هيئة علبة الكوكا كولا ، وقد حُطت عليها بحروف هائلة «كوكا كولا نكهة الحياة» ، توهجت هذه الجملة المعدنية أمام ناظرينا وإذا بطائرة - وقد أقلعت منذ ثوان - تتحطم مرتظمة بسقف مبنى الميناء و«بووووم» ، حيث نطحت سفينة البيبسي ، لتتهشم الزجاج التي على قمته ، فيما ترنحت مقطورات القطار في موجات متعاقبة. وخلال ثوان قليلة نشب حريق هائل وتشكلت غيمة دخان سوداء كثيفة ، وبدأت بالتضخم صاعدة نحو السماء. سكتت الأغاني ، وحلت مكانها صرخات الاستغاثة والعيويل متواصلة... كان الناس ، كظلال في يوم الحشر ، يحاولون الهرب في كل الاتجاهات.. أما أنا وروحي مجرد فبقينا مسمرين في مكاننا كلوحتي كرتون مخزمتين..

تناثرت الأجساد المملخة بالدماء على سطح المركب ، فيما الكاميرات تصور المشهد ، وقد غدت جلستنا المتواضعة على الرصيف محض كارثة فوضوية.. ومن إحدى نوافذ المقطورات المهشمة تطاير رأس بشري ليندحرج على الأرض ويصطدم بقدمي السيد روحي ، وقد لاحقت إحدى الكاميرات الرأس المقذوف واتجهت نحونا ، فأمسكت روحي مجرد من ذراعه وسحبته خلفاً ، وبدأنا بالابتعاد رويداً رويداً.. حتى البحر بدأ يتّقد ، ... وفجأة ، وصلنا صوت انفجار ؛ بووووم! وأخذت شظايا المعدن المتوهجة تتناثر ، وفيما السفينة تسلق ركابها ، كان القطار يتولى مهمة قلبي ركابه.. وحين بدأ أحد الكلاب بالقرب منا يحتاج على الحادث بنباح متواصل ، بووووف! سقط نورس مشوي فوق رأسه.. قبل أن ننعطف عند ناصية مبنى المحطة ، ألقى نظرة أخيرة على المشهد المفجع ؛ كانت حوامات الشرطة تحلّق فوق أنقاض السفينة والقطار ، بينما كانت زهرة ظريف أوغلو - مديرة المحطة - تقف على الدرج الخارجي للمبنى ، وتصرخ وقد تناثرت جدائلها:

- كوكا كولا! مشروب المنتصرين!!!

أظن أنني قد أخطأت السمع ، إنه الكبر.. وبعد اجتيازنا الناصية قابلنا قافلة من سيارات الإطفاء والإسعاف والشرطة ، وقد بدأت صافراتها تختلط ببعضها..

سرنا لبرهة من الوقت ، وبعد أن ابتعدنا بالقدر الذي يتيح لنا أن نسمع بعضنا البعض ، قرّب روعي مجرد فمه من أذني:

- هل أدركت الآن لماذا أرغب في الموت؟

هناك من يصطفئهم القدر دون سواهم ؛ لقد كان روعي مجرد واحداً من هؤلاء..

[روحي مجرد]

«ومن يدري في أي وقت قريب سيحين موتي».

(أغنية أرابيسك)

«من يدري... ربما في الغد... وربما أقرب من الغد».

(محمد عاكف إرسوي ؛ مارش الاستقلال)

ركلات عزرائيل

«حتى آخر أنفاسي أرغب في ترديد

اسمك الجميل ، لكي أموت قرير الفؤاد».

(رضا توفيق بولوك باشي ، 1869-1949)

أتعلم ما هي أزمة سنّ المائة ؟

إنها لا تشبه أزمة المراهقة في شيء ، فلا يمكن حلها في التقافز والوثوب هنا

وهناك..

وهي تختلف تماماً عن كآبة الثلاثين ، ولا ينفرد عقدها مع لفتة مواربة كـ. (هل

فقدت بعضاً من وزنك؟). لا يتوجب مقارنتها مع أزمة منتصف العمر ، كما أنها تفتقر إلى

سبل التأسّي من قبيل «الربيع الثاني»..

الزمن يعمل على الدوام ضدنا ، ولكن إن بلغت عمري ، فكل نفس يحمل مذاق

معركة حقيقية ، وبحسب التعبير الشبابي إنها محاولة «الرهان على الزمن القادم».. ولكن

هل سأتمكن من حفظ مؤخرتي - أكثر من ذلك - من ركلات عزرائيل ؟

ورغم ذلك فلا نيّة لديّ لتغيير المستقبل ، فأنا أحبه كما هو عليه الآن..

تكرار الحرب في نسخة مطابقة

«ما إن كادت جراحي تلتئم ، حتى زجّ بي

في ميدان القتال من جديد ، ولا زلت

هناك حتى الآن».

(إسبيريتو زيليزا ، 1877-1941 ، الجوارب الدامية)

لم يكن للفراشات ، ولا للأزهار ولا للعصافير مكان في ربيع العام 1919.

فقد قام الإنكليز بمصادرة حتى سكاكين تقطيع الخبز من مطابخنا ، ليجمعوا كل ما يصنف تحت مسمى السلاح ، كما فرضوا منع التجوال في الشارع ، وأقفلوا المتاجر ، فيما اللحوم والفواكه بدأت بالتعفن في الأسواق. كان الصداً يكتنف مدينة عنتاب وسط ضجيج عارم.

ومع انسحاب الإنكليز من عنتاب بحلول تشرين الأول ، كانوا يرسلون قبلة الحظ إلى الفرنسيين. كانا زوجاً من الجلاديين يغيران المناوبة فيما بينهما.

كانت القوات الفرنسية كقطعان الضباع التي بدأت الخوض في مذبحة ، وأخذ لعابها يسيل كمجرور بات يفيض..

كنا نبحت عن باب يفضي بنا إلى خارج الجحيم ، وقد أخذت قدمي تغرقان في الفوارغ المتطايرة ، فيما غرقت عنتاب كلها وسط سحابة كثيفة من دخان البارود..

لقد قام الجنود الفرنسيون ولأحد عشر شهراً متواصلاً بتأجيج النيران ، سبعون

ألف طلقة انهالت علينا كالعوسج المتوهج.

وتزامناً مع ضجيج الشتاء السماوي ، بدأ العدو يُنطق المدافع ، وبات مزيج من المازوت والثلج والدماء ينهمر سويًا ، في شتاء يخدّر أقدام الذئاب من شدة البرد..

وأخذ نبض الشعب بالتسارع على عتبات وقع طبول الحرب القادمة ، وكنا على أتمّ الاستعداد ببنادقنا وحرابها ، وقد أحيل الحب إلى دورة الانقطاع ، والأعراس توقفت ، وبات مذاق الأطعمة كالسم الزعاف ، وخلت المدارس وأماكن العمل والحقول عن بكرة أبيها..

كان الطفل محمد كامل ، الذي يتراوح عمره بين العاشرة والثانية عشرة ، يعود برفقة والدته من الفرن بعد شرائهما الخبز ، ولكن سكيّرين يرتديان الزي الرسمي اعترضوا طريقهما وبدأ بتمزيق عباءة المرأة المسكينة ، فالتقط كامل حجراً من الأرض ورمى به على أعداء العرض ، فطعنا الطفل على الفور أمام ناظري والداته..

طفح كيل الشعب ، ولكنه كان مغلول اليد لا حول له ولا قوة..

كان الإمام محمد سعيد ، الذي ينحدر من إحدى العائلات الغنية ، ذا روح مقاتلة ، أشدّ صموداً من الفرسان ، وأسرع من الساموراي. محمد سعيد المعروف بشاهين بيك ، كان أحد قادة حركة القوى الوطنية ، وقد تمكن برفقة رجاله من قطع طريق كيليس - عنتاب. وجاء في الرسالة المقتضبة التي أرسلها إلى القائد الفرنسي: «إنّ الارتقاء في حضن الموت ذوداً عن العرض والحرية ، أشدّ عذوبة من شرب المياه الباردة في قيظ آب ، وأما أنتم فأشخاص متمسكون بالحياة ، فإياكم والصدّام معنا» كانت تلك كلمات رجل في التاسعة والعشرين من العمر ، وبعد مضي شهر ونصف تعرض هؤلاء لنيران العدو..

ففي شهر آذار بدأ آلاف الجنود الفرنسيين بشن الهجوم ، الذي تصدينا له مقاومين من على تلال كزلبورون² تحت إمرة شاهين بيك. كانت نيران المدافع تنهال علينا ، وقد بتنا محاصرين داخل تحصيناتنا ، وحين أحجم حسان شاهين بيك الذي استبد به الفرع عن خطو أي خطوة ، قفز من على ظهره ، وانطلق مغيراً على صفوف العدو المتحصن خلف

عزرائيل ، لا بدّ وأنّه كان مدركاً لها يفعله.

وكانت الأرض التي تتلقى قذائف المدافع تميد كبحر هائج.

كنا وسط عاصفة تقدح شرراً..

الحرب تززع الإنسان.

فقد كان نبضنا يخفق على وقع البنادق.

وكان البنادق استحالت امتدادات عظيمة لأذرعنا..

أنهك الجوع قوانا ، ورغم ذلك فقد كنا نجاهد في تثبيت دعائم القبة التي كانت تتقد فوق رؤوسنا ، بأسنة رماحنا..

وفي صبيحة الثاني من نيسان العام ألف وتسعمائة وعشرين ، قمنا بشن هجوم على قطعات الفرنسيين المعسكرة في بوستانجيك.

كنت حينها في الخامسة عشرة.

وفي خضم تلك الفوضى تمكنت من التسلل عبر النافذة الخلفية لغرفة نوم الكولونيل أندريا في المنزل الذي كان يقيم فيه ، موقناً من أنني لو تمكنت من إصابة الكولونيل ، فإن دفعة الأوضاع ستقلب في صالحنا. ولكن بندقيتي كانت خاوية من الطلقات ، ومن الداخل كانت تنهأى إلى مسمعيّ أصوات وقع أقدام.. وسرعان ما لفتت البندقية المتروكة على الأريكة الفخمة نظري ؛ كانت بندقية (بريزر) تصميم العام 1916.. اقتربت منها ببطء وأخذتها بكل هدوء. كان قسمها المعدني مغطى بطبقة ذهبية ، وفيما أنا أتفحص هذه الغنيمة الرائعة سقطت بندقيتي من يدي ، فأسرع أحد الحرس المناوبين مهرولاً نحو الداخل ، فما كان مني سوى أن وجهت البندقية نحوه وسحبت الزناد ، ورغم أنني لم أتمكن من التصويب بدقة لكن الجندي سقط على ظهره..

مع البندقيتين في كلتا يديّ قفزت من النافذة ، وبدأت الهرب..

ومن خلفي أخذت عشرة أيدي على الأقل بإطلاق النيران ، ولكنني أسرعت بالجري من بين الأشجار ، ولحسن الحظ تمكنت من اجتياز الهضبة سالماً.

وبعد أن أفرغت من الرصاصات الأربع المتبقية في مخزنها ، قمت بلفها بعدة طبقات من القماش ودفنتها في حديقة منزلنا بالذات..

لا أعلم على وجه التحديد ما الذي كان يجول في رأسي حينها.

كانت الحرب تتواصل في أجواء أولومبية من الجريمة..

والغربان قد اتخذت من الأجساد المتناثرة في كافة أرجاء المدينة مصاطب لإطلاق نعيقها..

وحين يصاب أحد إلى جواربي كانت دمائه المنبجسة ترتطم بوجهي لتترك عليه بقع دافئة..

اخترقت رصاصة كتفي الأيسر لتمزقه.

كان كل ما حولي يحترق ، كيفما تلفت وأينما وضعت يدك ، فهو قدر ، فيما دخان أسود يتصاعد كثيفاً.

تمتزج قطع اللحم بالوحل ، أما الدماء فكانت تنساب إلى برك المياه ، والثرى ينهل من دمائنا ، ومن ثم يلوك لحومنا وعظامنا ويبتلعها..

الثامن والعشرون من آذار من العام ألف وتسعمائة وعشرين.. هو التاريخ الذي تم فيه العثور على جسد شاهين بيك في إهمالي كوبروسو.

ومن أصل عشرة آلاف منزل ، بات ثمانية آلاف منها مجرد أنقاض مخرمة

بالرصاص ، وأصبحت المدينة مجرد مرثية مطولة في مشهد خراب شامل..

كان كل شيء إما شديد البرودة أو شديد السخونة ، وما بين الاحتراق والتجمد كنا نتقلب ، وقد غرقت أعيننا في محيط هالات سوداء تفتّمها قلة النوم.

كنا نزنو لنومٍ متواصل ، ولكننا نخشى الموت. ولم تكن اليقظة بالمقابل سوى كابوس متواصل.

ولكن مدينة عنتاب التي فرض عليها الفرنسيون الحصار لأشهر طويلة ، تمكنت - رغم كافة التهديدات والمجاعة التي فاقت حدود التحمل ، من البقاء صامدة.

وكان الحصار يتصدّع هنا وهناك مع حركات النزوح.

وأخيراً أرغمت المدينة في الساعة العاشرة من صبيحة التاسع من شباط للعام ألف وتسعمائة وواحد وعشرين على إعلان استسلامها للفرنسيين.

لقد تكسرت أجنحتنا ، وانحنت قاماتنا ، وبقرار أصدره البرلمان أصبح اسم المدينة (غازي عنتاب).

بعد عشرة أشهر من الحداد والمرارة ، دخل الجيش التركي المدينة في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول.

يومها فقط تمكنا من نيل غفران شهدائنا..

وأخيراً اندمل الجرح الذي أصاب كتفي ، كنت أرثدي الزي العسكري ، وعلى أصوات المارشات العسكرية سحبت مسدسي نحو الأعلى وأطلقت ثلاث رصاصات في الهواء ، فيها بدأت شمس الشتاء الشاحبة تشع متوهجة.

ونصفيق!..

بدأ الآلاف من على المدرج بالتصفيق لي.

وفي الاحتفال السنوي للذكرى الرابعة والثمانين لتحرير عنتاب ، للمعركة التي فتحت في جسدي وروحي جراحاً غائرة ، كان يعاد تمثيل المعركة بجياد معلّفة ، وأسلحة زائفة وفرسان سليمي الأبدان..

أنا روحي مجرد ؛ آخر الأحياء من محاربي حرب الاستقلال. آخر الظلال الحية المنعكسة على مرآة التاريخ. بلغت تمام المائة من العمر. وهذا يعني أنه وقبل انتهاء الكتاب الذي بين أيديكم سأكون قد انتقلت إلى الحديقة الصنوبرية³. وسأدوّن على شاهدة قبري «أعتذر لأنني لم أتمكن من استقبالكم واقفاً».

منذ العام 1985 ، وأنا أشارك في احتفالات يوم الاستقلال في كافة أرجاء تركيا. وأجوب أنحاء البلاد لمدة أحد عشر شهراً. عطلتي في أيار. فخلأ أضنا وأوردو لم تتحرر أيّ من مدننا في شهر أيار. كما أحاول أن أثبت وجودي في احتفالات التاسع عشر من أيار ، الثالث والعشرين من نيسان والتاسع والعشرين من تشرين الأول سواء في إسطنبول أو أنقرة.

ها أنا أطلق النار على كل من الطليان ، والفرنسيين ، والإنكليز واليونان في المعارك التمثيلية ، تماماً كما حصل منذ أربعة وثمانين سنة خلت. فحرب الاستقلال لاتزال متواصلة بالنسبة إلي. وما زلت أرندي زيي العسكري الذي تزين صدره الأوسمة ، وأحمل مسدسي بيدي ، والعدو يواصل هجومه كل يوم ، وبدوري أقاومه كل يوم. أسرع من جبهة إلى أخرى ومن نصر إلى آخر.

لقد انتقل محاربو حرب الاستقلال الواحد تلو الآخر إلى رحمة الله ، ولم يبق سواي ، وبالتالي انتقلت إلي كافة مسؤوليات الحرب. وفي ذهني باتت تختلط مشاهد المعارك التمثيلية مع الحروب الحقيقية. فأنا أكثر شيخوخة مما يجب. وحتى في أحلامي

أجد نفسي أقاوم العدو ، والغريب أنني خلالها لا أكون في المائة من عمري ، فما إن أغمض عيني حتى أعود إلى العشرينيات والثلاثينيات وربما الأربعينيات دون أن أعي كيف يتم ذلك. ولكن الحرب سواء أكانت تمثيلاً أم حقيقة أم حلماً ، فهي تؤلم روحي.

سأتجه إلى مرسين في الثالث من كانون الثاني ، فمارتون الاستقلال يبدأ في اليوم الثالث من كل عام.

والآن ألقوا نظرة على تقويمي الحربي:

المدينة	تاريخ التحرير
مرسين	3 كانون الثاني
أضنا	5 كانون الثاني
قهрман مرعش	11 شباط
إرزينجان	13 شباط
غوموش هانه	15 شباط
بايبوت	21 شباط
أرضهان	23 شباط
طرابزون	24 شباط
ريزة	2 آذار
أرتفين	7 آذار

أرضروم	12 آذار
فان	2 نيسان
شانلى أورفا	11 نيسان
آغري	15 نيسان
هكاري	22 نيسان
موش	30 نيسان
أضا بازار	21 حزيران
زونغولضاك	21 حزيران
إزميت	28 حزيران
يالوفا	19 تموز
هاتاي	23 تموز
بيتليس	8 آب
أفيون	27 آب
كوتاهيا	30 آب
أوشاك	1 أيلول

إسكيشهير	2 أيلول
بيليجيك	6 أيلول
بالك إسير	6 أيلول
آيدين	7 أيلول
مانيسا	8 أيلول
إزمير	9 أيلول
بورصا	11 أيلول
إسطنبول	6 تشرين الأول
كارس	30 تشرين الأول
كركارالي	10 تشرين الثاني
تكيرداغ	13 تشرين الثاني
إغدير	14 تشرين الثاني
ماردين	21 تشرين الثاني
إدرنة	25 تشرين الثاني
غازي عنتاب	25 كانون الأول

آخر المدن التي أزورها هي غازي عنتاب ؛ المدينة التي ولدت فيها.

ولكن ، بطبيعة الحال ، فأنا لا أستطيع حضور هذه المناسبات في كافة المدن التي تتزامن احتفالاتها في يوم واحد ، أو في تلك التي نالت استقلالها بفارق يوم أو يومين وتفصلها مسافات بعيدة عن بعضها. وفي هذه الحالات أشعر وكأنني بلغت الأربعمئة من العمر..

أنا الجندي الوحيد الباقي من تلك الحرب التي تصارع فيها الملايين من البشر مع بعضهم.

مات القادة ، الضباط ، الجنود ، النسوة اللواتي حملن الذخيرة إلى جبهات القتال ، الأمهات والآباء الذين أقاموا الحداد ، العرائس اللواتي أصبحن أرامل .. ماتوا جميعاً.

حرب الاستقلال التي خضت غمارها يافعاً بالكاد خُطَّ شارباه ، ها أنذا الآن قائدها وجنديها الوحيد..

رويداً رويداً أخذت تلك الحرب التي انتشرت على مساحة الوطن بالانحسار ، حتى غدت في حجم ذاكرتي ، لتصبح مجرد حادثة منفردة ليس إلا.

تسليم الروح وهي لا تزال معافاة

«أنا السيد روحي ، وكيفما هو السيد

روحي فأنا كذلك».

(أديب جانسيفار ، 1928-1986)

أشعر بحالة من النورانية وكأنه لم يمضِ على موتي برهة من الزمن..

وكانني فيل أقدم عمراً من الغابة التي يعيش فيها..

في كل المدن التي أزورها يخرج لاستقبالي الولاية ، وقائموا المقام ورؤساء البلديات ، وهم يرددون: «سيد روحي ، ما شاء الله لا زلت فحلاً ، وتبدو وكأنك في الستين على أكثر تقدير ، لا زلت شاباً ، ومن الجلي بأنك ستدفننا كلنا»..

(إحدى مزايا الكِبَر هي عدم الانزعاج أبداً من الحشرات).

ومقابل هذه الأكاذيب البيضاء ، أمازحهم بالقول: «إن أصعب مرحلة في عمر الإنسان هي أول مائة عام».

في الحقيقة لست راغباً في دفن أحد بعد الآن ، وبتّ أرتاع من التوجه إلى المقابر محملاً والعودة منها خالي الوفاض. ولم أعتد حتى الآن على أن يموت قبلي ، كل أولئك الذين ولدوا من بعدي.

كان فارق السن بيني وبين زوجتي ناجية عاماً واحداً ، وقد توفيت قبل خمس وعشرين عاماً. فحين استيقظت في إحدى الليالي كانت زوجتي العزيزة قد غادرت ، وحلّت

وقد قمت بتشجيع ابني رجب وابنتي جورية ودفنتهما بيدي.

وكان آخر من فقدته هو ابني الأصغر مجيد، لم يكن طفلي سوى في الثالثة والسبعين.

وهذا ما حدث: ذهبنا جميعنا لتشيع والدي، ومن ثم والدتي، ثم أشقائي الأكبر، ومن ثم شقيقاتي الكبيرات، ومن ثم بقية أشقائي وشقيقاتي، فابني الأكبر، وابنتي، وأخيراً أصغر أبنائي.. كان أفراد عائلتي يتقلصون فيما يواريهم الثرى الواحد تلو الآخر.

وأما أنا، فكمثل الملك الذي ظلّ واقفاً بمفرده على لوحة الشطرنج وقد أحتت السنون ظهره. وكأن أداء صلاة الجنازة بات فرضَ عينٍ عليّ.. وكأنني كابتن جريح لطائرة غصّت بالجثث..

أثناء جنازة مجيد، كانت كنتي، أحفادي، أبناء أحفادي وأحفاد أحفادي يرمقونني باستهجان وانزعاج واضحين، وأغلب الظن أنهم كانوا يرددون في دخيلتهم «هل ستشارك حتى في دفننا نحن أيضاً؟ أي نوع من الرجال أنت يا هذا؟» وكانوا محقين، أشعر بالخزي، فطقوس الغسل والتكفين وحمل التابوت وصلاة الجنازة والدفن والقبر كانت تليق بي، أعلم ذلك. كل أدعية الجنازات، قراءات الفاتحة، وتلاوات سورة ياسين يتوجب لها أن تنلى على روحي. وكل ما نظرت إلى شواهد القبور شعرت وكأنني قاتل متسلسل. وبعد كل رحلة عودة من المقبرة التي أترك فيها أعز أقربائي، يغمرنني شعور من ارتكب عاراً فظيلاً. فكل من حضرت حفل عرسه، حضرت جنازته بالمقابل. كما أنني أتذكر طفولة العديد من المشاهير بل وولاداتهم أيضاً، ممن باتوا لاحقاً حديث القاصي والداني. وكأنني شرطي مرور يتعقب طريقهم منذ خروجهم من رحم أمهاتهم وحتى بلوغهم القبر، أعلم أنني أنتهي إلى تلك المقبرة التي التهمت - بصمت وهدوء - العديد من الأصدقاء والمعارف الذين يصغرونني سنًا. ألم يمضِ وقت وداع روحي لجسدي وجسدي لهذا العالم؟

حسناً ، كوني لا أشرك الأموات موتهم ، فهذا لا يعني أنني أشرك الأحياء الحياة أيضاً. فرغم أنني لا أزال حياً ، ولكن أبنائي لا يشاركونني العيش مثلاً..

صحيح أنني خرجت حياً من حرب الاستقلال ، ولكن ألا يتحتم على روعي أن تنال حريتها أيضاً؟

وكأنني أواصل حرباً باردة مع كل من هو على قيد الحياة ، حرباً نفسية. ولكن قلبي لن يحتمل العيش لفترة أطول من أحفادي. فرغم أنهم يحافظون على مسافة بيننا ، ولا يسألون عني في الأعياد الوطنية ، وفي الأعياد الدينية تقتصر معايدتهم على مرور عابر ومن ثم الهرب.. فأنا أقف في صفهم خلال هذه المنافسة المزمنة. ذلك أنّ سلامة روعي ترتبط بتسليم روعي..

فالكل أمام الموت مجرد أغرار ، وإن كنت على قيد الحياة حتى الآن ، فاعتبر ذلك حظاً مباركاً ؛ كحظوظ المبتدئين.

كل ما بقي في ظلال الماضي

فهو قد استمر لوقت قصير

«ما هو الشيء الذي كلما امتدّ قصر؟

إنه العمر».

(عبد الحق حميد تارهان ، 1825-1937)

لقد فاز والدي بأمي في لعبة قمار.

ففي لعبة النرد ، وبعد أن رجّ الزهر في قعر الفنجان ، رمى الدوشيش على الجوخ الأحمر ، وبذلك حصل على أمي.

ومن الواضح أنّ خالي الذي جرّده أبي من كل ما يملك ، وجد في شقيقته التي وضعها على طاولة الرهان ، آخر وسيلة للنجاة.

الصدفة ، وطالع السعد والنحس.. كلها تفرعات عن القدر..

إن الدفاعات التي تعزز تذكر أحزان الماضي ، لا تكاد تقارن بالسكينة التي يجلبها النسيان ، ورغم ذلك فهذه الميكانيزما العقلية لا تستطيع اقتلاع الذاكرة.

كانت أمي الزوجة الثانية لوالدي.

وابتداء من سن الخامسة بدأتُ باقتلاع البرسيم من الحقل ، وأخذ الخراف إلى

المراعي الجبلية.

درست في مكتبة الصبيان ، وحين كنت على وشك الاستعداد للتسجيل في الرشدية⁴، بدأت الحرب العالمية الأولى.

وكما أعتقد فإن زوجة أبي لم تكن تشفق كما يجب على حماتها ؛ أي جدتي لأبي. وبينما دخل خمسة وستون مليون إنسان في صراع لقتل بعضهم البعض ، تلاشت الخصومات التي كانت تهيمن على عائلتنا. فالمصائب تستجلب معها بكل تأكيد البعض من الحظ السعيد أيضاً..

وبعد خمس سنين من المقتلة الصاخبة ، بدأت حربي أيضاً ؛ حرب الاستقلال بالإعلان عن نفسها.

كنت في الخامسة عشرة ، ولم يكن قد مضى على زواجي من ناجية سوى وقت قصير. كانت الفتاة المسكينة يتيمة. وقد لجأت إلينا ، وبدوره قام أبي بتزويجنا. لو حدث ذلك في أيامنا الحالية لقليل عنا منحرفين ، فبطبيعة الحال أنا أيضاً أطالع الجرائد. ولكنهم في تلك الحقبة ثمنوا ما قمنا به عالياً. رغم أننا لم نقم حفلة عرس ، ولا أقمنا الموائد ، فقد تزامن إعلان زواجنا مع إعلان السفر برك.

وبذلك توجهت إلى الجبهة كجندي عادي ، وبالتالي فإنّ رتبتي لم تكن تتطلب الذكاء ، تماماً كجميع الرتب العسكرية الأخرى.

أصبت في الحرب ، فقد تحطم كتفي الأيسر تقريباً ، وبذلك عدت إلى المنزل ، وكانت تلك أول مرة شاركت فيها الفراش مع زوجتي رغم جراحي ، على أي حال..

كانت ناجية زوجة مطيعة إلى أقصى الحدود ، وبدوري لم أكن من النوع الذي يصدر الأوامر ، وكانت تلك صيغة سحرية للسعادة العائلية.

مات أبي خلال الحرب ميتة طبيعية ، كان حدثاً استثنائياً أنه لم يستشهد ، فلم يكن له نصيب في الشهادة.

مع هدوء الأوضاع بعد انتهاء الحرب ، نشب صراع بين أخوي الكبيرين - من أبي -
حول الوراثة والمال.

وبدوري أخذت ناجية التي كانت حاملاً حينها بجورية ، وابني رجب وهاجرت إلى
إسطنبول ، كان ذلك في العام 1925.. لم نكن نملك حينها ما يمكن أن يعول عليه ، كل ما
كان بحوزتي هو وسام الاستقلال الأحمر الذي سطرّ عليه (نصر من الله وفتح قريب) ،
بالإضافة إلى بندقية الكولونيل أندريا المغطاة بالذهب التي سطوت عليها.

بدأت مزاوله أعمال البناء في مختلف المناطق ، كما عملت حملاً لبعض الوقت
في غالاتا ، بعد جورية وُلد مجيد ، الولد يأتي ورزقه معه ؛ فقد بدأت العمل في محطة
السكك الحديدية الحكومية ، وذلك بفضل صديقي ذو الفقار ، وانتقلت للعيش في كادي
كوي. وعملت طوال أربعين عاماً حارساً ليلياً في محطة حيدر باشا ، وأُحلت للتقاعد في
العام 1975.

والآن أنا وحيد..

كيف مرت الأعوام المائة؟ حيناً ، سأكتفي بقول شيء واحد ؛ هناك تهويل في
تحديد الفرق بين ثمانية واحدة وقرن.. وبالتالي ، فإنّ كل ما بقي من ظلال الماضي ، يمرّ
أمامك بلمح البصر..

للقنلى مفة الففوق

العءءى على القنلة

إنّ ذو الفقار ظرف أوغلو هو أكثر الأشخاص الذين تعرفت إلفهم رحمة وكرمأ وءسن ءلق. كان أشبه بشءفة فشار أوسطا (منفر أوذكول) فف ففلم (عائلتنا) المعروف عام 1975.

فف الثاني والعشرفن من تموز العام 1935 كنت أءول فف ءاءة فوكسفك كالءرفم ، وءءءزمء بالفوففة. كانت الشمس ءءءء ءءوءءة وكانه الفوم الآخر فف هءا العالم. لءء كانت الحرارة شءفة الارتفاع ، ءءى أنّ الءءا ءان فضع بفضأ مسلوقأ من شءة الحر.

ومن أعلى الءاءة ، كان رءل بطقمه الءف بلون القهوءة بالءلفب فسفر نءوم الأسفل ، فف إءء فءفه ءقفبة سفر وفف الأءرى ءقفبة عاءفة. اقءربء منه مءاطبأ:

- أفلزمك ءمأل سفءف ؟

ألقى على نظرة ءانبفة وابءسم ، كان نءفل القوام ءءلف ، ولكنه فقف باءءفال على النقفض منف ، أنا الءف لم أءن سوى بانس مهلهل.

- ما اسمك أففها الشاب ؟

- روءف.

أعطانف ءقفبة الفء ففما اءفظ بءقفبة السفر ، وءذفنا المسفر سوفة نءو المفناء.

علق بأسلوبه اللطف:

- لو كان ما نحياه رواية ، لكننا الآن أنا وأنت في الصفحة ذاتها.

- معك حق سيدي.

- متزوج؟ أديك أطفال؟ أتعاش من وراء الحماله؟

- أجل. لدي ثلاثة أطفال يقبلون يديك.

- فليحهم الله. كل عمل يهدف إلى رزق حلال فهو مقدس بالتأكيد ، أهنتك على

جهدك يا أخي. ولكن أستطيع تأمين رزقك من خلال هذا العمل؟

- للأسف لا سيدي ، ولكننا نحمد الله على حالنا ، فهي أفضل من الحرب.

- أين كنت أثناء الحرب؟

- في عنتاب..

- إذأ ، فأنت محارب سابق ، أليس كذلك؟..

- أجل محارب..

- ما شاء الله ، كم عمرك؟

- ثلاثون - والغريب أنني أتذكر شعوري بالخجل ما إن أطلعت ذو الفقار ظريف

أوغلو على عمري ، فقد شعرت بنفسي كهلاً مهزوماً. ولكنني حين أفكر في الأمر الآن ، كنت

أبدو حينها طفلاً. كان ذو الفقار أكبر مني بخمس سنوات ، وهو الآخر كان حينها طفلاً.

ركنت أربع إلى خمس سيارات مارسيديس على جسر غالاتا. أولاد حفاة كانوا

يمتهنون مسح الأحذية ، الترامات التي تذكر بأراجيح حمراء تتبادل التحيات وهي تمرّ

بمحاذاة بعضها بأصوات أبواقها. كانت ضفة الجسر المواجهة للميناء مزدحمة. كم كانت

مزدحمة؟ لقد كان تعداد إسطنبول حينها سبعمائة وخمسون ألف نسمة ، فيمكنكم تخيل

الزحام على هذا الأساس .

وصلنا الميناء ، كانت باخرة الشركة الخيرية تطلق الدخان ، وهي تعكس وهج الشمس المتلألئة كطبقة ذهبي قد غسل للتو .

أخرج من جيبه عشرة قروش .

- طرة أم نقش ؟

- طرة .

استقرت قطعة النقود المعدنية المتشكلة في الهواء وسط صفيها على ظاهر يد السيد ذو الفقار ، على الوجه الذي يحمل صورة السنبلتين المتصلتين تتوسطها عبارة (الجمهورية التركية) باللغة العثمانية ، وقد كنت أنا الراجح . ضحك بتواضع ومدّ إليّ بطاقته .

- هل تستطيع القراءة والكتابة ؟

فقلت بتهجي الكتابة المطبوعة على البطاقة بصوت عال :

- ذو.. ال.. فقا.. ر ظر.. يف أوغ.. لو ، مد.. ير مح.. طة حي.. در با.. شا .

- جيد. تعال غدا إلى المحطة ، ستكون ضيفي ، أريد التحدث معك حول بعض

الشؤون ..

كان ذو الفقار ظريف أوغلو الذي قام بتوظيفي منذ سبعين عاماً ، على فراش الموت . وعلى أي حال فقد كانت إحدى قدميه قد خبطت نحو الجنة منذ وقت طويل ، وقد غشت عينيه الدامعتين طبقة رقيقة ، في حين صفع عزرائيل في إحدى جولاته الاستفغادية فمه الغائر الأسنان ، أما بشرته الشاحبة فغطتها تجاعيد ككفن مبلل تتقاذفه الريح ، ما

جعلني أفكر “لا يمكن للمرء أن ينكمش على هذا النحو سوى بعد رحلة طويلة في الفضاء الخارجي”. كنا في غرفة مؤثثة بطريقة بالغة البساطة تغذي في الإنسان رغبة تأملية. يحيط به أفراد عائلته الذين استكانوا للتوكل على القدر، وهم يتمتمون بالأدعية منتظرين، وقد أعلن الطبيب “لا رادّ لمشيئة الله”. في الحقيقة، لا نجد الكثير مما يمكن لطبيب ورجل في المائة وخمس سنوات أن يتناقشا فيه. وكان يدور في ذهني حينها أن أكتب على شهادة قبري: “لا أؤمن بالطب”. كنت أفكر بذلك فيما كان الإمام يتلو القرآن بالقرب من ذو الفقار. ولكن ما عدد السور التي يمكن قراءتها لشخص يكابد سكرات الموت؟

بدا وكأن ذو الفقار ظريف أوغلو يهامسني من العالم الآخر:

- روحي، أهذا أنت؟

- أجل أنا هنا.

أخذ نفساً عميقاً متحشرجا، وغرغر:

- فليخرج الجميع، أريد أن أتحدث مع روحي لوحدا..

انتابنتي الحيرة، يبدو أنها صحوته الأخيرة.

بدأ الحاضرون في الغرفة يتبادلون نظرات مترددة، وقد بدت السيدة زبرجد - زوجة معلمي - كدرة في شحوبها كشمعة على وشك أن تخبو.

- اخرجوا - كان الأمر الثاني كفيلاً بأن يطيعه الجميع، بما فيهم الإمام الذي نهض على عجل.

لم يكن أمام المدير سوى بضعة ثوان.

- اقترب.. واسمع كلماتي الأخيرة - وأمسك بيدي.

قربت أذني من فمه الأردد الذي بات أشبه بعنكبوت وسط لحيته المبعثرة كنسيح
عنكبوت واهٍ.

- تفضل آبي - كانت المرة الأخيرة ، من الآن وصاعداً التي أنادي فيها أحدهم
ب. "آبي" 5.

- أنا وأنت.. كنا أفضل الأصدقاء..

ارتفع منسوب يناييع عيني - أجل..

زأر بصمت:

- اقتل معصوم جيغي 6.

- ماذا؟

تلوى وكأنه تلقى طعنة ، وهو يأمرني بتضرع:

- مع.. صوم.. جي.. جي ، اقتله..

- معصوم جيغي ؟ ومن يكون ؟

حتى وهو في النزاع الأخير لم يتخل عن لباقته الكلامية:

- أرجوك.. - جحظت عيناه كقبتين ، وكأن دخان الموت قد أحرق خياشيمه

فأردف محشرجاً - اقتله.. اتي.. تله!..

وفجأة ارتخى جسده ، وتراخت أصابعه المجتمعة في قبضتي ، ومال رأسه جانباً.

جلست على حافة السرير والبندقية الذهبية في حضني ، والأفكار تعصف بي.

لم يسبق لي اتخاذ قرارات بهذه الصعوبة.

فقد أحالت كلمات ذو الفقار ظريف أوغلو الأخيرة عقلي الرائب إلى سطل عيران

مخضوض..

كان أحد أفضل نماذج سادة إسطنبول ، لم يقيم بإيذاء أحد ، يعيش على الدوام في وفاق مع الجميع ، ويقابلهم دوماً بابتسامة. ما الذي دفعه بحق السماء ليطلب مني التخلص من أحدهم؟

ومن يكون هذا المعصوم جيبي الذي أجبّ حقداً بلغ حدود الموت في قلب ظرف أوغلو؟ كيف وأين لي العثور عليه؟ فهل لشخص اسمه معصوم وكنيته جيبي ، أن يكون مجرمًا ارتكب ما يستحق الموت؟

ولما لم يكلف أحد شبان عائلة ظريف أوغلو مهمة تنفيذ هذه الجريمة؟ بل آل إلي وزير ارتكابها؟ طبعاً! فقد بلغت المائة من العمر على أي حال.. وباتت أيامي معدودة ، حتى أنّ الشرطة لا يمكن أن تشتبه فيّ ، وحتى لو تم القبض علي فقبل الانتهاء من بيروقراطية المحاكمات وإجراءاتها ، سأكون قد أزحت الستار وتواريت عابراً إلى العالم الآخر.

ولكن طالما أنّ المدير كان ينوي تكليفي بمهمة القتل هذه ، فلما لم يزودني ببعض المعلومات مسبقاً؟ لم انتظر حتى آخر لحظة؟

لقد بقينا لسنوات طوال ونحن نتحدث عن أهمية التشهد في اللحظات الأخيرة من الحياة ، ولكنه وبدل استحضار ذكر الله ورسوله ، تشبث بذكر معصوم جيبي ، ترى هل كان يفكر حينها «فليذهب معصوم جيبي إلى قعر الجحيم بأسرع وقت ، ولا أبالي إن لم تكن الجنة مآلي»؟

ترى أيكون السيد ظريف أوغلو قد فقد عقله؟ فكما تعلمون ، يمكن لمن يكابد سكرات الموت أن يتلفظ بأكثر الكلمات جنوناً. لا لا ، لا أظن ذلك ، لقد كان مدركاً تماماً لما

يقوله ، وكان في كامل قواه العقلية ، وقد حدثني بنبرة جازمة.

وما عليّ سوى الوفاء بهذا الالتزام. أجل ، حتى لو كانت الغاية مجهولة ، فسألاحق هذا الرجل الذي لا أعرف ، وسأرتكب ما لم أقم بارتكابه على الإطلاق ؛ سأقضي عليه. ربما ستقولون [لا بدّ وأنك لا تحصي من قمت بقتلهم خلال حرب الاستقلال؟] ولكنني لم أقم بقتل ولو جندي واحد من الأعداء أثناء الحرب ، ولكن لو أشيع عني هذا الأمر ، فستهوي مكانتي إلى الحضيض.

فعلى عكس الشائع ، لا يلوث سوى القليل من الرجال أيديهم بالدماء خلال الحروب ، فتلك الأعداد المهولة من الأجساد المبعثرة في المكان ، لا تشير بالضرورة إلى وجود ذلك العديد الكبير من القتلة. فخلال الحرب العالمية الثانية ، لم يقم سوى خمس الجنود بإطلاق النار على العدو ، أما الباقون فمنهم من لم يقم بإطلاق النار مطلقا ، ومنهم من قام بإطلاق النار في الهواء. أمّا خلال احتلال الولايات المتحدة الأميركية لفيتنام ، فقد أطلق الجنود الأمريكيون خمسين ألف طلقة مقابل كل قتيل فيتنامي. والحاصل أنني محارب الألم الذي لم ينطفئ أواره ، أكثر من كوني محارب الصراعات الدامية.

ولكن ماذا لو أمسك الموت بتلابيبي قبل أن أتمكن من العثور على معصوم جيحي ؟ حينها سأكون قد بلعت موسى على الحدين. فسيأخذ السيد ذو الفقار بخناق في الآخرة ، وسيحيل حياتي إلى جحيم.

ضليح بالنفس البشرية

يقرر الرفق بالحيوان

«الموت ، عمل سهل يمكنني

القيام به وأنا مستلقٍ».

(وودي آلان)

نظرت إلى تلك الحشود الغفيرة على مدرجات الملعب وأنا أفكر «سوف أموت قبل كل هؤلاء»..

ربما يكون معصوم جيحي الذي أمرني ذو الفقار ظريف أوغلو القيام باصطياده ، متواجدا بين هؤلاء الخمسين ألف شخص ، كإبرة في كومة قش.

يقال بأن الإنسان لا يتعرف على أصدقائه الحقيقيين سوى في الثلاثين من العمر ، وبعد تلك السن لا يمكن عقد الصداقات ، كذب ، هذه الهديانات تسمم الذكاء البشري.

فحين تعرفت على جيفان كازانوف في احتفالات الثالث والعشرين من نيسان التي أقيمت في ملعب فريق فنار باهتشي (شوكرو سراج أوغلو) ، كان كلانا قد خلف ورائه عمر الثلاثين. تمكن الشاب من الوصول إلي بشق النفس مستغلاً الازدحام ، كان يبدو في نقائه أكثر براءة من بيضة قد خرجت من الرحم للتو ، وقد قام بتقبيل يدي بصورة آلية.

- كيف حالك سيدي ؟

- هذا سر.

كان رهيف القوام ، عينه اليسرى زرقاء والأخرى بنية اللون (تباين لون القزحية) ، وهي إحدى الامتيازات التي تغلف بإطار مرضي. «لو كان لي مثل تينك العينين لكنت اجترحت الكثير» ، كان يرتدي بدلة رياضية حمراء وبيضاء ، وإلى جواره يقف ولد صغير ، كان ابن أخيه ، في الصف الثاني الابتدائي ، واسمه أوزان. رأسه الحليق كان تام الاستدارة ، وبدا اللعين طفلاً لطيفاً.. وقد عقد حاجبيه وزم شفثيه بإصرار لم أحدد إن كان سببه الزعل أم الغضب.

فيما واصل جيفان حديثه في انفعال:

- كنت أرغب في التعرف إليك منذ وقت طويل..

- أووو! إذاً هذا أنت؟

- أكاد لا أصدق.. حضرتك.. روعي مجرد!

- إيه ، هذا ما أنا عليه لعدة أيام إضافية.

تدخل أوزان أيضاً في الحديث:

- هل كانت الديناصورات موجودة في عهدك؟

- بالطبع ، كنا نربيهم في الأفنان ، وبتناول على الفطور بيضة ديناصور كل

صباح..

اختفت ابتسمت جيفان كما تنطفئ أضواء إحدى المراقص الليلية الواحدة تلو

الأخرى.

- هل أستطيع.. القيام بزيارتك؟

- تستطيع بالطبع ، فأنا أحب الضيوف.

- أين تقيم؟

- في كادي كوي ، في حي يلدغيرمان..

- كيف يمكنني التواصل معك؟ هل لديك هاتف نقال أو بريد إلكتروني؟

- ليس لدي هاتف نقال أو كمبيوتر - ولكنني أعطيتهم رقم هاتف المنزل - سأسافر

إلى موش بعد أسبوع من الآن..

نظر إليّ بعينين ملؤهما الاستغراب والدهشة ، يبدو أنّ التقدم في العمر يسبب

استنكاراً في حال اتخاذ خطط مستقبلية ، وخاصة لرجل قد بلغ عمري ، فالتخطيط لأسبوع

قادم مدعاة للصدمة..

- هل تتحدر من موش؟

- لا يا بني ، ولكن الثلاثين من الشهر يصادف ذكرى تحرر موش ، ويجب عليّ

إطلاق النار على قوات العدو.

إن بلغت المائة من العمر ، فستصبح عرضة لدهشة الناس كلما رأوك لا تزال على

قيد الحياة ، لذا عليك التخلي عن لعب دور الكائن الحي والإعلان عن موتك الوشيك

بحسب ما يرتأون ، وهذا ما يفقدك الرغبة في التواصل ورؤية أحدهم. ففي المائة لن يتيسر

لك أن تضرب موعداً للقاء. على أي حال حتى حين وصلت إلى موش ، لم يخف من

استقبلوني هناك دهشتهم. ففي كل مرة من العام ومع لقائي المعتاد لنفس الأشخاص في

احتفالات التحرير ، يضحكون باستغراب وكأنني سقت إليهم مفاجأة مدهشة ، وأثناء لحظة

الوداع يطلبون مني العفو بصورة توحى بثقتهم الكبيرة في أنها المرة الأخيرة التي سنلتقي

فيها.

حين العودة من موش ، في الثالث من أيار ، كنت قد نسيت جيفان كازانوفاً تماماً. كنت أراقب الحمامات الهادئة وهي تلتقط فتات الخبز الذي نثرته من أجلها على الرصيف. كانت تتجول حول الأصص بخطواتها الآلية. حين وصلني صوت جرس الهاتف جال في خاطري «إنّ كل من أرغب في التحدث إليهم قد مضى على موتهم وقت طويل» ، وأنا أضع طاقم الأسنان في فمي قبل أن أرفع السماعة.

- ألو!

- مرحباً سيدي ، أنا جيفان كازانوفاً ، لقد تعارفنا في احتفال الثالث والعشرين من نيسان..

كان يتكلم بأسلوب لبق وبصوت ودود..

- كيف حالك يا بني؟ - تحدثت إليه مظهراً اشتياقي له..

- شكراً لك ، أدعو لك بالصحة. - هممم! أمر جدير بالاهتمام..

بدأت بالتذمر قليلاً ، باعتباره أحد حقوقي:

- أظنني سأصاب بنزلة برد على ما يبدو..

وعلى الفور قاسمني المصاب:

- آه ، أتمنى لك الشفاء ، أهنأك ما أستطيع القيام به؟

بصوت جليدي أجبت:

- لا أظن ، هل أنت طيب؟

استسمحني بالقول:

- لا!!

بدأت باستجوابه:

- إذا ما هي طبيعة عملك؟

أجابني بنبرة اتشحت بالامتعاض:

- في الحقيقة أنا.. معلم تربية رياضية..

اتخذتُ موقفاً يوضح عدم تصديقي وأنا أعلق:

- حسناً، إن كان هذا ما تقوله..

اضطرب:

- لا، أنا أستاذ للتربية البدنية بالفعل.

أواصل العناد:

- أفهم..

يسألني بياس:

- يبدو أنك لم تصدقني؟

أغَيّر الموضوع:

- كم تبلغ من العمر؟

- الخامسة والثلاثين - إذاً فهو لا يزال في منتصف الطريق. أما أنا فرغم انتهاء

الطريق فقد واصلت المسير، وتجاوزت الحدود منذ زمن طويل.

المسنون عادة نكدون ، عديمو الرحمة ، منافقون ، بخلاء ، حاسدون ، مكارون ، مزاجيون ، مترددون وعصبيو المزاج.. أنا أدرك ذلك في قرارة نفسي ، ولكن ما ذنب هذا المسكين ؟ لا شيء ، كل ما في الأمر أنني أعْتَفَه دون سبب:

- أصغر أحفادي أكبر منك سنًا..

يهذي: - ما شاء الله ، إذًا لديك أحفاد أيضاً ؟ فليحفظهم الله ، وليحم والديهم..

من الواضح أنّ كلمة الحفيد قد تجسدت في ذهنه في صورة أطفال صغار..

- مات كل أولادي ، وهذا يعني أنّ أحفادي لم يعد لديهم آباء وأمّهات. كما أنهم أصبحوا كباراً بما فيه الكفاية حتى بات لديهم أحفاد..

- عفواً سيدي ، على الأغلب أنني أتحدث دون تفكير.

- على الأغلب ؟ يبدو أنك تهوى صحبة المسنين ها ؟ أهذا ما كنت عليه دوماً؟.

- لا ، أعني ليس دائماً ، أظنني قد اضطربت قليلاً.

- ربما يبدو الأمر غريباً لك ، ولكن وقتي ثمين.

- أعتذر. لقد أطلت الحديث ، إن كنت لا تمانع فأنا أود القيام بزيارتك.

- لها ؟

- أنت آخر محاربي حرب الاستقلال الذين على قيد الحياة..

- وأنت آخر مدربي التربية البدنية الذين على قيد الحياة ، أليس كذلك ؟

- للأسف لا..

- للأسف ؟ تبدو طماعاً ، ما كان اسمك ؟

- جيفان كازانوفا..

- جيفان..

- منذ أسبوعين أخبرتني بأنك تحب الضيوف..

- بالنسبة لرجل مثلي بلغ المائة من العمر ، كما بالنسبة للأطفال الصغار ، فإنّ مدّة الأسبوعين تعني تغير الكثير من الأشياء..

- أتعني أنك لم تعد مرحباً بالضيوف ؟

هل أنت مستعد لسماع الحقيقة ؟

- على الدوام.

- أنا أكره الضيوف - قلتها كاذباً..

- يبدو أنني تسببت في إزعاجك ، أرجو المعذرة..

- مع السلامة - قلتها ووضعت سماعة الهاتف.

لا بدّ وأنكم أيضاً قد لاحظتم أنني لست بذلك المحتال ، وإنما مجرد بائس يشفق على ذاته ؟ وحقيقة الأمر أنني وحيد لدرجة أنّ التحدث عبر الهاتف حتى مع شخص غريب تغني حياتي الآيلة إلى الذبول.

نزعت طاقم أسناني برّمته ووضعت في الكأس.

في اليوم التالي وبينما كنت أتجه لأداء صلاة الظهر ، قطع جيفان كازانوفا ذو العينين الزرقاء - البنية عليّ الطريق.

- السيد روجي ، السلام عليكم.

اصطنعت عدم معرفتي به.

- وعليكم السلام أيها الشاب.

حين تبلغون من العمر ما بلغت ستخاطبون كل من يصادفكم من عمر السابعة وحتى السبعين بالشاب أو الأنسة الصغيرة.

- هل يمكننا التحدث قليلاً سيدي ؟

- عليّ اللحاق بموعد الصلاة - أن تكون ملاحقاً أكثر لذة من أن تكون الملاحق بالتأكيد ، ولكن هيهات أن أمتلك هذا الحظ.

رافقني جيفان كازانوفاً إلى الجامع ، وأنجز وضوءه في سرعة الضوء ، وفي الصف ذاته أقام كلانا الصلاة كتفاً إلى كتف ، وعلى باب الجامع تصافحنا. بعد إتمام طقس العبادة ، كان كلانا كنبته أزهرت أغصانها للتو ، كنصفي تفاحة واحدة ، كذبايتين في طبق حساء واحد.

ستتساءلون: «يا للسرعة؟» ولكن قرارات القلب المبهمة تتبدل بين ثانية وأخرى ، ومقابل ذلك ومع تقدم العمر ، نتعلم التمسك بأربعتنا خلال مسالك الحياة المتفرعة ، بالحيلة والحذر ، التدبير والتقدير..

ركبنا التكسي وانطلقنا نحو مواض⁷، كان الراديو يبث افتتاحية الكونشيرتو الثالث (op.3 no.4) لسيرجي رخمانينوف (1 نيسان 1873 - 28 آذار 1943). فرجوت السائق أن يرفع الصوت ، كان جيفان يحدثني عن أمر ما ، ولكنني كنت أرى تحرك شفثيه دون أن أدرك ما يقوله علي وجه التحديد.

رسونا في إحدى حدائق الشاي.

- دعني أركن عكازك هنا سيدي..

- لا حاجة لذلك ، فعكازي يضيء عليّ الإثارة.

جاء الشاي ، وبينما كان جيفان ينهي آخر رشفة في كأسه ، انتبهت إلى أنني لا أزال أوصل تحريك شايي .

- يبدو أنك شارد؟

- وهل هذا بشيء؟ أحيانا حين أتدوش أنسى في أي جيب قد وضعت قطعة الصابون ، قبل عدة أيام حين عدت أدراجي إلى المطعم الذي نسيت فيه مظلي ، أدركت حينها أنّ ما نسيتته كان العكاز.

لم يدرك على وجه الدقة إن كنت أمازحه أم أنني أشكوه الحال ، لذا لجأ إلى تغيير الموضوع.

- هل ترتاد هذه الأماكن مع أصدقائك مثلاً؟ - يسألني.

- من أجل التنزه والتسكع مع أصدقائي عليّ القيام ببعثهم أولاً.

- العفو ، لقد أفسدت الأمر مجدداً.

كان جيفان كازانوفاً أقرب إلى رجل إسكندنافي بشعره الأسود ، وعينيه كالجسر اللامع بين الشرق والغرب. أسلوبه الوقور والمزعزع في آن ، يشي بأنه حصيلة حساسية تولدت نتيجة التعرض لشحنة ألم عالية التوتر.

- لا عليك ، فالكل يظنني أحد أفضل أصدقاء عزرائيل.

هل بدأت أكنّ له محبة حقيقية؟ ومن يدري؟ فأنا وبحسب آخر التحاليل ؛ (بعد أن صار ضليعاً بالنفس البشرية ، قرر الانتقال إلى الرفق بالحيوانات).

- لا أريد تخطي حدودي ولكن ، ماذا عن عائلتك ؟ .. ألدك أقرباء ؟
- أخي ، وقد كان توأماً لي ، ولكنه اختفى بطريقة بالغة الغموض .. قبيل ولادتنا ببضعة أسابيع .. - انتابته رعشة استغراب ، قابلتها بعطسة .
- الحمد لله .
- أطال الله عمرك ..
- ألم تتأخر قليلاً على هذه الدعوة ؟
- ماذا ؟ آه أنت محق . أعني ، العفو! .. ربما يجدر بك الذهاب إلى الطبيب ..
- وهل تسرع إلى المستشفى كلما عطست ؟
- لا ، في الحقيقة نادراً ما أفعل . لم أكن أقصد ذلك ..
- إن توقفت عن معاملتي وكأنني طفل ، أو كأنني سائح أجنبي أو كلاهما معاً ، فأظن ، عندها ، أننا سنتفق بصورة أفضل يا بني .
- أعتذر ..
- وإن واصلت التصرف بتذلل فائض مع أحدهم ، فتوقع أن يصبّ عليك سخطه عاجلاً أم آجلاً ..
- استغفر الله .. الحقيقة أنني لم أعرف ما يجب أن أقول ..
- انس الأمر .. هل لي أن أقدم لك نصيحة تنفعك طوال عمرك ؟
- رجاءً تفضل ..
- لا تفعل ما هو متوقع منك ، أو ما أمرت به أو ما يتيح إنقاذك ؛ بل ما يوافق ما

يعتمل في أعماق قلبك. شخصن الخير..

نظر إلي وهلة ولسان حاله يقول: «ولكن ما قاله ليس من الأمور التي لا أعرفها».. -
والحمقى غير قادرين على امتصاص النصائح ، ويحتاجون إلى شرح المشروح. أوماً رأسه
الفارغ وهو يقول:

- حسناً سيدي.. - متصنعاً الاستلهام..

حتى أردفت بالقول:

- إن كنت خيراً ، فلن تخسر الحروب النفسية على الإطلاق..

هنا التمعت عيناه ببريق عابر.

- هل أنت متزوج؟

- لا.

- طالما أنك أعزب لم يهزم بعد ، فلا بدّ وأنتك زير من العيار الثقيل..

- لست أملك من صفة الزير أكثر من مال قليل وصل إلي من قلة الحظ..

- لا تتذمر. فالزواج ما هو إلا رباط مقدّس يمنح المرأة القدرة الشرعية على الثرثرة ،

والرجل امتياز العبوس.

- ها؟

- أحدثك عن الزواج ، فهو ليس السبيل الأوفق لعقد صداقة ناجحة..

- ربما تكون محقاً ، لا أعلم. بالطبع ، فأنت محق..

وكملايين الحمقى كان يبدو مجرد شخص عادي.

بسم الله ، رحمانينوف

أصرخ قدر المستطاع:

- سابقاً ، كانت تستهويني فقط النساء الأكبر مني سنأ..

يضحك جيفان كازانوف الذي يقف في المطبخ وهو يعدّ المعكرونة ، وبعد وقفة قصيرة يسألني:

- أتفضل صلصة اللحم المفروم إلى جانب معكرونة باريللا ، أم سمك الطونة سيدي؟

- لا فرق عزيزي. فبعد الستين تنقلص حاسة التذوق ، في الشهر المنصرم في بلدية أرتفين تناولت الفواكه البلاستيكية الموضوعة على الطاولة في غرفة الاجتماعات ، دون أن أنتبه ، ودون أن أميز الفرق بينها وبين الطبيعية. وفي أرضوم قضمت قطعة الورق المقوى الموضوعة إلى جانب كأس الشاي ، ظناً مني أنها قطعة بسكويت ، بدت لي بائحة بعض الشيء ، ولكن طعمها كان جيداً.

يرتب طاولة الطعام.

- هل كان علي إعداد السبانخ أيضاً؟

أنفض ياقة جاكيتي معلقاً:

- لقد تناولت من السبانخ أكثر من باباي..

يرفع غطاء القدر:

- أرجو أن ينال إعجابك.

أبعد الغطاء.

- الطريق ليس فقط إلى قلب الرجل ، بل إلى باقي عقله وأعضائه الجسدية الأخرى ، يمرّ عبر المعدة..

يملاً الصحون:

- هنيئاً.

أتمهل قبل أن أعقّب بصوت راعش:

- لا زلت أشتاق إلى طعام أمي حتى الآن..

- هل كانت والدتك طبّاخة جيدة؟

- لا ، كان طعامها مقرفاً ، ولكنني أدركت ذلك بعد مضي وقت طويل جداً.. فما تطبخه الأم يحدد مفهوم اللذة وسوية التذوق لدى الطفل. ولكن أفضل طبّاخ في سلالتنا كان المرحوم جدي. وقد أضاف إسهامات مهمة على المطبخ التركي.

- ما شاء الله ، ترى ما هي الأطعمة التي استحدثتها؟

- لم يستحدث نوعاً محدداً بعينه ، ولكن لولاه لكنا لا نزال نسمي الكسكس

بالسجّج⁸..

قبل الجلوس إلى مائدة الطعام ، وضعت أسطوانة أوبرا (حكاية القيصر سالتان) من رباعية الفصول بحذر بالغ على جهاز الجرامفون:

- بسم الله..

وحين تصل إلى مسامعه مقطوعة (رحلة النحلة الطنانة)9 التي عزفها رخمانينوف على البيانو ، يسألني جيفان :

- أتواظب على سماع موسيقى الكلاسيك الغربية ؟

- أجل ، لقد كنت حارساً ليلياً في محطة حيدر باشا ، وقد واظبت على سماع الموسيقى الكلاسيكية التي كانت تبثها إذاعة (Trt) مساء حتى الصباح ، لمدة أربعين عاماً.

- لا أفهم كثيراً في هذا النوع من الموسيقى. فلم أتمكن من إدراك كنهها..

- أن تكون صاحب ذائقة ، ليس بالضرورة أن يكون مرتبطاً بما تتمتع به. فأذواقنا تكتسب مع الخبرات ، وأسلوبنا يتحدد وفق طريقة تفكيرنا. وحاسة السمع كما صوت الإنسان تحتاج بدورها إلى تهذيب أيضاً. إنّ التمتع بالألحان التي تطرق الأسماع ، هو ابتدال يتقنه حتى أصحاب الذوق المنحط. لكن الإبداع يكمن في اكتناه حقيقة الموسيقى ، واكتشاف نفائس الأعمال الفنية. والموسيقى أكثر الفنون تألّهاً ، وأمثلة السبل لدحض الفناء. وكأنها رسول ينقل إلينا أخبار عالم آخر ، وبذلك فهي تشعرنا بوجود ذلك الآخر بالفعل.

كان جيفان أقرب إلى الأطفال المهذبين حين يستمعون إلى إحدى الحكايات. وضع في صحنه كمية قليلة من الطعام ، ولم يمسهما.

- لها طبقك فارغ ؟ - أسأله.

- ليست لدي شهية كبيرة.. كما أنني أتبع حمية حالياً..

- إن لم تأكل فلن تكبر يا جيفان.. - أقول لصديقي الناحل - كما أنك لست لدينا ، ما شاء الله ، فأنت في مثل وزن الفاتح حين قام بفتح إسطنبول. اسمعني جيداً: إن سرّ النحافة هو سحب بطنك إلى الداخل ، وأما سر الغنى فهو منح آخر مائة لديك كإكرامية ، بينما سر الشباب فهو أن تكذب بشأن سنّك الحقيقي - وأغرز شوكتي في تلافيف المعكرونة التي تستحضر مشهد جنود روما القتلى وقد نالت منهم السيوف في إحدى التحصينات

قبلة دامت لهائة عام

«العالم ؛ مرحاض للطيور».

(الملازم إسحاق بيك ، 1888-1920)

واظب جيفان كازانوفاً على زيارتي يومياً بعد انتهاء دوامه في المدرسة ، وهو يلصق قبلات مسموعة على يدي. في الحقيقة لا أستلطف تقبيل اليد ، ولكنني كففت عن إيقاف الهاجمين على يدي ، فليقبلوها. في شبابي كنت أنفر من عادة تقبيل اليد ، والآن ، ليس على وجه البسيطة مخلوق واحد أستطيع تقبيل يده في هذا العالم.

نتمازح حيناً ، ونتطرح الهموم أحياناً أخرى. والغريب أنّ نكاتي تسبب له الحزن. وكما تعلمون فنحن العجزة نتمطق حين الكلام ، فحين تتساقط الأسنان ، ويرتخي الحنك ، وينزلق اللسان كيفما اتفق ، يغوص الفم في جعجعة تمطق أبدية. يواصل جيفان التحديق في فمي مثل المنومّ.

- لقد تجاوزت العقبة التي تخولني أن أكون مثلاً جيداً يقتدي به الشباب - أقول.

يعمل طوال الوقت كعبد المأمور ، مارد مصباحي ، روبوت تنظيفي. يتسوق لي من عند البقال ، السوق والمركز التجاري. كما قام بدهن المنزل ، وأصلح السقف ، ليغدو منزلي المهلهل المظلم بين ليلة وضحاها ، مشرقاً ملوناً كإحدى مدن الملاهي. حتى الحمامات باتت زيارتها أكثر تواتراً ، بل وكانت تدعو أصدقاءها أيضاً إلى شرفتي. وأخيراً يبدو أنني أعيش الحياة التي كنت أستحق.

أرتاد مع جيفان الحفلات ، الحدائق والجامع. وأينما تأخذنا أصوات تلاوة القرآن ،

عزف الكمان ، زقزقة الطيور ، نتبعها في سلاسة.

كما قام بطبع بطاقة شخصية لي ، تدمرت معترضاً:

- لن أعطي بطاقة لأحد وأنا في هذا العمر ، بعد أن أصبحت أنا نفسي بطاقة تذكارية..

كنت أخشى أن تتزعزع هيبتي ، إن تنازلت عن التذمر ، وخفتت من العبوس ، في الوقت الذي كنت فيه أعيش نشوة داخلية ، احتفاءً بحصولي على بطاقة باسمي للمرة الأولى. وعلاوة على كل ذلك فقد أرفق اسمه أيضاً بصفة «مساعد» لي في البطاقة.

الشباب أكثر حميمية ، على عكس الشيخوخة موطن النكد. وبالرغم من أنني واثق من إحراز سبق البطولة العالمية في النكد ، فحقيقة كون أيامي ، بل دقائق ، وحتى أكثر من ذلك ثوانيني معدودة ، كان مدعاة لخلق احترام الناس وتوقيرهم. فعلى سبيل المثال لا أظنكم - قرائي الأعزاء - ستكابدون مشقة في محبتي ، ذلك أنكم تعلمون أنني سأسبقكم في طريق الموت.

- هل والداك على قيد الحياة؟ - أسأل جيفان.

- للأسف.

- هل يعني ذلك نعم؟

- مع الأسف.

«لا» ؛ هذا ما كان يحاول قوله ، ولكنه كان يتصف بتلك السذاجة التي لن تجدها سوى في الأشخاص المحدودي الذكاء. كان يحمل بين ضلوعه قلباً لم يكن لظلال الغرور ، الجحود أو حتى الإهانة أن ترخي عليه بعتمتها ، وتلوّثه بظلامها..

فقد كان يتعامل مع حشرة مثلي ، كما يُعامل الصقر المغوار ، ولكنني - ولسوء

الحظ - أجسد في هذه الحياة ما كنت عليه قبيل مجيئي إلى هذا العالم. ولو لم تكن مجرد ذرات في هذا الكون ، فلربما كانت الأمور أكثر سلاسة.

- أحقاً كنت تميل إلى نساء أكبر منك سناً؟

- لقد بنيت حياتي برمتها على ما يسمى بالفارق العمري ، والتي لم تكن سوى لعبة أوصل الخسارة فيها باستمرار ، ذلك أنّ هناك فارقا عمريا بيني وبين جميع من يحيا على هذا الكوكب.

- هل أحببت يوماً؟ أعني كيف كانت الأمور في عصركم؟ هل كنت على الدوام في ساحات المعارك؟

- في السادس من شباط عام 1920 ، وبينما كانت المدينة ترتجّ على وقع المدافع ونيران الرشاشات الآلية ، رافقت فتاة كانت تعبر الطريق خلف خطوط الجبهة..

- أهذا كل ما حصل؟

- كان البرد ينهمر من السماء على شكل قلوب.

- يا سلام!

- اسم الفتاة.. من يعلم على أي شاهدة قبر بات محفوراً الآن.. كانت تلك أول فتاة أقوم بتقبيلها..

- ثم؟

- لا زلت تحت تأثير تلك القبة الأولى.

- أحقاً ما تقول؟

- ولا زلت أحاول تعلم مواصلة الحياة دونها..

ضربة الذاكرة

- «إلى ما تحيل عمرك المهيد؟

- إلى عدم موتي حتى الآن».

(السير مالكولم سارجنت)

حين أنوي الخروج من المنزل أنظر إلى صورتني في المرآة ، هذا ما يجعلني أتخلى عن فكرة الخروج. ذلك أنّ وجهي ليس من بين تلك الوجوه التي تدفعك للنظر إليها عبر المرآة ، بل يبدو وكأنه قد غطيّ بقلفة الذّكر ، لذا إياكم أن تبلغوا من العمر عتياً ، فهو أمر لا يحمل أي متعة ، ولا يختلف عن احتراق منزلكم وأنتم فيه. فقد تضخمت أذناي لتمائل غطائي قدر ، وتفلطح أنفي كالمغرفة ، وانسحب من جسدي ملح الشباب حتى آخر ذراته ، ويكفي ذريعة للبكاء ، مجرد النظر إلى يدي ، ولكن مدامعي غاض عنها الدمع ، وكما أضحك دون أسنان ، فأنا أبكي كذلك دون دموع أيضاً.. فمتوسط عمر الرجل اثنان وسبعون عاماً ، والمرأة ثمانون.. ولكنني أهذي بكل تأكيد ، ذلك أنّ سيارات الجنائز تجول في الأنحاء أكثر من سيارات العرائس. وما إن يراني حفارو القبور حتى يسرعوا إلى حمل الرفوش. فاللعبة التي اسمها الحياة قد انتهت بالنسبة إلي منذ دهر طويل ، وتفرق الممثلون ، ولكنني لا زلت أتجول في الأرجاء. يقال بأنّ «في وحدة الجندي مقتلته».. ولكن ألم أكن جندياً ، أولست وحيداً؟ إذاً أين المقتلة؟ لقد عاصرت دهوراً بمائة جيب ، كتلك الصداري التي يرتديها لصوص امتهنوا سرقة التوافه من المتاجر ، وكل الجيوب المائة فارغة.. وقد أصبحت الساعات قنابل موقوتة ، والتقاويم لوائح ملغومة.. حتى أنني أشعر بنفسي أحياناً مشروعاً توقف عن الإنجاز في منتصفه ، وأحيانين أخرى سيناريو لإحدى النوازل التي لم تتحقق..

قبل خمس سنوات ، وفي مطار غازي عنتاب الواقع في أوغوزلي ، كنت أستقل طائرة البوينغ (737)، كان جناح الطائرة مغطى بلاصقة الطرود البريدية ، وفجأة بدأت النيران تلتهم التيتانك الجوية التي أخذت تجرّ أسنة اللهب معها ، حتى تصدعت قمرة القيادة. في تمام السادسة صباحاً ، لم يكتب لأحد من ركابها السنة والثمانين النجاة سواي ، وحين عثروا علي وسط الثلوج كنت أرقد إلى جوار شجرة سرو اقتلعت من جذورها. وكان قد توفي أربعة أشخاص من أصل الثمانية الموجودين في القمرة أيضاً. وقد أشيع أنّ الحادث وقع بسبب المناورة الخاطئة التي قام بها الكابتن أثناء محاولته الهبوط ، أعقب الحادث صوري التي تصدرت كافة الجرائد جوار إعلانات العزاء وإلى جانبها عبارة «حمداً لله على السلامة». شعرت بالخجل ، كان علي جسدي الوضع أيضاً أن يحترق متقلصاً إلى حطام متفحم ، حتى تغدو أهدي رماداً.. من الغريب أن أشعر بالعار بسبب حسن حظي ، وأن أتكدر من تلك البشرية. لقد عشت أجمل أيام عمري قبل مائة سنة من الآن ؛ حين ولادتي ، ولكن مرور الأيام بات يخفف من متعتي ، حتى أصبحت لحياتي كسيفة الجلي. في عمري ستغدو لحاكم وأدمغتك متشابهة ، سواء كنتم رجالاً أم نساء.

حسناً ، لا أريد أن أنقل لكم عدوى حدادي لأنني لا أزال على قيد الحياة. فالشيخوخة هي آن الخروج من البيضة ، وأنا الآن جندي أفضل مما كنت عليه وأنا في العشرين من عمري. ورغم انحسار بريقهما لكن عينيّ ما زالتا شهلاوين ، ولا أقول ذلك - عزيزي القارئ - من أجل إغوائك.. لحظة من فضلك.. ما شاء الله ، لقد مرت الثانية ولما أزل على قيد الحياة ، إنّ الحياة زاخرة بالمعجزات ؛ وخاصة حياتي.

نثرت الحب للحمامات وقمت بسقاية الزهور ، وها أنا أراقب الشارع من التراس ، انظروا إلى اختيال هذه الحسناء ، تتمايل بكفلها وكأنّ الكون لم يخصّ أحداً به سواها ، حين أرى هؤلاء الحسنات أردد في نفسي متمنياً «ليتني كنت أصغر في العمر سنتين» ، إنها مزحة ، فأنا حتى لا أستطيع رؤية الشارع بوضوح من طابقي الثالث ، سأدلي لكم باعتراف أرجو ألا يثير استنكاركم: إنّ أكبر مخاوفي ، هو الوقوع في حب فتاة من جيل حفيدة

حفيدتي. أجل ، بعضا من الإنصاف ، فإن أغرمت بفتاة أصغر مني بثلاثين عاماً فقط ، ما الذي يمكن أن أقوله لها؟ «تملكين أجمل طاقم أسنان صناعية رأيتهما في حياتي» مثلاً؟ أو «إن الانفراد بإحدى أكثر نساء الخمسينات جاذبية ، لهو أمر مثير»؟. لا يمكن نسيان الحب الأول ، ولكن ماذا عن الحب الأخير؟ تلك القطعة الأخيرة التي تنتزع من أرواحكم حين تغادرون هذه الحياة؟ أظنون أن قلوب أولئك العجزة المحدودين المتراصين كتفاً إلى كتف في الجوامع فارغة عن بكرة أبيها؟ ويحكم! فالحب لعبة يلعبها الشباب ويتقنها الشيوخ.

تلك الملابس الغامضة ، مقارنة ما يدور في فلك المستحيل.. أسوأ ما فيها ، أنها يمكن بطريقة ما أن تناسبني..

فلو قيل لي بأني بعد بلوغي هذه السن ، سألعب دور البطولة في مغامرة قتل ، لكان من المستحيل عليّ تصديق الأمر. ذلك أنني لست سوى عجوز فانٍ ، غايته الأسمى هي ترديد كلمات الشهادة في خاتمة حياته الوشيكة. ولكنني - وبقيل الوصول إلى المحطة الأخيرة ، عليّ النزول في محطة أخرى ، فما خطته الأقدار على الجبين ، وما تخطه النوايا ، ليسا حرفاً متطابقة..

سأقوم باستغلال علاقتي بجيفان كازانوف في سبيل قضية معصوم جيحي. سيقوم كازانوف السلوقي في هيئة قطة ، بمطاردة أثر الأرنب الأرقط ، وأنا سأدوّن الحرف الأخير في حياة هذا الحيوان.. أحياناً يكون مفهوم الجريمة نسبياً ، بينما تكون العدالة ملتبسة..

عجوزان في مثلي سني يخوضان قتالاً يثير الدهشة ، فقد انهالا بالضرب على بعضهما بكل ما يمتلكان من قوة ، حتى تهالك جسدهما الثقيلان على الأرض. كلاهما جريح ، تعطيهما الكدمات والدماء. وبعد إلقاء القبض عليهما ، يسألهما المحقق: “ما المشكلة؟ لما تشاجرتما؟”.

ولكن كلا العجوزين قد نسي السبب ؛ صفر. اضمحل كل شيء.

هل شاهدت هذه الواقعة على التلفاز ، أم في الحلم ، أم أنني عشتها بنفسني ؟ لا أذكر.

انسحب أقراني إلى جوف الأرض ، وعلى ما أظن فقد كانت وجهتهم جميعاً هي الجنة ، ما يعني أنهم أفضل حالاً مما أنا عليه الآن. ورغم ذلك يظل الموت أصعب سبل الفراق.

لدي شعبية واسعة في مقبرة كارجا أحمد ، فالكل هناك يعرفني. هذا المكان هو المرقد الأخير لأحبتني ، فقد ترددت على قبور: زوجتي ، أبنائي ، أقربائي وأصدقائي ومن في حكمهم... انحلت كعب الغيوم ، وبدأت حبال رقيقة في رقّة خيوط النايلون من المطر بالهطول ، فيما أنا أتوجه لتفقد القبر الذي اشتريته لنفسني قبل أربعين عاماً من الآن. أنا يأس كطبيب نسائي يبحث عن الإثارة في أرض الموتى في إحدى ملاهي التعري. بعد الدعاء أسأل معارفي عن أحوالهم بشكل عابر ، وأوجه إليهم حديثاً مقتضباً ، وبحسب ما هو واضح فهم ينتظرون رقادي إلى جوارهم ، حتى أنّ التراب الذي يغطي قبورهم بدأ يتململ وكأنه يتنفس. كما قدمت توضيحاً مختصراً إلى ذو الفقار ظريف أوغلو «سأجد معصوم جيغي ، فقد تعرفت إلى شاب سليم الطوية ، اسمه جيفان. وهو من سيلقي القبض على غريمك ، وأنا سأدق آخر مسمار في نعشه بعون الله»... تتضح المقبرة بعد المطر ، بعقب يوحى أنّ الموتى قد تعطروا للتو..

كما تلوت صورة الإخلاص ثلاثاً والفاثحة على قبر إينيس بينفيسكة. في هذا القبر يرقد أكثر الرجال فظاظة. ترى أما يزال حانقاً مني ؟ أخرج من جيب معطفي الزجاجة التي قتل بها الكلب ، وأسقي قبر صديقي بالنبيذ. لقد أنقذت حياة السيد إينيس في العام 1920 ، فقد تخرم جسده بوابل من نيران القوات الفرنسية.

وبينما كانت الدماء تنبجس من كافة أنحاء جسده ، حملت بينفيسكة متجهاً نحو الخنادق ، وبينما كنت أركض أصابت جسده بضع طلقات أخرى وهو على تلك الحال. وداخل زيه العسكري كنت أشعر بحرارة أعضائه التي اختلط حابلها بنابلها ، بطراوتها ولزوجتها.. ورغم كل ذلك لم يمت ، ولكن المؤلم أنه تم بتر كلا ذراعيه وكلا ساقيه ، وحين فتح عينيه ورأى ما آل إليه ، جنّ جنونه ، كان يريد أن ينهال علي لكماً وركلا ، ولكنه كان يفتقد ذراعيين وساقين لفعل ذلك. لقد عاش أنيس بينفيسكة لمدة سبعين عاماً حتى بلغ التسعين من العمر على تلك الحال ، كان يُعاقَر الكحول خلالها ليل نهار ويدعو بالسوء عليّ ، ويبدو أنّ شتائم صديقي المرحوم السكّير ، ولعناته المضفورة بأدعية السوء ستجد سبيلاً إلى لوح أقداري..

النوم في الطائرة

وكابوس حادثة الطيران

«ستعيش مائة عام إن قطعت اهتمامك

بتلك الأشياء التي ترغب فعلاً في

العيش من أجلها لمائة عام».

(وودي آلان)

يتفحص جيفان ثيابي بدقة كوّاء معلقاً: - هذه الثياب تظهرك أكبر مما أنت عليه

في الواقع سيدي..

من المحال بالطبع بتصنيف الحمقى في سلّم التنوع الأحيائي ، والأنكى أنه من غير

المعروف تماماً ما هي الأنواع المتدرجة بين الجنون والغباء.

- معك حق ، وبمناسبة نمو أسناني المائوية لا بدّ لي من اقتناء صدارة أيضاً. -

وإن كان الفضول ينتابكم ، فأوضح لكم بأنني أرتدي بدلة بنية أربعينية ، قميصاً أبيض

وربطة عنق سماوية اللون ، وأعتمر قبعة ملّون.

- برأيي يجب أن ترتدي من غوجي ، فلو كان أتاتورك حياً ، لاختار هذه الماركة

من الثياب. - يغمزني بسحنة العارف ، وبُعيد فتح عينه اليمنى ، تتحول إلى اللون الأزرق

لثانية من الزمن.

- الزم حدودك يا ولد ، وليكن بمعلوماتك أنني ، وفي إحدى المرات التي كنت أردتي فيها هذه البدلة ، أعلنت إحدى أقبح نساء العالم بأنني “وسيم جداً”.

- ومن كانت تلك المرأة؟

- لقد سلمت العرش لأخرى ، دعك من هذا الكلام الآن ، من يكون غوجي هذا؟

- إنها الماركة التي تفضلها السيدات والسادة الحقيقيون.

- يبدو أنني لست إحدى تلك البعوضات المميزة يا جيفان -.. وأخرجت اللعبة من جيبي وقيمت بإشعال سيجارة.

- لم أكن أعرف أنك تدخن..

- لقد بدأت حديثاً..

- ماذا؟

- حين تمّ إعدام عدنان مندرس قمت بترك التدخين ، وكنت أفكر بأنني حين بلوغ الثمانين من العمر سأعود إليه مجدداً ، ولكن القدر رسا على هذا اليوم..

- إن فكرت في تأثيرها على صحتك..

- أتحاول السخرية مني؟ إن فكرت في صحتي بعد بلوغ هذا العمر ، فمن سيفكر في الموت؟ سأكتب على شاهدة قبوري (توفيت العام 2005 ، فكم من السنوات مرّ عليّ دون أن أدخن فيها؟).

- لا قدرّ الله ، فلتتفضل.. كما أنّ الجمّل هو صفوة السجائر..

- ماذا؟ أيّ جمّل؟

- الجمل. تلك الصورة المرسومة على غلاف العلبه - ويرفع أمام ناظري علبه السجائر كشرطي يريني شارته الخاصة ، فيقفز الجمل البني الصغير ذو السنام من العلبه ويتسلقني راكضاً من ركبتي نحو الأعلى ، وحين يصل إلى كتفي ، يتنحى ويوضح لي بصوت عميق من حنجرتة:

- لقد تعرفت على مليار و370 مليون إنسان بسبب عملي..

أقلّب شفتي دلالة الإعجاب:

- تبدو - بالحقيقة - دمية لطيفة ، كل ما هناك أنك تحتاج إلى المزيد من الخيوط.

ينتقل الجميل أسفل قفائي وهو يسير على ياقة جاكيتي نحو كتفي الأيمن ، ويدمدم بخفوت مغنياً:

لا تخف لن تُطفأ السيجارة

يا عاشقاً يسبح في دخانها

يعتريني غضب خفيف

- خفة الظل تسكب على الذهن ماء الكبريت ، لتجفف جذور هذه الإلفة..

- تفتنني النصائح ، كما أنك كبيرنا ، فأنا مثلاً من مواليد العام 1913. - ويهبط من على كتفي الأيمن نحو الأسفل مختفياً ، وهو يعض سبابتي بشدة.

- آآآآه!!! - وحين أفتح عيني أجد سيجارتي تحرق يدي.

لقد غفوت بينما جيفان يتحدث.

- أأنت بخير سيدي ؟

- جيفان ، من فضلك أستمطيع أن تتركني بمفردني ؟ سنلتقي لاحقاً ، فهناك بعض الأمور التي يتوجب عليّ القيام بها.

- هل تفوهت بما يزعجك مجدداً؟

- كفّ عن الثرثرة..

ينهض على عجل:

- حسناً ، سأخرج على الفور..

- لا تؤاخذني بني ، ولكنني اليوم قد ارتديت الكلسون مقلوبا ، لذا فشياطيني

هائجة..

يختفي جيفان بلمح البصر.

وحين تأكدت من إغلاق الباب خلفه وعدت إلى الصالون ، وجدت علبة سجائر الجمل على الطاولة ، إنه أقرب لرؤية كابوس عن حادثة تحطم طائرة ، لأستيقظ وأجد نفسي في الطائرة.

أي شيء هذا الهراء ، أنام فيما أتحدث ، وبينما تواصل سيجارتي الاشتعال أحلم ، وأتحدث إلى منمنمة نيكوتينية على شكل جمل.

من السهل أن تغدو الأحلام السيئة ، حقائق مرعبة. رغم أنني بعيد بعداً فلكياً عن الموت - الأخ الأكبر للنوم.

لا نهاية للتمردات

ولا نهاية للذنوب

«الشيخوخة ؛ هي المرض الوحيد

الذي لا تريدون له أن ينتهي».

(أورسون ويلز 1915-1985)

كل أضرار جهاز التحكم عن بعد التي أضغط عليها ، تنقلني إلى إحدى القنوات التلفزيونية التي تعرض الإعلانات. تنقلت بين القنوات حد التعب ، ورغم ذلك لم أتمكن من الهرب من الإعلانات. وأخيرا بعد دعاية لكريم النيفيا وبعد لقطة لحماتي سلام ، استسلمت لمرأى شقراء تدلك نهديها.

تتجدد خلايا جسد الإنسان كل سبع سنوات ، ولا تحتفظ بأي ذرة أصلية تعود إلى ما قبل ذلك. وبمفهوم أكثر واقعية فإنك تتغير من رأسك وحتى أخمص قدميك ، وتصبح شخصاً غير الذي كنت عليه. وبمعنى آخر فالإنسان هو نسخة نفسه ، وبالتالي فأجسادنا تملك آلية تزوير خاصة بها. لا أعلم ما تعتقدون ، ولكنني حين أحول نظري نحو ماضي لا أرى خمسة عشر روجي. انتصبت وانحنيت ، قسوت ولنت ، انحططت وتجددت ، كبرت وصغرت ، اسوديت وابيضيت.. ولكنني لم أحظَ بفرصة التخلص مني بشكل تام. فعلى سبيل المثال ، لم أستطع التملص من لعنة الرسوخ المنطقي للامنطقية مجرى حياتي.. ومقابل ذلك ، فمنذ وفاة ذو الفقار ظريف أوغلو ورغم الألفة التي تبدو فيها الأشياء من حولي ، فأنا أشعر بأنّ القوانين التي تسير عليها ، قد استحدثت في كون مغاير تماماً.

لقد قام المرحوم بشراء كمان لأحد أحفاد ابنتي جورية ، ولكنه لم يحظ بفرصة تقديمه له. أخرجت الكمان من علبته ، لأضع مكانه البريزر ، ونزلت إلى الشارع. كانت ليلة جميلة للقيام بجريمة طائشة. في السماء يتموضع بدر أقرب لبضاعة صينية الصنع ، فيما رياح اللودوس المفعمة بالأوكسجين تنساب مشبعة رثني. بدأت أتبع وقع خطاي على شوارع المدينة التي عاد بها الزمن إلى ما قبل ثلاثين عاماً. كانت إحدى أكثر تجولاتي تباطؤاً ، وكأنني أتعقب كل من حولي.

المصادفات ، الحماقات وكل الاحتمالات ما هي إلا انعكاس لحسن الحرية ، وامتداد لأطر الحياة. ولكن المصادفات ؛ ليست الغلاف الأنسب للحقائق بأي حال. ومع ذلك أجل ، فقد كنت أتمسك بفكرة لقاء معصوم جيحي وسط عتمة المصادفات. أعلم ، لا يمكن تحويل السلحفاة إلى حصان سبق ، ولكنني على الأقل كنت بحاجة إلى الاضمحلال وسط الحشود.. كان يأسى يبحر كسفينة استكشاف في مياه اليأس.

لزامتني إحدى الأغاني ، وبدل كلماتها التي غابت عن ذاكرتي ، بدأت اختلاق كلمات أخرى وأنا أدندنها لنفسي :

يتقاطع طريقي مع المقابر

فتصلني آلاف الأصوات من تحت الثرى

وكلما سقيت القبر حتى يخضّل

لسعته لفحات من نيران جهنم

أنا روحي المجرد ، فيا ربي صبراً

فقد طاشت عني الرصاصات مجدداً

لا نهاية للتمردات ولا نهاية للذنوب

وعلى كافة المحطات ، الإعلانات اللعينة

لا جرم للعنف ، فقط له الاسم

تعمل في صدي رغبة إحراق المدينة عن بكرة أبيها..

من يراني دون معرفة ، يظن أنّ بي مساً

ومن جرحي الذي لا أعرف مكانه ، أظل أنزف

أبحث عن ماضيّ ، والماضي يبحث عني

وتنتابي رغبة دخول قبري قبل أن يأزف الموت

أعلى تمثال الثور الجاهز للهجوم ، وهو يعبّ الهواء من منخرية ، ألتف نحو شارع

(بهاريه) ، وتطرق مسامعي أحاديث كل أولئك الناس الذين يصغرونني سناً.

- وأنا أيضاً أحب الأفاعي كثيراً - تقول إحدى الفتيات - ولكن فرائصي ترتعد من

العناكب.

يهمس أربعيني أنيق لرفيقه:

- يبدو أنه متورط في مأزق عويص. فالمجنون قد رزق بأربعة توائم من عشيقته

البدينة..

تصرخ إحدى طالبات الثانوية وهي تبدو كأكلي لحوم البشر ، في شجار أقرب إلى

عراك قبلي:

- حاولوا التحكم في تستوستيروناتكم يا هؤلاء!..

أشعر باضطراب العيش في العصر الخاطيء ، ولكن كوني مسلحاً ، وأحمل قدراً من

الخطورة يخفف عني بعض الشيء.

تخاطبني إحدى بائعات الهوى:

- أتريد تدليكاً ينتهي نهاية سعيدة أيها الوسيم؟

تنورتها الجلدية الضيقة بالكاد أعرض من حزام خصري. ترتفع في الجوار أصداء ضحكات معدنية. أخطط للتدوين على شاهدة قبري «لقد بدأت للتو بالتأقلم مع البلاد التي حاربت من أجل استقلالها».

أتجه بتناقل نحو إحدى المقاهي يساراً، وأجتاز العتبة التي يعلوها الشعار الدائري لـ (ستار بوكس كافييه) وأدخل المكان. في الردهة التي تعلو خمس أو ست درجات واسعة، تجري إحدى الممثلات مقابلة تلفزيونية، فأنادي الشاب الذي يقف خلف طاولة ذات واجهة زجاجية:

- هلا أتيت يا بني!

بيتسم في وجهي وكأنني أكثر مخلوقات الله لطفاً وطيبة وهو يقول:

- تفضل سيدي!

- أبحث عن معصوم جيغي.

- لا أحد هنا بهذا الاسم. أتريد شرب قهوة؟

- ألا تعرف أحدا باسم معصوم جيغي؟

- لا للأسف.

أتجه نحو الباب الدوّار، حيث تتوقف جيب بيضاء فجأة بصرير مكابحها الصاخب، ويترجل منها أربعة مسلحين بأقنعة صوفية. فأحاول فتح علبة الكمان على

عجل ، أوف! أرتبك وتتشابك يدي ، فيما يقتربون مني وهم يصوبون أسلحتهم نحوي ، وأفكر بأنني وفيما كنت أبحث عن معصوم جيحي ، تمكن هو من العثور عليّ. أنا في أكثر مواقع عمري المؤوي إثارة ، تسقط العلبة من يدي ويفتح الغطاء ، أنحني وألتقط البندقية ، وحين أرفع رأسي أجد الإرهابيين وقد قفزوا من فوقني واقتحموا المقهى ، وبدأت صحيات النساء تلعو ، يطلق أحد المقنعين النار في الهواء وهو يصرخ:

- إياكم والتحرك من أماكنكم.

يسرع آخر ويعتقل الممثلة كرهينة ، فيما ينبطح الكل أرضاً. وبينما تظل الكاميرا تصور الأحداث ، تتسمر الممثلة في مكانها وكوب القهوة في يدها والمسدس مصوب نحو رأسها. فأصوب بندقيتي مباشرة نحو ظهر الشقي ، وأخاطبهم بنبرة ثغاء أقرب إلى الاستجداء منها للتهديد:

- ألقوا أسلحتكم ، وسلّموا أنفسكم.

يخيم عليهم الصمت.

يواصل المصور تصوير الإرهابيين وهم يخرجون تباعاً لترك المكان برفقة الرهينة ، وفي تلك الأثناء أرى اسم (غامزة غاما) مكتوباً بقلم تخطيط على غطاء كوب القهوة التي تحملها الممثلة في يديها. يستقل المجرمون المقنعون وغامزة غاما سيارة الجيب التي تسرع مبتعدة ، فيما المصور يصوّر ابتعاد المشهد والسيارة الفارّة. أعيد بندقيتي بحرص إلى العلبة ، وأبلغ الشارع وسط تدافع الزبائن الهاربين ، وأغذُ الخطى نحو البيت على وقع صفارات سيارات الشرطة المقتربة. تتحدث محطات التلفاز عن عملية اختطاف الممثلة الشهيرة غامزة غاما ، فيما تلعو عبارة (آخر دقيقة) [10](#) الشاشة ، في تطابق مع عبارة (آخر دقيقة لي) التي كانت تتقد في رأسي وأنا في المقهى.

الغضب والندم لا يجملان الحقائق

«الشيخوخة ؛ هي الجزيرة القفر في

أوقيانوس الموت».

(ستيفين كينغ)

على عكس الاعتقاد الشائع ، فالشعر والأظافر لا تستمر في النمو بعد الموت. ولكن الهواتف تستمر في الرنين لمزيد من الوقت ؛ رررررررررننن!

لا يدفعني الفضول إلى معرفة هوية المتصل ، أو إلى مغادرة مقعدي. وعلى حين غرة تنتصب أمامي عجوز بوجه تمساح.

- أجنبية أم أنسية أنتِ ؟

- إنها أنا ؛ فيغان نيغاتيف - تتمتع بصحة وافرة توازي بشاعتها المفرطة. يجب

عليّ إيجاد قفص على الفور.

حتى أثناء الحرب ، لم أشعر برعب مماثل ، تخيلوا أنفسكم وأنتم وجهاً لوجه أمام قرش في البحر.

- ما الذي تفعلينه في منزلي يا امرأة ؟

نزعق في وجهي كساحرة شمطاء تتلوى وسط السنة النار:

- هناك شخص باسم جيفان يبحث عنك يا سيد روجي.

تبدو أشبه بجرثومة سلّ تضخمت ، عيناها بحمرة ثمرات العليق العطنة في صحن
لبن فاسد ، ولشدة تعاسة مظهرها ، لم أشأ حتى أن تلامسها عصاي.

- ولكن من أنتِ ؟

- سامحك الله سيد روحي! - مشيرة إلى شامة وجهها التي تعد الأضخم في كل
تركيا - مضى على عملي لديك خمس عشرة سنة ، وقد أخذت إجازة مؤخراً ، وها قد عدت..
هيا! لا تجعل المتصل ينتظرك أكثر - تثرثر بصوت كفيل لإصابة أي رجل بالعقم.

- ألو جيفان ؟

- تفضل سيدي!

- عليّ الخروج على الفور.

- ما الذي تعنيه بالخروج ؟

- دعنا نذهب إلى أي مكان.

- بالطبع ، ولكن إلى أين ؟

- مدينة الملاهي.

- مدينة الملاهي ؟

- أجل ، لم يسبق لي الذهاب إلى مدينة ملاهٍ. ولا نية لدي في إضاعة المزيد من
الوقت. أحضر معك الطفل أيضاً.. ما كان اسمه ؟

- أوزان يا سيدي..

- سيكون الطفل بطاقة دخولنا إلى أرض الملاهي..

وما أن أعدت وضع السماعة ، حتى تجهزت على وجه السرعة ، وقد ارتدبت الزي الرسمي ، ذلك أنّ هذا الزي يحولني إلى بطل ، والزي المدني إلى مجرد متسول..

حتى ولو لم أسمع وقع خطاها ، ولكنني كنت واثقاً من أن فيغان تجوب أرجاء المنزل ، فتلك الظلال المارقة خطفاً على أرضية الممر عبر الأبواب المفتوحة كآلة محمولة ، ليست ظلال سواها.

وقبيل خروجي ، تظهر لي ابنة فرانكشتاين ويدها المكنسة الكهربائية:

- الطعام جاهز سيد روجي.

- ها؟ أي طعام؟

- البروكولي المطبوخ على البخار ، الشوفان المهروس وخبز النخالة.

- اغربي عن وجهي يا امرأة ، فهذه القائمة التي ذكرتها تحطم حتى شهية الأموات.

وفيما أنا منشغل بارتداء حذائي ، دسّت فيغان نيغاتيف الشوكة التي غرزتها في

لقمة بروكولي مغطسة بالشوفان في فمي:

- التقمها سيد روجي ، حتى لا ينخفض ضغطك لاسمح الله.

- لا أريد!

- فلتقبل جثتي!

أقبلها؟ يفتح فمي بصورة آلية. وأبلع اللقمة حتى دون مضغها.

هبطت الدرج بثناقل ، لألتقي بأصدقائي في اللعب - أحدهم يصغرنى بسبعين ،

والآخر بتسعين عاماً - أمام الباب. ركبنا التكسي ، وقد جلس جيفان في المقعد الأمامي ، وأنا

مع أوزان في المقعد الخلفي. ومن خلف عدستي نظارتي السميكتين أراقب عدّاد التكسي ،

وقد أيقظ فيّ انفعالاً أقرب لمشاهدة منظر الولادة. وكلما ارتفع الرقم الإلكتروني الأحمر الصغير على الشاشة ، بمقابلها كانت كمية الأدرينالين المضخوخة تزداد في دمي ، تتناوبي لفحة حارة ، حتى أنّ جواربي بدأت تتبلّل .

حين بلغنا مدينة الملاهي المنصوبة على أحد تلال تشامليجا ، كاد أوزان يطير فرحاً. فإن أردتم لطفلكم أن يصبح راشداً صالحاً ، احرصوا على إسعاده. وإزاء آلات المتعة الملونة الرائعة ، شعرت بانقباض روحي ، تماماً كالأسى الذي كان يتناوبي وأنا أشاهد إعلانات الواقيات الذكرية.

تتجه نحونا بأقصى سرعتها عربة خشب يدوية تلوح من واجهتها الزجاجية حلوى غزل البنات ، وتقف أمامنا بصرير مكابح قاطع ، ولا تفصلنا عن الانسحاق تحتها سوى قيد أنملة. يظهر من خلف العربة قزم يرتدي قلنسوة مذهبة ، حيث اشترى منه جيفان ثلاثة قطع غزل البنات.

وفيما تصطبغ لحيّتي وشارباي بلون غزل البنات الوردي ، بدأت أفكر: من الصعوبة بمكان النجاة من لعبة السيارات المتصادمة ، إن ركبت الخيول الدوّارة سأبدو سخيلاً ، أما الجندول ونفق الرعب ، أرجوحة الراقصة ، القطار السريع والكراسي الطائرة فهي كفيلة بنوبة قلبية. لم يبق أمامي سوى دولاب الهواء. لا يمكن تجاوز مرارة الواقع بالغضب أو الندم. بسملت قبل أن أستقر في اللعبة العملاقة ، وفيما يقوم زنجي فاحم السمرة بتعليق السلسلة الحديدية على الطرف الآخر للمقعد ، كان يضحك بحبور كعبد أعتق للتو ، وهو يسألني:

- أتريد شوكوميل ؟

- وما هو الشوكوميل ؟

- إنه هذا - وأخرج من جيب سترته علبة شوكولاه حمراء براقّة - ستخسر إن لم

تذوقها.

- لا شهية لدي أيها الشاب ، شكراً لك .

سحب الرجل الذراع التي تشغل الآلة وبدأ يغني بغبطة أغنية تتردد فيها كلمة شوكوميل مراراً وتكراراً .

ومع دوران بكرة الآلة ، بدأت أعلو رويداً رويداً نحو السماء ، التي كانت أشبه بحقل للقطن مرّ عليه المحراث توأ . وقد كاد نورسان يتشاجران أن يرتطما بوجهي . حيوانات معرّبة دُلّت قبل تدجينها . على يميني مضيق إسطنبول ، يذهل الأبصار أكثر من السراب الذي كان يتراقص أمام ناظري مجنون . وعند هبوطنا بدأت أفكر « ما من أحد في هذه المدينة حلّ عليه المساء دون أن يقوم بخداع نفسه » . إسطنبول تسلبك رؤاك من جهة ، ومن جهة أخرى تهديك الكثير من الأحلام . بدورهما كان جيفان وأوزان يركبان مقطورة تجرها بطة بلاستيكية مكتنزة ، والتي كانت تبدو أسعد من كل من في القطار .

وفيما نعاود الصعود ، بدأت أشعر بالدوار ، وانتابني السعال ، وفي السن التي بلغتها ، تعد كل سعة بوقاً لسيارة الدفن . وحين بلوغنا الذروة توقفت الآلة ، فأدرت رأسي نحو الأسفل ، لتلتقي نظراتي بنظرات شابة جالسة بهدوء ، تستحق خمساً وثمانين علامة من مائة . منذ مائة عام وأنا أمنح النساء علامات على مقياس مئوي . وفي هذه الأثناء بدأت زوبعة تعصف في ذهني ، واختلط الحابل بالنابل في دوامة مدوّخة . تداخلت الأرض بالسماء ، وبدأت سفن المضيق تسبح بين الغيوم ، واقتمحت مدينة الملاهي طيور بضخامة الطائرات ، وأخذت الأحصنة الدوارة تنتصب على قوائمها الخلفية وهي تصهل ، بينما البشر كانوا يتلاشون ويذوبون تماماً كحبات سكر منثورة على شلال ماء . أنا ومدينة الملاهي هذه ؛ سيضفي كل منّا صيته على شهرة الآخر ، فهذا ما يشير إليه الوضع . ولكن موتي لن يوقف الأرض عن الدوران ، ودولاب الهواء أيضاً . بدا وكأنّ عظامي المتخشبة قد التحمت ببعضها ، وأخذ سرب من النمل يجتاز ساعدي الأيمن ميمماً شطر بدني . وسدد عزرائيل أولى ضرباته ؛ سكتة قلبية ، شلل تام أو جلطة دماغية ، وربما كلها معاً . يبدو أنّ الموت قد اشتّم عطن جسدي ، وسيبدأ بنهب أعضائي التالفة . « أشهد أن لا إله إلا الله .. » - ورشقت ثلاث سعلات

متلاحة - وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.»

إن حالفني الحظ

سينبثق النفط من قبري

«نحن المستنون نستقل كلنا الطائرة ذاتها ،

ورغم ذلك فبعضنا يطير أكثر من سواه».

(عبد الله الأولى ، الشهيد الوحيد)

فتحت عيني ، في مكان مظلم ومقفر ، وكأنني في حوض من الكحول. أحشائي تنتفض كدراجة صدئة معطلة ، فيما دماغي يتلوى متألماً. رفعت يدي اليمنى أنفحصها ، لأجدها مليئة بنمش الموت ، جافة متغضنة. وسط الظلام لاحت أمام ناظري صلعة مستدقة. أحد زبانية الجحيم ، يكشر عن أنيابه الحادة. أغلب الظن أنه سيبدأ في التنكيل بي بواحدٍ من أنواع العقاب. كنت ولوقت طويل أعتقد أنّ الأمور ستأخذ مجراها الصحيح بعد الموت وأمل في استعادة الشباب ، والاستقرار في سكن مريح ولقاء الأصدقاء القدامى ، ولكنني كنت مخطئاً. فقد أعقب هذا الموعد المشؤوم بدل الحوريات الحسنات ، عفريت متوحش. تنفست عمق استطاعتي.

- مرحباً - بدأ الحديث وهو يسلط ضوءاً صغيراً على عيني - إذا أنت روحي مجرد

الشهير؟

كنت منهنكاً كغابة تساقطت كل أوراقها:

- دعنا نتجاوز ذلك ، وقل من تكون؟

كان يحدق فيّ كنجار عثر على لُقية خشبية فاخرة: - أنا الدكتور وجيهي هجيف.
هل تشعر بالاضطراب سيد روحي؟

نسخة الدكتور هذه تبدو أقرب إلى خذروف¹¹ يدور رأسها المعدني المستدق.

- هناك من يتوجب عليّ قتله. وأنا أحاول البحث عنه.

- ها ها ها ، لديك روح مرحّة حقاً.. حسناً هل سبق وأن فقدت السيطرة على إدراكك؟ - خلف الطبيب تقف ممرضة أشبه بلاعبي رفع الأثقال البلغار.

- أنا؟.. لا ، لا أتبول على نفسي ، وماذا عنك؟

يدير الطبيب رأسه ويبدأ برسم قوس لا مرئي يبدأ من لحيته العنزية وينتهي عندي.
تحمل الممرضة التي تبدو كسلطعون يرتدي زي الغواصين ، حقنة معدنية صغيرة.

تنحني مقتربة ، وكأننا في الجولة النهائية لصراع القرد المقاتل ، ترفع الشرف عني ، ومن خلال رداء المشفى القصير - وأستميحكم عذراً - تقوم بتحسس بقعة ما أسفل أعضائي التناسلية المتحجرة ، وتلتمع في عينيها نظرة أشبه بنظرة صاحب العباءة ، بطل أحد الرسوم المتحركة ، تستأذن الطبيب بإشارة عسكرية ، يختلج جفناها البلاستيكيان لوهلة قبل اتخاذ الخطوة المناسبة وتغرس الإبرة بحزم في الجانب الأيسر من مؤخرتي ، فيما يتابع الطبيب - هجيف - هذه الحركة باهتمام ويؤكد لها بابتسامة تواطيء.

- كيف تشعر الآن سيد روحي؟

- أشعر كأنني خليط من النار والبارود. - أؤكد ما يريد سماعه.

- ألدريك رغبة أخرى؟

- حصان ، امرأة وسلاح.

- عفواً؟

- كنت أعني بورش كاريرا ، كيت موس وبراونينغ هاي باور - لا أعلم على وجه التحديد معنى هذه الكلمات التي انسابت على لساني ، وأخيراً حلّ علي الخرف.. - فبإمكانك تقبيل الثلاثة ، سفح الدماء وتخطي حدود السرعة أيضاً.. - واصلت الشرقة.

جدران الغرفة بنية اللون كفيّلة بأن تشعرني أنني راقد في التابوت ، وباقية الورد البلاستيكية في أبيضها تبدو وكأنها على وشك الذبول لعدم اكتفائها من أشعة الشمس.

قفزت من السرير - عن إذنيكم - تناولت ثيابي من على المشجب. لا يعترض الطبيب ، بل يحدق في امتنان خبيث. اتجهت خلف الحاجز وبدأت في الارتداء. سمعت صوت فتح الباب وإغلاقه وحين انتهيت كان الطبيب قد غادر ، وجاء مكانه جيفان.

- حمداً لله على السلامة سيدي ، كيف حالك؟

- أستطيع الآن فتح أغطية كافة علب العالم..

- وما الذي يقوله الطبيب؟ - كان ينظر إليّ كمحاسب وقع في أيدي النازيين.

على رؤوس الأصابع لذنا بالفرار من الغرفة ، ودخلنا المصعد المواجه لنا تماماً ، وضغط على زر الصفر وأنا أجيّبه:

- ما الذي سيقوله برأيك؟

- لا أعلم؟

- انظر إليّ جيداً يا جيفان ، أنا الموت اللعين بعينه ، حتى أنني لم أعد أكبر في السنّ ، تغمرني إمارات الموت من الرأس وحتى أخمص القدمين ، لكنّ أعتى الاختصاصيين لن يكون في وسعه سوى أن يسدي إليّ أطيب التهنّيات. وما الذي يعنيه هذا يا بني؟

- ما الذي يعنيه ؟

- الذي يعنيه أنه من الآن وصاعداً إن حالفني الحظ ، سينبتق النفط من قبري.

أتريد رؤية الله في هذا العالم؟

كنت مفعماً بالحيوية كوحش يستقبل الربيع ناهضاً من سبات شتوي طويل ،
وتحت أشعة الشمس المتلألئة كنت أرى كل ما في المدينة كعلب من الهدايا البراقة ، وبدا
الخلود قاب قوسين أو أدنى ..

على وقع أنغام بحيرة البجع لبيتر إيلتش تشايكوفسكي (1840-1893) بدأت إعداد
الفتور ، وكنت أحضر أطباق المربي ، الجبن ، البيض ، الزبدة ، الزيتون والنقانق .. وكانت
فيغان كلما نطقت باسم (تشايكوفسكي) تصب لي كأس شاي جديد. وقد غدا الطريق
الواصل من قلبي إلى معدتي مفتوحاً للعبور ، وغدوت بدوري كراقص باليه انضم للمارثون.
وقد أفصحت عن قراري لفيغان التي كانت تستغرب شهيتي وحيويتي:

- سأنقش بحروف مذهبة على شاهدة قبري "لا زال طعم النوتिला تحت لساني .."
- ولكنك.. لا تأكل النوتिला سيد روجي..
- هاااا؟ ولا أعلم ما هي النوتिला على وجه التحديد.
- إنها ، إنها شوكولاه.. مزجت مع البندق.. ولكنك من أين خرجت بفكرة النوتिला
الآن؟
- لا فكرة لدي على الإطلاق..

بقي على آذان الظهر عشر ثوانٍ ، وأنا أجلس على أحد مقاعد حديقة الجامع ، وإلى

جواري عوني واو. بزرقه عينيه المعدنية ، ولحيته التي أقرب إلى كبة من الأسلاك الفضية ، يبدو عجوزاً خلق من مزيج آلي وملائكي.

الجامع أشبه بمحطة فضائية يلتقي فيها أعضاؤها وغالبيتهم من كبار السن ، حيث يعقدون اجتماعاتهم اليومية لأربع أو خمس مرات استعداد للانطلاق في رحلتهم نحو العالم الآخر. ولكن الفارق أنّ التأخير يلازم مواعيد الجامع على الدوام ، والموت يأتي كضيف طارئ حتى في المكان الذي تتوقع زيارته منه.

- إن تخطينا خاصية فناء الدنيا ، فلا فارق بينها وبين الجنة. - قلت.

رمقني عوني واو لبرهة بنظراته المرتعشة.

- والمضحك أنّه ما من قبور على وجه الأرض تتسع لضمنا جميعاً.. فالحفرة الآن ليس فيها من متسع سوى لقدم واحدة سيد روجي ، وما علينا سوى أن نتكئ بكل ثقلنا على هذه القدم بالذات..

- لن تعود حياتنا إلى مجراها الاعتيادي مطلقاً.. أليس كذلك ؟

- لقد أدركت أنّ الحيوانات الأكثر انتظاماً ليست أمراً مألوفاً.. كل شيء.. وكل ما عليها سيعود إلى طبيعته في سعي الجحيم. البارحة مساء أحرقوا ابن عمي ، أعني جثمانه.

- لها؟

- إيه.. هذا ما نصت عليه وصيته.

- ولكن حرق الأجساد الميتة ليست بالأمر الصحي على الإطلاق.. - علقت مبتسماً..

ابتسم بدور: - في الحقيقة بوسعنا استنساخ الأموات.

- استنساخهم؟

- بالطبع!

- إنك تستهزئ بي مجدداً سيد عوني..

- حاشا! إن كنت مؤمناً بالآخرة ، فأنت بطبيعة الحال تؤمن بقيامة الموتى ،

أليس كذلك؟

- إيببيه..

- سأقدم لك الخلاصة: أثناء النوم تنتزه الأرواح في أكوان أخرى. وفي كل مرة ننام

فيها ، نتجول في ما يقارب الخمسة والعشرين محيطاً آخر. ولكننا ننسى معظم مجريات هذه الرحلات بعد عودتنا إلى عالمنا. ما يعني أننا ننفصل عن أجسادنا أثناء الحلم ، والموت يعلو على النوم بدرجة واحدة. ولأننا لا نستطيع مواصلة الحياة دون نوم ، فهو يغدو بعد مرحلة معينة إحدى أكثر احتياجات الحياة ضرورة. أتذكر فهمي بيك الذي لم ينم لمدة أربعين عاماً.

- أجل.

- لقد حان أجل المسكين ، لذا كان النوم يجافيه.

- ولكن المرحوم قد توفي بالفعل.. بالله عليك يا رجل ، هل تحاول أن تدّعي بأنّ

الموت هو أحد شروط الحياة؟

- وما الذي يكون عليه سوى ذلك؟

- أحقاً يمكن إعادة إحياء الجثمان؟

- عزيزي روحي ، كما أنك تذهب نحو الموت ، فيمكنك العودة منه أيضاً.. وما

بعث النبي عيسى من موته سوى إحدى الإنجازات العلمية..

- ألم تكن معجزة إذاً؟

- كل الوقائع التي نعتبرها اعتيادية أو أموراً طبيعية ، ما هي إلا معجزات في الحقيقة.

- أتعني أن يحيى كمال كان مخطئاً حين قال:

أ- جَلّ من غادرنا مهتمّ من مثواه

ب- تمضي السنين تباعاً

ت- وما من عائد من رحلته فنراه

- معظم المغادرين مهتم ، هذا أمر مفروغ منه. وبالمقابل فإن الشاعر لم يلتقي بأحد عائد من رحلته..

- وأنت؟.. أتعرف أحداً عاد بالفعل؟

- لقد سبق لي وأن متّ..

- ماذا؟ متى؟

- كنت في الثامنة والثلاثين من العمر.

- دستور! حسناً وكيف تمكنت من العودة إلى عالمنا؟

- هناك كتاب يدعى العزيز **12** ، وقد جاء أحد أصدقائي - بارك الله فيك وفيه -

إلى المشرحة وقرأ دعوى استحضر الروح علي جثماني.

- لها؟

- لكي يتمكن من استعادة المال الذي استدنته منه .

- أتعني أنك؟ ..

- وقد أوفيت ديني . إن كان هذا ما تريد معرفته .

- يا إلهي! إذا هذه عودتك الثانية إلى الدنيا؟ .. إياك وأن تعيدني إلى هذا الجحيم

المزيف مرة أخرى بعد موتي ، اتفقنا ؟

- وعد كشاف - الأشخاص المحنكون على وجه الخصوص تعلق وجوههم على

الدوام ابتسامة ثابتة .

- وعلى شاهدة قبري سأدون: “التهديدات لن تززعني” .. فكن حذراً ..

- هممم! تبدو عبارة غريبة على الأسماع ، حقاً إنها غريبة ..

سرح كل منّا في أفكاره ، وبعد صمت ران علينا ما يقارب ربع الساعة ، عاد عوني

واو لفتح حديث جديد:

- أتريد رؤية الله في هذا العالم سيد روجي ؟

- ومن لا يريد ؟

- امسح على رأس طفل يتيم ، حينها سترى الله ماثلاً في عينيه . ساعد فقيراً ،

وسترى الله ماثلاً في عينيه ، أطعم قطة واسقها ، وسترى الله في عينيه ..

أمعنت النظر في عيني عوني واو .. وعلى الفور علا صوت الأذان:

- الله أكبر .. الله أكبر ..

القيادة المفخخة

«أن تصبح عجوزاً ، هو أن تعاقب على

العديد من الآثام التي لم تقترفها».

(أنتوني باول)

- هل تؤمن بالتناسخ سيدي؟

- في هذا العمر بتّ أوّمن حتى بحجز بطاقة نحو الموت..

يتخبط جيفان وسط غبائه دون أن يتمكن من أن يخرج منه ، كحشرة حاصرتها لزوجته الكهرمان القاتلة. ولكن تلك الهشاشة الساذجة التي تعتمل تحت مظهره الموهي بالقسوة ، أثارت في نفسي حسّ الشفقة. ذلك أنني أعلم جيداً أنّ الدراويش الذين حباهم الله بعطفه ، مختلفون تماماً عن حمقى البشر. من الواضح بأنّ أمراً ما سيفسد كل شيء ، إلا أنه لم يكن بالذكاء الكافي الذي يخوله إدراك مثل هذا الوضع.

وفيما نقرمش الحلوى التي أعدتها فيغان نيغاتيف مع رشقات القهوة ، زفّ إليّ

جيفان البشرى:

- لقد اشتريت سيارة.

- بي إم دبليو؟

- كلا ، صوبارو - فورستر.

- صوبارووووو.. - صرخت مهازحاً..

وفي أقل من لمح البصر كنا جالسين داخل الصوبارو فورستر. الإعلانات تملأ كافة الطرقات، واجهات الأبنية المضيئة، اللوحات الطرقية، الملتصقات الجدارية والشاشات الرقمية.. تتناثر في كل مكان الشعارات، العلامات التجارية والإعلانات. تتناسب ثقة النساء بأنفسهن طرداً، مع شهرة العلامة التجارية للأحذية والملابس الداخلية التي يرتدينها، أما الرجال فيمكن وضع سلم هرمي نفسي يتموضعون عليه تبعاً لماركة السيارة التي يستقلونها وسط صخب المرور. كانت المنافسة على أوجها، والعدو مجهول الهوية تمكن من فرض هويته على المجتمع برمته، وبتنا نرزح تحت نوع من العبودية الخفية، ويسير العبد معها مسروراً بأغلاله. إننا في عصر الحرب السيكلوجية، وتحول الكون إلى مصيدة هائلة تزخر بكافة أنواع القيود: النفاق، والخداع والإنفاق الذي تجاوز حدود المعقول، باتت تشكل أسس الحياة الجديدة، وأخذت تغلو فوق هيكل من البهجة المصطنعة، ومواصلة المراوغة والتحايل والمجاملات الخادعة.. هذه النشوة إحدى علامات الجنون، والمراوغة تدل على الخيانة، فيما اللطف الزائد أحد أبرز دلائل الجريمة. الخوف يغلف الكون برمته، وتحت هذا الغلاف لا نعرف طريقة سوى الإساءة لذواتنا وألواننا وأصواتنا. عجزنا الأبدي، يحاول موازنة المسؤوليات التي لم نتمكن من تحملها كما يجب. ويظل العرض مستمراً.. العرض باسم الخسارة التي لا مفرّ منها، والضياع الذي يترصدنا بنصله القاطع..

- تبدو شاردأ! ما الذي تفكر فيه سيد روجي؟

وبدوري أحمل في جعبتي سؤالاً:

- أتعرف أحداً باسم معصوم جيغي؟

- معصوم جيغي؟.. لا سيدي، ومن يكون؟

- لا أعلم على وجه التحديد، كل ما أعلمه أنني مدين له..

- لم أفهم؟

- لقد تذكرته بسبب زيارته لي في الحلم. أنا مدين له بألفي ليرة ، وكما تعلم ، فالدين هو أحد المساوي التي ابتكرها الشيطان بنفسه وتبناها الإنسان.. لذا عليّ العثور عليه في أقرب وقت ممكن ، وأحتاج إلى مساعدتك في ذلك..

- من الذي تعنيه؟

- ليس الشيطان بالطبع ، بل معصوم جيحي. فالشيطان يظل في الجوار على أي حال..

- وهناك معلومات أخرى تتعلق بمعصوم جيحي خلا الألفي ليرة التي تدين له بها؟

- أخبرتك بأنني لا أعلم ، ألق نظرة على الفيسبوك ، فقد تتمكن من العثور على خيط يساعدك..

- ألدك حساب على الفيسبوك؟

- لا ، أنا لا أستخدم شبكة الإنترنت ، وهذه المرة الأولى التي أسمع فيها بكلمة الفيسبوك..

ران عليه صمت حجري لوهلة ، وألقى علي نظرة خاطفة ، والحقيقة أنّ اعترافي بسماع مصطلح الفيس بوك للمرة الأولى ، كان وقعه صعباً عليّ أنا أيضاً..

- أعاني من تشتت في ذهني هذه الفترة يا جيفان.. - علّقت - أشعر بنفسي كقروي يحمل باقة ورد ويقف مشدوهاً على عتبة أحد بيوت الدعارة..

الحرب المجانية

«ليس الهدف من الحروب الموت في سبيل

الوطن ، بل دفع الروث العاهر المتراص على

الجبهة المقابلة إلى الموت في سبيل الوطن.».

(الجنرال جورج سميث باتون ، 1885-1945)

الحرب لعبة مكلفة ، واللعبة مجرد حرب عبثية ، وقد أجهدتني الأدوار التمثيلية في احتفالات حروب الاستقلال منذ ما يفوق العشرين عاماً ، أكثر من الحرب نفسها.

ألعب مع أوزان ابن أخي جيفان لعبة الحرب على طاولة الطعام في المطبخ. نخرج مئات الجنود من العلب ونزج بهم في ميدان القتال. وأوزان مقتنع أن تجاربي ومعارفي القتالية ، ستضفي على اللعبة المزيد من الإثارة ، فأحتضن الجنود البلاستيك الصغار.

- أتعلم ما هي القاعدة الأساسية في كل لعبة ؟

- لا أعلم.

- ألا تنغمس بكليتك في أي لعبة..

- هم هم ..

- اللون الوردي هم اليونان يا أوزان ، وهم يتسابقون مع الإيطاليين على احتلال

إزمير.

- حسناً.

- أما الطليان ، فقد ملأوا أنطاليا ، انظر هنا تقع أنطاليا.. القوات الإيطالية يدخلون سوكة مروراً بموغلا.. وتحت قيادة العقيد صلاح الدين بيك والرائد صائب بيك يتم تشكيل مفرزة سوكة العسكرية.

- اتفقنا..

أشرب رشفة من الشاي ، بينما يتناول أوزان قزمة من البسكويت ويعقبها بالحليب الفاتر ، وهو يقوم بصفّ الجنود في ميدان القتال باليد الأخرى.

- هؤلاء هم جنودنا الأتراك ، حيث يقوم ديمرجي محمد إيفة ورجاله بشن هجوم على نازلي ، وفيما يلوذ اليونانيون بالفرار من نازلي ، يقومون بأسر أربعين تركي ويحبسونهم في أحد الجوامع.. أما من جامع هنا؟

- لا..

- ويقومون بإحراق الجامع.. وكما تعلم فقد قاموا بإحراق الناس وهم لا يزالون أحياء. أما القلائل ممن استطاعوا النجاة بجروحهم البليغة ، فقد أصابهم الجنون..

- إنه مخيف..

- تقع قرية إربيلي في إينجرلي أوبا في محافظة آيدن ، وسكة الحديد تمرّ عبر هذه القرية. وفي المحطة يقوم جنودنا بشن هجوم خاطف على جنود اليونان المجتهدين ، ويرشقونهم بالقنابل. ونخسر سبعة جنود فيما اليونانيون يخسرون ثلاثين جندياً. لقد كانت هذه الخطوات الأولى نحو الحرب التي اندلعت لاحقاً.. أتفهم ما أعنيه؟..

- أجل أفهم..

- لقد خضنا ضد اليونانيين في غرب الأناضول معارك رائعة ، حتى العاصفير

أصابها إعياء نفسي. ولم يكن من الغريب أن تشاهد فوهات الأسلحة النارية والمدافع تطلق نيرانها من منارات الجوامع ، فيما ركلات الموت تواصل تسجيل الأهداف لأسابيع متواصلة في كل شارع..

- ركلات ؟

- مجرد تشبيه.. ولكن أين النساء؟ في الحرب نساء أيضاً..

- لماذا؟

- الحرب عمل نسائي يا أوزان. لأنه يمكنهنّ من خسارة الوزن..

- معك حق..

يسرع الطفل ليخرج المزيد من الألعاب من حقيبته.

- ما هذا يا بني؟

- هذه لارا كروفت ، وهذه جي أي جين ، وتلك أليس التي في ريزدنت إيفيل 13.

إنهن نساء مقاتلات.. ها ، لحظة ربما هنالك واحدة أخرى.. - يسرع مجدداً ، ويعود حاملاً إحدى ألعاب الباربي - إنها لعبة بيرين ، لقد نسيتها عندنا..

أعطينا دور الخانوم ثريا سولون للارا كروفت - بعد أن حاربت في أرضوم لمدة شهر ونصف أصيبت بجروح بليغة. وكانت على علاقة وثيقة بالسيدة فائقة حقي مديرة ثانوية الفتيات..

كما منحنا دور يورك فاطمة لجي أي جين - كنا نقاتل في الجبهة ذاتها أثناء تصدينا للفرنسيين في عنتاب ، ولكن هذه الدمية ينقصها الحجاب..

وقد ارتأينا منح دور نينة خاتون لإليس - عاشت نينة خاتون ثمانية وتسعين

عاماً ، وقد حاربت الروس في حرب الـ93، ورغم أنها لم تشارك بشكل فعلي في حرب الاستقلال ، فقد اعتبروها ممثلة عن كافة أمهات الشهداء والمحاربين - أما باري فلتكن العروس ، ما رأيك ؟

- أي عروس ؟

- المحبوبة المجهولة التي ترقب عودة الجندي ، الخطيبة والعشيقة ..

- وما الذي ستفعله ؟

- مهمتها الدعاء ..

- حسناً ..

على سطح الطاولة المستطيلة وفيما نقل الجنود - صناعة أميركا - ، كنا نهتف:

- الله الله ، الله الله ، الله الله ..

واختلطت حينها الحرب التي شاركت فيها فعليا مع المعارك التي كانت تدور حولها الكثير من أحلامي والتمثيلات القتالية في الاحتفالات ؛ بحث الملايين من الجنود تحت الثرى وفي القبور الرابضة في صمت وسكون خلال الحرب الصامتة المتواصلة التي تشكل أس العالم وخميرة نضوج هذا الكون .. كلها أصبحت خليطاً واحداً ..

ربما عليّ أن أدون على شاهدة قبري: « ادعي من أجلي أنا ، أيضاً ، يا باري ».

- هل أنت مصاص دماء ؟ - يسأل أوزان بخيال الطفل ..

- كلا يا بني ، لست كذلك ..

- بلى إنك مصاص دماء..

- أهذا ما أبدو عليه؟ - دفعت بطقم أسناني الاصطناعي بواسطة لساني نحو شفتي وأنا أحركهما ومن ثم أعدت طقم الأسنان إلى مكانه.

- ألسنت كذلك؟ - يسألني مستغرباً.

- كيف تظن ذلك يا بني؟ لقد تناولت سلطة اللبن بالثوم منذ قليل..

أقبل كفه الصغيرة التي يرفعها ليضرب بها كفي مصافحاً..

المظلي الذي أدركه المطر

«جدة الأم ، هي أم الجدة».

(عصمت لطيف بيك)

هل خطر لك أيها القارئ العزيز أنك يمكن أن تموت اليوم؟ حتى أنك قد تفارق الحياة الآن ، للتو واللحظة؟ لقد خطر لي ذلك.

لو كانت حياتي فيلما ، لأدركني النوم وأنا أشاهده ، أو لخرجت مغادراً في منتصفه ..

اليوم عطلة فيغان نيغاتيف ، لذا مزجت أطباق العاشورية التي أحضرها لي الجيران سابقاً وتناولتها.. شعرت بالاسترخاء ، ارتديت بيجامتي المخططة ، وأنهيت يومي بخبر الانتحار الذي بثته نشرة الأخبار قبل أن أغط في النوم.

في الحلم كنت جالساً في أحد المطاعم ، وقد أحضر النادل صحناً كبيراً مليئاً بالسلطة يتوسطه رأس رجل أكبر من الحجم المعتاد. بدا وكأنه احترق أو سلخ عنه الجلد ، كحبة دراق مقشرة. كان يبتسم ، فيما أدور بشوكتي حول وجهه وأنا أسأله: ومن تكون أنت أيضاً؟

- تعلم جيداً من أكون أيها العجوز الخرف.

- معصوم جيغي .. - بدأت أردد ، وقد شرع كل منا يحدّق في الآخر ، باشمئزاز

كمجذومين دخلا الحمام خلصة - ما الذي فعلته لذو الفقار ظريف أوغلو؟

- أنت تكن لي حقداً يدفعك إلى قتلي ، لأنك لا تعلم أي شيء عني .

- أنا لا أحقد عليك . رغم أنني واثق بأنك جدير بالحقد..

- هاه! أتعني أنك ستقوم بتنفيذ حكم الموت الذي أطلقه خرف بلغ المائة

والخمس سنوات ، بحق شخص تجهل عنه كل شيء ؟

- بالضبط . كما أنّ ذو الفقار ظريف أوغلو لم يكن خرفاً ، وسأقضي عليك بأي

حال ..

- ولكن لما ؟

- لأنك .. لأنك مجرد ملعون ..

- لم تعتقدون - أنتم معشر المؤمنين - بأنكم محقون في كل أمر ؟ إن قمت

بقتلي فستزود غرفتك في الجحيم بالغاز الخانق .. - كان معصوم جيحي كذكر اللاما الذي فاته

موسم التزاوج ، يتوعد ويزبد حانقاً .

أخذت حدة النقاش بيني وبين صحن السلطة تحتدم بمرور الوقت ، فأخذت

المملحة وبدأت برش الملح على عيني معصوم جيحي - خذ هذا ، وهذا أيضاً ..

وفيما يتلفت الرأس يميناً ويساراً بحدة ، كان زيت السلطة المثلوم يتناثر علي ،

ولكن الرأس الذي يكابد مصارعاً الآلام ، لم يكن فمه يتوقف عن الكلام :

- النكرات من أمثالك ، متعطشون لدخول صراع حتى الموت .. ففي رحلة

انتقالكم من أكلة لحوم البشر إلى التعصب البليد ، لم يسبق لكم الاحتكاك بأداب

السلوك .. ستقوم بارتكاب جريمة فقط لتلقيك إيعازاً مجهول الدوافع . ذلك أنّ الارتهان

الأحمق لأوامر الآخرين يجعلك مثل عجيين يتشكل وفق أهوائهم ، أمر يروق لك .. وليس

من فائدة لذهنك المتلبد سوى تمويه الحقائق ..

ومع انتهاء الملح وضعت المملحة من يدي ، وتوقف بدوره عن الكلام ، وقد غطى
الملح وجهه ، وبدا وكأنه يعاني من طفح جلدي .

- شخص في مكاتي - انتقلت إلى موقع الدفاع - يدرك تماماً قيمة الانتصارات ،
المعجزات والنوازل أيضاً..

- الانتصارات التي لم تُسهم فيها ، والمعجزات التي لا علاقة لك بها ولم تعرّضك
لأي خسارة ، كما أنّ النوازل رفعتك إلى مستوى أهم بكثير مما تستحق.. روعي مجرد ؛
لست سوى قزم غسّال يجاهد عبثاً لغسل جثمان جمل نافق..

هوب! ظهر رأس آخر في صحن السلطة!

- سيد ذو الفقار! - هتفت دهشاً.

كان رأس ذو الفقار ظريف أوغلو بحجم كرة التنس ، وأشبهه بقنديل بحر تُرك للريح
مطولاً ، وعلى الفور بادر إلى القول:

- ما الذي تنتظره يا روعي؟ اغرس الشوكة في رأسه ، وقطّع هذا الإبلّيس إرباً
بالسكين..

رفعت الشوكة وفيما كنت أهمّ بغيرها ، قام معصوم جيحي بعضّ ذو الفقار وبدأ
بأكله. رفعت الرأس من أذنيه وأنا راغب في سحقه ، وهو يطحن بوحشية بقايا الرأس الذي
لم تفارقه الحياة بعد ، وبدأت خيوط دم رقيقة تنساب من بين شفثيه. استبد بي الدهول ،
ووسط هلعي لوحت برأس معصوم جيحي بأقصى ما أستطيع ورميته بعيداً ، ليطير بسرعة
ويرتطم بالحائط. وقد ارتسمت على وجهه الذي بات معجوناً كطبق الكبّة النيئة ، حيرة
واضحة. تتناسب حيرة الضحايا طرداً حين قتلهم ، مع الغباء الذي كانوا يظنونك عليه..

انتفضت ناهضاً من السرير ، وزفرت آهة ارتياح عميقة. الكوابيس مفيدة للتوتر ،
والمصائب تبدد الملل..

كنت مبلاً من الرأس وحتى أخص القدمين ، كمظليّ فاجأه المطر قبيل فتح
المظلة.

ربما من الأفضل أن أدون على شاهدة القبر:

«الآن بت أدرك بصورة أفضل ما كان يشعر به بارباروس خير الدين باشا».

العجزة يذكرون الشبان بالموت ، والشبان يذكرون العجزة به.

جفت بيادري ، وغار قوس قزحي ؛ وتمزق الغربال ، وتهدمت الجدران ولا زلت
واقفاً على قدمي. الدنيا ثلاثة أيام ، ولكن الأيام الثلاثة ليست بالفترة الوجيزة.

كنت قد اتخذت القرار في عيش ما تبقى لي من العمر برغبة ، وبعد الثمانين من
العمر بدأت ممارسة الرياضة.

آلية سير الأقدار تحتم عليها منحك باليمين ، ولكمك باليسار. والخلاصة أنّ
حيوية الحياة لا تنبع سوى من مفاجاتها ، ومن الآن فصاعداً لا أعتقد أن انتقالي إلى العالم
الأخر سيكون إلا من خلال إحدى هذه المفاجآت. ولكن آمالي خابت ، وانتقلت إلى مرحلة
الآلام. أي أنني بت في أنسب المراحل وأفضل المواقع لتحقيق اللامتوقع..

لقد انزلت عجلات لساني ، كنت أملي على فيغان جملة من التعليمات التي لا
أدرك معاني كلماتها:

- ريد بول!..

تحضر لي مشروباً في علبة معدنية ، فأكرعه في جرعة واحدة..

- إيغلو!..

تنزلق كتلة البياض المجمدة من بين طاقم أسناني لتتحدر نحو معدتي..

- نيوز ويك!..

لا أستطيع سوى تصفح صور المجلة الأجنبية..

- ون إي داي!..

ابتلع الحبوب..

- جاكوبس غولد!..

القهوة.. ارتشفها بسرعة..

- نايك!..

الأحذية الرياضية تمكنني من الزحف براحة..

- كالفة!..

الماينوز.. أرشقها على كل طعامي..

ذهني... لساني... جسدي... وكل كياني قد خرج برمته عن نطاق سيطرتي. «تري

هل عليّ وشم جسدي؟».. فيما بدأت باستعمال كلمات غريبة من مثل: فيرساتشي ،

أرمانى ، شانيل ، فيرا فانغ ، كاوتش ، إيف سان لوران ، مونت بلانك ، باتك فيليب.. وسواها

في حديثي اليومي ، كان نمش الموت يختفي من يدي ، فيما عاد البريق إلى عينيّ ، وأصبح

في مقدوري السير دون العكاز.

بعد الأربعين تتصاعد احتمالية وضعك على مغسل الموتى ، ولكن ماذا بعد

مئويتك؟ ماذا عني؟

كنا - أنا وجيفان - كدفتي غلاف رواية واحدة ، متماثلين كتوأمين سيامين ، لكننا غير ملتصقين. وبعد مشاهدة أحب أفلامي (السلامة أخيراً، 1923)، توجهنا إلى أحد ميادين الرماية في ألتون زاده. كنا نهمزق الأهداف الممزقة ، تخيلوا معي عودة التيرمانتور بعد تحوله إلى خرذة مضغضة. لم يكن ما يقلقنا عدم براعتنا ، بل عدم كفاءة سميث أند ويسون ، فيما نستخدم الرصاصات بدل الفواصل بين الجمل:

- لو أنّ أمثالي فقط عاشوا في هذه الحياة ، دوف ، لما كان للرقص أن يكون شائعاً ، دوف ، كان البكاء سيسود الأعراس ، دوف ، والعقوبة الوحيدة هي القتل بالرصاص ، دوووف!

- تعني ، دوف ، أنك ستقوم ، دوف ، وفي كل فرصة ، دوف ، بقتل أشباهك ، دوووف!

- تماماً ، دوف ، لو كنت مكاني أنا كنت لتفعل ذلك؟ دوف! دوف! دوف!!

تصرفات خاصة بالجثث

«رغم أنّ العالم صغير ، ولكنك لن

تستطيع أن تلعب به كرة المضرب».

(السيدان طغرل و جاغري)

لنراهن على مليون دولار على أن نهايتي ستكون في الثالث عشر من أيار. كنت متأكداً ، وكانت المواسم والشهور والأيام تعبر حياتي للمرة الأخيرة. عزيزي القارئ ، حتى لو تمكنت من انتزاع المليون دولار منك ، فلن أتمكن من صرفها قبل أن تزرّق جثتي وتحلل..

كنت أشعر بالأسى على الجنود الذي قضوا في المعارك ، ولم يتسنّ لهم المشاركة في احتفالات النصر. أما الآن ، فحتى لو ضمنت انتصاراً لا سابق له ، فسأبقى بعيداً عن السعادة بصورة كلية.

حين كنت شاباً ، كان الزمن يمضي ويحملني معه ، والآن بتّ أحمل على كاهلي الزمن في رحلة عودته.

ملاك الموت يحوم حولي ، وتدفعني رياح جناحيه إلى النزوح. ولكن التزام رفقته الموت تسهل كافة الأمور ، خلا الموت.

كنت أستمع إلى المارش الجنائزي لشوبان (1810-1849) من السوناتا الثانية القسم الثالث ، بعزف فلاديمير هورويتز (1903-1989). كانت أنامل العازف الأوكراني الأصل تضفي على المقطوعة طابعا أقرب لأجواء الجريمة. ولتكرار استماعي إلى المقطوعة

بعزف الأوكسترا والعزوف المنفرد ، بتّ قادراً على عزفها صغيراً في جنازتي دون أي خطأ. ما الذي قلموه؟ لا تستخفوا بالجثامين ، فهي أيضاً تسعل ، تخرج ريحاً ، وتتخلص من سوائلها. في الحقيقة يمكن لتابوتي الخشبي المعشّق أن يصدر ألحاناً كناي أيضاً.. وبرأيي ، إنّ على كل فاني أن يحتفظ بهذا المارش كنقش في ذاكرته. فألحانه توحى بالموت المحتوم ، تستجلب الهدوء والسكينة. وتستحضر النواتُ عزرائيل ، والقتلة ، وحملة النعش على أكتافهم ، ووقع خطوات الغربان في المقابر.. الأصوات التي تتناهى إليك بعد أن زفرتَ آخر أنفاسك ، وأنت ملفوف في بياض الكفن.. والحقيقة أنّ شوبان بدل هذه المقطوعة ، أوصى أن تعزف في جنازته مقطوعة موزارت القداس الجنائزي (ريكويم) وهو محق ، فلا يجوز له أن يرثي نفسه بنفسه ، لا حياً ولا بعد وفاته.

بعد انتهاء الأسطوانة فتحت عيني ، كنت على التراس ، فيما يسير جيفان مترنحاً كلاعب أكروبات مخمور.

الليل مدلهم كشراع سفينة قرصان ، وصامت كخيم عزاء الموجيك ، والشوارع مقفرة كما هي الجنة.

حتى الحمام قد اختبأ.

على الطاولة بقايا وجبة البيتزا وزجاجات الشراب الفارغة..

وما إن قال جيفان:

- لقد بدأ الجو يبرد ، والغيوم مكتنزة ، يبدو أنها ستمطر - حتى أرعدت السماء ، وكأن ميكائيل كان ينتظر كلماته..

كنت معافي ورغم ذلك فالتذمر قد غدا عادة:

- السنين صدمتني كسيارة فيراري لم أتكمن من قراءة نمرتها..

نهضت ، فأخذت الغيوم التي تستحضر أشكالها طائراتٍ شرعية ، بإطلاق الشرر ، وبدأت البروق تتجادل كصليل الصوارم لاقتسام الغنائم ، وأخذت حبات المطر تنهمر كشظايا شفيفة ، وكأن أحدهم من علياء السماء يقوم بِرَشّ الزجاج ، وفاحت رائحة ماء الورد من أرضية التراس المبللة.

انتقلنا إلى الصالون ، حيث علقت الهدف الكرتوني وقد أصبته في القلب خلال حملة الرمي ، بنية تحويله لبوستر ، وقد تذكرت حين النظر إليه ، الشخص الذي يتوجب عليّ بالفعل إصابة قلبه ، فسألت جيفان :

- ما أخبار معصوم جيحي ؟
- صحيح ، علي أن أبشرك ..
- هل عثرت على أثر له ؟
- بالطبع ..
- إنك رائع يا جيفان ، وأين هذا الملعون ؟
- ها ؟
- أين يقيم صديقنا معصوم جيحي ؟
- لا فكرة لدي ..
- كفّ عن العبث ، ألم تقل أنك عثرت عليه ؟
- عثرت على مستخدم واحد في الفيس بوك باسم معصوم جيحي ..
- ثم ؟

- وأرسلت له رسالة.
- وما كان ردّه؟
- تمكن من تذكرك..
- جيفان ، كل من يتابع التلفاز لا بد أن يتذكرني..
- أعني أنه تذكر النقود التي أقرضك إياها..
- إبيبييه؟!
- ولكن فلتطب نفساً سيدي ، لقد حوِّلتُ له النقود ، وسددت الدين - كان متأكداً تماماً أنه فعل الصواب ، ولكنه كان مخطئاً تماماً..
- بات رأسي كصالة موسيقية التهمتها النيران وحطمت سلّمها الموسيقي ، وفي منتصفها يجلس فلاديمير هورويتز بربطة عنق سوداء إلى أنقاض البيانو ويبدأ بعزف المارش الجنائزي..

الفضيلة السابعة المهمة

كنت أقرأ كتاباً ، تماماً كما تفعلون الآن.

لا أعلم ما المدون في كتابكم ، ولكن هذا ما جاء في الكتاب الذي كنت أطلع:

«الشفقة ، الكرم ، المحبة ، النشاط ، التواضع ، الإخلاص والشجاعة ؛ كلها أشياء مجانية تسلّم الإنسان إلى الملل الأبدي ، وتسممه ، وبالطبع تؤدي به».. كانت تلك قائمة أطلق عليها الكاتب الفضائل السبعة المهمة..

فيما الأمور تسير نحو وجهة سيئة ، لم يكن من الحكمة قراءة أفكار تفاقم السقم.

لقد قام الأحقق جيفان بتقديم مكافأة للملعون معصوم جيغي.

هذا حال الدنيا ؛ يقوم المراوغون بمداهنة الطغاة ، والنصابون يعاملون اللصوص بكرم ، والكذابون يغنون أغاني عاطفية من أجل المنحرفين. ومقابل ذلك ينصب المعدمون على البسطاء ، والمتدينون يلعنون المؤمنين ، والمتشددون يغفلون الصالحين.. تستوطن الشرور في العمل الخيّر والمبادئ ، فيما يواصل الخير طريقه من خلال حرق كل مبادئه في تجارب قاسية ودفع أثمان لها لم يرتكبه. فالشيطان يهوى الاقتباس من الكتب المقدسة ، فيما يتغاضى الملائكة عن الأمر دوماً..

يقول عوني واو:

- الإنسان هو خليفة الله على الأرض ، أي وليّه ، وإن لم تكن ولي الله ، فستغدو

ريبب الشيطان..

ولكن هل يتساوى الخليفة والولي؟ تشعرني بعض الكلمات التي يتوجب عليّ إدراك معناها بعد المائة من العمر بالخشية، وتجعلني أعتقد أنني وطوال قرن كامل لم أكن الشخص الذي يفترض به أن يكون. ورغم ذلك فأنا أداني الديناصورات في القدم..

وها أنا أحيا الربيع السابع

«لا تعبس ، يا من أفندي محياه أيها

الهلال البديع».

(مارش الاستقلال)

فيما كُنا نتجول دون هدف محدد ، رنّ جوّال جيفان ، كانت والدة أوزان ، تخبره بأنها نقلت ابنها إلى المستشفى بحالة طارئة... ترى ما به الطفل المسكين ؟ لم يكن جيفان أيضاً على علم بذلك.

- وأين أخوك؟ - سألتُ..

- لقد توفي ، مات في حادث سير قبيل بضع سنوات.

ورغم أننا كنا أقرب إلى الطيران منا إلى السير على الأرض داخل الصوبارو ، لكننا وفي إحدى تحالفات الحظ وصلنا سالمين إلى المستشفى.

كانت المستشفى مصممة على شكل سفينة فضاء ، مصنوعة من الزجاج السميك والمرمر الرقيق. ووسط مرايا الردهة القاتمة الشبيهة بالأضرحة ، كنت أجلس في صمت جليدي وسكينة عبد أسير ، فبعد أن توجه جيفان إلى غرفة طبيب الأسنان بقيت وحيداً ، وقد خرجت امرأة شابة من غرفة المعاينة.

بدأ قلبي يتنّ كساعة منبه متأخرة تطلق تنبيهاً بعد فوات الأوان. فجمال المرأة كان عامل جذب لا أقوى على مقاومته أبداً ، ولا أظنني الوحيد في هذا المضمار.

كخارطة بلاد استُعمرت للتو، كان وجهها مليئاً بالخطوط والانكسارات الباكية. كأرملة حديثة تقطع البصل لإعداد الطعام في جنازة زوجها، كانت الدموع تنهمر من عينيها. ما لم يكن ذلك الذي يقبع داخل أضلعكم صخرة، فمن المحال ألا يطغى عليكم هذا الحسن الآخاذ والحزن العذب.

كانت الشمس ترسل إليها أشعتها عمودياً، وفيما تطرق بحدائها ذي الكعب العالي على الأرضية الصقيلة العاكسة، كانت تبدو وكأنها انعكاس لصورتها في تناسق نادر، وقد أخذت تمسح دموعها بمنديلها. من الواضح أنّ الملائكة هي من تكفلت بوضع مساحيق التجميل على وجهها. أما زرقة عينيها فكفيلة بإحداث أكثر الأعاصير تدميراً، وفيها معرض لقبلات لؤلؤية. هذه المرأة أشبه ببرق عُبّي في قارورة. وإن لم تكن قد اختيرت ملكة جمال الكون، فذلك فقط لأنها لم تشارك في المسابقة. لقد امتزجت الجاذبية والبراءة في جسدها في خلطة متكاملة.

- مرحباً.. أنا نازلي هلال؛ والدة أوزان - قالت وهي تمد يدها مصافحة. شعرت بأنني أخذت قيلولة في الجنة، وأرى حلماً يفوق كل تصوراتي.

فما إن سمعت صوتها حتى انقطعت أنفاسي كلياً، وعجزت عن الحركة. كنت أشعر وكأنني أخوض جولة ألعاب القوى وقد ارتديت بدلة رائد فضاء، أو كأنهم ألقوا بي لمصيري في فضاء مجهول. كانت تتقاذفني مشاعر مختلطة، كجندي يطلق النار على هدف مجهول. ترافق اللحظات الأولى من أي قصة حب حقيقة لا مرأى فيها؛ التقاء الماضي والمستقبل لوهلة خاطفة. ولكن المؤسف أنّ حياتي قد شارفت على الانتهاء. فقدت قدرتي على الكلام فجأة، وكبوق صدى يرشقه عازف مخمور ببصاق متقطع خرجت مني الحروف:

- العا.. يش.. الجن.. كث.. وإ.. ل.. ما.. كن.. ه.. - وكل ما كنت أريد قوله: أنّ العالم يشبه الجنة، وإلا لما كنت هنا..

أعلم أنّ اسمي يتصدر القائمة السوداء للجنس الآخر. وأعلم أنّ القبول بي في هذا

العمر أمر صعب. ورغم ذلك فحين مددت يدي التي تشبه قفاز البستاني لأحد الأرواح الشريرة في أفلام الرعب ، سقط عكازي. وحين تبادلنا المصافحة ، أدركت ما يتوجب علي كتابته على شاهدة قبري «الموتى أيضاً لهم الحق في الحياة».

جلست إلى جوارى ، وكأنها كانت تشدّ وثاقي بحبل نوراني يجعل من العفاريت أولياءً ، وفيما تتناول عكازي من الأرض لتعيده إلي ، كانت لمساتها الإعجازية تعيد الحياة إلى قطعة الخشب وتجعلها تزهو من جديد. إنها جميلة إلى درجة يستحيل عليك فيها الضياع وأنت إلى جوارها. ومن ثم.. من ثم ران علينا صمت كصمت الأسماك المرسومة على صفحات المجلدات في المكتبات. وبدأت الأوركسترا المحطمة ، المضعضعة والفاقدة للوعي داخلي بعزف الحركة الأولى مولتو أليغرو من سيمفونية موزارت الأربعين.

العيش لمائة عام ، يمنحني فرصة لارتكاب أكبر أخطاء القرن ، وقد كرسْتُ أناني برمتها للمضي في هذا الخطأ.

فيما العالم يدور في أكثر الانعطافات حدة ، كنت على متنه ، وأنا أحس أن الانعطافة القادمة كفيلة بقذفي إلى العالم الآخر. سأعلي في القدر ذاته مع أخط المنحرفين في نيران السعير ، وسيبصق الكل على وجهي وهم يقرعونني موبخين. ولكن لا مانع لدي ، فأنا لم أعد أريد البقاء وحيداً لا في الجنة ولا في الجحيم.

الحب في عمري يعني أن أقرر في أي حزن سأفارق الحياة ، ولكن الأمر لا يتغير في كافة الأعمار. إلا أنّ نازلي هلال كانت متزوجة وزوجها قد مات ، فلماذا سترغب في الثاني؟ ما الذي يمكنني تقديمه لها؟ قلبي المتغضن في صدري المتيبس؟ ومن يريد عقد الصداقة مع الأموات؟ في ظلّ هذه الظروف لن أكون سوى مجرد طفيلي عذري.

ندفة ثلج واحدة لن تحطم غصن البلوط ، ولا يمكن لعب البلياردو بالحبل بدلاً من العصا. والغرق في الدبس مريع تماماً كالغرق في مستنقع موحل.

وفيما أمتّع ناظري بأذن نازلي هلال التي تشبه الأهلّة في المنمنمات ، كنت أفكر

أنه لا يمكن لحب أن يكون يائساً كهذا الحب ، وقد أخذت أقراطها التي تشبه كرات الضوء في المراقص ، توقظ رغبة الرقص في داخلي. ويمكنني أن أقسم أنّ الحلي لا يمكن لها أن تضيء شيئاً على جمالها..

حتى لو تمكّنا من العيش مائة عام آخر ، فلن نصبح أنا ونازلي «السيد والسيدة دوغرو» ، فروحي الطامحة لا تكفي لتحرك جسدي المنهار. كنت أجلس على كرسي القيادة لسيارة إطفاء نفذ وقودها ، وانفجرت عجلاتها ، وتبخّر الماء من صهريجها. ورغم ذلك كانت البهجة تملو في داخلي كما تملو شمس الرسوم المتحركة. ولم تفلح كل هذيانا المنطق سوى في تفحيم قلبي المجهد ، ومن ثم التضييق عليه حتى تصقيله لماسة حقيقية.

كنت على الدوام أتوق إلى مثل هذا اليوم ؛ «ترى كيف سأجنّ؟» وها أنا ذا أعرف.

خلال مائة عام ينسى الإنسان من يكون. ما الذي يجري؟ هل عثرت على النصف الآخر لروحي بعد أن غدا جسدي مجرد خردة بالية؟ كنت مجرد سيفٍ صديّ التصقت بحده الدماء. فما الذي جنّيته حتى جلبت على نفسي بروق الحب الصاعقة؟

يجلس كلانا على الأريكة الطرية في صمتٍ لثينة أحفورية ؛ هي أفروديت المفعمة بالحقد ، وأما أنا فمستحاثة النبادرتال. تصبو نظراتها نحو البعيد ، لمستقبل لن يكون لي فيه أي دور..

تعاوندي قدرة النطق:

- ما مرض أوزان يا ترى؟ هل اطلعت عليه؟

تلتفت وهي تحتضن راحتي. فأحدس أنني سأحيا معها علاقة رقيقة سطحية ، لا اسم محدد لها ، ولكنها بالتأكيد عاصفة أيضاً.. لا أسمع ما تقوله لي. هل انقطع صوتها أم أصابني الصمم؟ ولكنني مع أدنى حركة من أناملها ، كنت أحدس ما الذي يعتمل في أعماقها. امرأة قلقة وحيدة تحاول الاحتماء بي. تنتظر مني قطرة شفقة ، كسرة سلوى وذرة

من المتانة ، بينما أقبع في قعر الهاوية التي تخشى السقوط فيها.

سأدفن رأسك في مكان لن تعثر عليه مطلقاً

«أيام الشباب قصيرة والسنوات

طويلة ، في الشيخوخة الأيام

طويلة فيما السنوات قصيرة».

(إيمانويل كانط ، 1724-1804)

كنت في زمن ما شاباً قويا ، يعصر الحجر فيقطر منه الماء. ولكنها الحياة! فحين
أرغب في تخويف أحدهم الآن أقول له: إنك تشبهني حين كنت شاباً..

ضابطة الأدوية - فيغان نيغاتيف - تحضر لي حبة خضراء وكأس ماء ، فابتلعها
دون سؤال أو اعتراض. سأسافر إلى أنقرة للانضمام إلى احتفالات التاسع عشر من أيار ،
وستكون الأخيرة. وستطأ قدما أتاتورك أراضي سامسون دون مرافقتي من الآن فصاعداً ،
وستبدأ حرب الاستقلال دوني ، وسيسرع الجنود نحو الجبهة دوني ، وفيها كنت أسير نحو
المرحاض وأفكر في الكلمة التي سألقيها في الحفل ، صادفت جيفان ، مرتدياً بيجامته وهو
يجرّ قدميه خارجاً من المرحاض.

- صباح الخير سيد روحي.

- صباح النور.

يبدو أنه بات يعيش معي!

تصب فيغان الشاي دون أن تفارق نظراتها المسلسل الذي يعرض على التلفاز.

يقول الطبيب داخل الشاشة:

- ليس لديها من وقت سوى سنتين على أقصى تقدير..

ليت أحدهم يقول لي أيضاً الكلام ذاته..

على مائدة الفطور أمدّ لجيفان ظرفاً من فوق صحن الأومليت المعدّ على الطريقة

النمساوية.

- تفضل!

يتفاجأ.

- ما هذا؟

- الألفا ليرة التي دفعتها باسمي لمعصوم جيحي..

يدفع الظرف بطرف إصبعه نحوي.

- لا لزوم لذلك سيدي. صدقني.

- أنت معلم ، أليس كذلك ؟ معلم تربية رياضية ؟

- أجل!

- كم يبلغ راتبك الشهري ؟

- أمم.. إنه يكفي معيشتي..

- ألف ؟ ألفان ؟ كم بالضبط ؟

- أنا معلم متعاقد سيد روجي ، أقبض في الشهر ما يقارب الخمسمائة ليرة.

- وكيف تكفيك الخمسمائة ، هل أنت ساحر؟

- إيه ، إيه .. يبدو أنني قنوع ومقتصد بعض الشيء..

دبّ فيّ الحماس أكثر من خفق أجنحة سرب طائر.

- أتظن بأنني سأتغاضى عن منحك راتب أربعة أشهر لي؟ أعتبرني نصاباً؟

- العفو ، ما هذا الكلام؟ ولكن وضعي المالي جيد ، ولدي بعض المدخرات..

- كما أنّ ابن أخيك مريض ، هل أبدو لك كشخص يمكن أن يستولي على

مصاريف علاج طفل مريض؟

- بالطبع لا ، ومن قال مثل هذا الكلام؟

- إذا فأنت تعني بأنني لص؟

- محال..

- في هذه الحال خذ الظرف ، ودعنا نستمتع بتناول الفطور ، ولا تثر غضبي. وإلا

سأدفن رأسك في مكان لن تعثر عليه مطلقاً..

- حسناً سيدي.. - تناول الظرف بهدوء من يدي ووضعه على حجره..

ظلال الشبح في الضباب

{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}.

(القرآن الكريم ، سورة العصر ، الآية: 1-2)

قبل شهرين عثرت على خاتم ذهبي في موضئ الجامع ، وقد نقش عليه من الداخل «أنا لك إلى الأبد». وهو مجرد طعم لخائن مستهتر لا أكثر.. ولكن هل بوسعي منح الخاتم لنازلي هلال؟ وكيف لي أن أغريها بالتسكع معي؟ هل سأقول لها: «تأبطي ذراعي ، فحين تكونين معي يمكنك التجول في كافة المتاحف مجاناً».. الأمل يوهن علاقة الإنسان بالحقائق ، واليأس يوهنها مع الحياة.. هذه الحماقة المسلطة على وجداني ، والتي ابتليت بها أقداري ، تشي لي ببؤس المصير..

لقد قرأت في إحدى المجلات الشبائية أنّ الهيام يحتاج إلى ثمانية عشر شهراً للشفاء منه ، وأنا لا أملك كل هذا الوقت..

ولم يكن من مفرّ لي أمام هذا العشق سوى مواجهة الموت أو الاستسلام له ، لربما إن زرت عائلة ذو الفقار ظريف أوغلو ، سأحصل على بعض المعلومات عن معصوم جيجي.

تناولت الحبة الخضراء ، وارتديت البدلة الخضراء.. مع هطول أمطار الربيع تخرج الحلازين ولكن سيارات الأجرة تتبخر.

كنت مبهتجاً كسياسي نجا للتو من محاولة اغتيال ، مغتبطاً كفسّال يقوم بغسل جثمان السلطان. تحت مظلتي أسير منتصب القامة مستنداً إلى عكازي ، وقد أحالت

الأمطار الشوارع إلى استطلاعات رخوة كأعواد المعكرونة حين الغليان ، وباتت المدينة برمتها كقدر يرغي ويزبد ، وأخيراً تمكنت من صعود الحافلة ونزلت في (دوغانجلار). وفيما أذرع الرصيف توقفت سيارة سوداء قديمة الطراز أمام بناية الأمانة حيث تقيم عائلة ظريف أوغلو. وعلى الفور ترجل السائق مسرعاً ليفتح الباب الخلفي لينزل رجل ضخم البنية أصلع تقيض الأناقة من محياه ، يرتدي بدلة غاية في الروعة ، ويبدو كأحد أبطال السينما. دخل الأصلع الأنيق البناء ولحقت به.

وما إن وصلت شقة المرحوم ذو الفقار ظريف أوغلو راعني المشهد ؛ حيث كانت زوجته السيدة زبرجد على فراش الموت. وقد غصّ المنزل بكل من يهوى رؤية الأجساد في احتضارها ، حتى أنهم لم يتركوا لعزرائيل موطئ قدم. استطعت الوصول إلى جوار السيدة زبرجد بعد مشقة بالغة ، وقد كان الأصلع الذي صادفته قبل هنيهة واقفاً بالقرب من رأسها ، وهو يمسك يديها بكلتا راحتيه.

من عيني المحتضرة ينبعث بريق باهت كراس الأصلع:

- إذا لقد أتيت..

وقد طغى على الصالة صمت جنائزي بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فرد عليها متمتماً بصوته الآلي:

- أنا هنا ، هنا معك سيدة زبرجد..

كان كلاهما يتكلمان بلغة احتفالية أقرب للغة رجائي زاده محمود أكرم 14 في إحدى الأعمال المسرحية.

- بني العزيز.. معصومي الجميل.. يا جيبي

انتفض بدني ، أي مصادفة تلك التي تجعل آخر كلمات السيد والسيدة ظريف أوغلو على فراش الموت هي معصوم وجيبي؟

وقد أخرج القريب الغريب مندبلاً من جيبه:

- لا تتعبي نفسك.. وإن كان لديك أي طلب ، أرجو أن تخبريني به..

وقد نطقت السيدة زبرجد آخر كلماتها:

- ما.. ما.. مانغو ، بدأت التخفيضات فيه.. - والبقية في حياتكم ، لم تشهّد ولم

تأتِ على ذكر ربها..

أخرج الأصلع الغامض مندبيله وأخذ يمسح بحرص قطرات عرق الاحتضار التي تخضّل بها وجه الميتة ، وأغلق عيني الجثة المبتسمة ، ومن ثم التفت نحونا ؛ نحو الجمع المذهول ، دون أن ترتسم على محياه أدنى علامات الحزن ، ونهض معلناً بصوته الآلي:

- البقية في حياتنا.. - فارتفعت في الصالة همهمة حزن مزيفة ، وأخذت شهقات

النواح المصطنعة تعلو هنا وهناك..

وفيما كان الأصلع الغريب يعبر الجموع وسط كلمات العزاء وعبارات المواساة ،

لامس كتفه كتفي ، فالتقت نظراتنا لوهلة خاطفة ، رمقني خلالها بدقة قاتل ماجور. ومن ثم تسلل نحو الباب تاركاً ساحة الموت خلفه.

حين شاهدت فيروزة ، بنت ذو الفقار ، جالسة إلى الجهة الأخرى من سرير

المتوفاة ، ارتعبت ، فقد بدت أقرب في صمتها الموجس إلى ظل شبح في الضباب..

ما هذا؟ لقد تدلى لسان السيدة زبرجد من فمها ، فالجثامين لا تنجح دوماً في

الحفاظ على حرمة أصحابها.

فالتفت نحو المرأة الغريبة بالقرب مني سائلاً:

- ما بالها السيدة فيروزة؟

فأسرعت المرأة في تقديم تقرير مفصل:

- المسكينة ملتاعة ، فهل يمكن للمرء أن يكون تعساً إلى هذه الدرجة ؟ فقد خسرت خلال خمسة أسابيع على التوالي كلاً من والدها ، والدتها وابنتها..
- ابنتها ؟
- لقد انتحرت زهرة يا سيد روجي ، ألم تسمع بذلك ؟
- لا!!!!
- يا للخسارة ، كانت كزهرة ربيع في أوج نضرتها..
- حقاً يا للخسارة.. حسناً ، ومن ذلك الأصلع الذي كان يحدث السيدة زبرجد قبيل وفاتها ؟
- معصوم جيغي..

أترغب في الذهاب

إلى الجنة قبل الموت؟

«ظلي أكثر وسامة مني» أتذمر.. نجلس في مقهى (دِمَلار شاي) المتاخم للجامع. نتثاءب كسلاحف معمرة تجرعت المورفين مخلوطاً في العلاج ، نجلس عابسين وكأن نهاية العالم حلّت ولم يبق سوانا على قيد الحياة.

عوني واو يقول:

- الإنسان يقيم بين انعكاس صورته في المرآة وظله على الأرض..

أنا في وادٍ وهو في وادٍ آخر. أوليست الحياة تزدهر بالشكر والدعاء الصالح؟ إذاً ، فلماذا تبدو لي ورود الحديقة ، شجيراتها وأزاهيرها الملونة كأكاليل الورود التالفة على الأضرحة وهي تسبح في مستنقع قاذورات؟ يخال إليّ في بعض الأحيان أنّ العرفان ، والحكمة ، والعبرة والعبارات المشحونة... جميعها تعمل على تعفن الجثة بدل إعادة بعثها... فحتى أفضل الأسلحة لن يعطيك احتمالاً راسخاً في إصابة الهدف بدقة تامة.. أئنّ بصوتي المبحوح:

- لم أفهم!..

كان يرمق سحتني التي تتقاطع تجعداتها في كافة الاتجاهات بعينيه الزرقاوين.

- الحقيقة؛ درجة بين الخيال والحيلة. أما الوجود فدرجة بين العدم والفقدان..

- إذاً ، فكلماتك لا حكم لها في هذه الحال ، تماماً كيميّن شبح يهذر بالهلوسات..

- الجزم ؛ حين يُحال دليلاً على المجهول ، يؤكد أمانيّ غير مأمولة..

- لكن جواب الأحجية لا يكون بأحجية أخرى ، أليس كذلك ؟

- الأمر بما فيه يا سيد روحي ، أننا ليس عندنا سوى أجوبة لم تثبت صحة

الحقيقة..

- إنها مجرد تخرصات عجوز بانس يزجي بها الوقت.. لقد غدونا خارج اللعبة ، لقد

تمّ تجريدنا من أهليتنا ، ولن تتمكن من إفساد اللعبة طالما بقيت تتقيد بقواعدها..

- ولكنك تتغاضى عن تفصيلة مهمة..

- وما هي ؟

- الدنيا ؛ قابعة في قلب الآخرة..

عدنا من جديد! وقد تمكن عوني واو من إثارة دهشتي مرة أخرى

- كنت أظن أن قدماً واحدة من كلتا القدمين في الحفرة!

يضيء وجهه كفنار في العتمة.

- الدنيا حديقة الآخرة ، فكما أنّ كادي كوي تقع داخل حدود إسطنبول ، هكذا

تحيط الآخرة بالدنيا وتحتويها. الدنيا امتداد للفضاء ، ونحن فضائيون بقدر ما نحن دنيويون

أيضاً.. الفرق بين الدنيا والآخرة ، تماماً كالفرق بين الكائنات والعالم.. لن أعطيك

الإحداثيات ، ولكن ما لا يرقى إليه الشك أنّ كل صفات الدنيا هي في الوقت ذاته آخروية

أيضاً "فالآن" وفي كل لحظة وبديمومة متواصلة ، خارج عن نطاق سيطرتنا ، ليغدو لحظة

من الماضي ويتبخر.. يحتجزنا الزمن في سيرورته ، فيما المستقبل في عداد المجهول دوماً.

وكل هذه الحركة الخيالية وهذا الغموض المتواتر يحيط بالموت وما يليه ويحجبه عنا..

بدأت الرعود تقصف الأفق ، وكأن القدرة الإلهية تذيّل ما يقوله عوني واو بتوقيعها ، أو أنّ ميكائيل يلتقط صورة لكلينا. سألته في همس مُتّدد:

- هذه محاولات منك لتسكين أزمتي الدنيوية بأسبرين آخروي.. ألسنت محقّقاً؟

يقوم عوني واو البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً ، بتغيير نبرة صوته مقلداً العجزة ممن هم في سنّي:

- لقد غصصت بالتفاحة التي تناولها سيدنا آدم ، كما كل الرجال. ربما سيجعلني اللحاق بننورة قصيرة أفضل حالاً.. لا أستطيع أن أخرج من ذهني تلك المرأة التي كانت أشبه بولود مكننزة نالت الجائزة الأولى بين منافساتها. في الحرب الدائرة بين الرجل والمرأة - باستثناء الحالات الفاسدة - مللت الظهور بمظهر من يحكّمه الضمير فينثني. الحياة ؛ كمنزل مصنوع من الجبن لا تستطيع أن تعلق على سقفه الثريا ، ودخول المائة دون رفقة امرأة شبيهة بالغطس دون وجود خزان الأوكسجين. أما بالنسبة للنساء ؛ فهي كائنات تشفق على نفسها ، ولكنها في الآن ذاته تحب التظاهر. والخلاصة أنّ الخجل من نهل المتع ، منافٍ للحضارة. أترهن أنّ ما من كريم جلدي يمكن أن يواجه تجاعيدي ، ولكن قبل الدخول إلى درج المشرحة من حقي أن أتسنّم الهواء العليل. أحاول الرد على الأقدار بمقابلة شعرية..

هذا غريب بالفعل ، من الجائز أنّ عوني واو وللمرة الأولى يسخر مني أو من أي شخص آخر. فأرد عليه باستهزاء:

- لقد نلت مني في لحظة سهو ، وأمسكت بي من نقطة ضعفي..

- سأكون مهتماً لك ما لم تنظر إليّ وكأنك تتوعدني قائلاً: سأقطع رأسك وأعلقه في غرفة أحفادك..

- وأنت بدل اتهامك لي بالتهاون ، أرجو أن تتمعن في حالي جيداً يا عزيزي واو ، فأنا أكثر شحوباً من الموتى.. اسمع ؛ أنا أحتضر بالفعل ، أفهمت ؟ وفي الحقيقة أنت صديقي

الوحيد ، ولا نية لدي في الزعل منك أو إثارة سخطك.. لا أعلم حقاً إن كان العالم قابع في قلب الآخر ، ولكن - وبشكل ما - لست سوى واحد من أهل الآخرة ، لذلك من الأفضل لك أن تدخل في لب الموضوع.

- الناس منقسمون إلى حزينين: أهل الجنة وأهل الجحيم.

- أشكرك لأنك لم تقل لي شيئاً كنت أجهله.

- وفيما نحن في هذا العالم فإننا نخطو نحو الجنة أو الجحيم. أترغب في الذهاب

إلى الجنة قبل أن تموت يا روجي؟

- أهااا؟ أنا رهن بنانك..

- الجنة تفيض بالأشجار والفراشات والورود. مشرقة نظيفة ورحبة. هناك الإكرام

والوفرة والثواب. الناس ممتنون ، يفيضون حيوية وسرورا وحبوراً. لن تتلقى أوامر من أحد ، وستكون معفىً من التسلط والأسر ونير الرضوخ. الفن والعلم والجمال هو السائد ، وستتكشف لك كل أسرار أبدية العشق والعتق. وكل ذلك يتجاوز حدود مماثلاتها الدنيوية.

- وبرأيك هل سيقبلون بي هناك؟

- أجل.

- الجحيم.. أكثر تعقيدا من الجنة ، يبدو لي كمنشأة تكنولوجية.. ما قولك؟

- أما أنا فأرى الجحيم ضيقاً كحجرة هاتف قديمة. تدخلها وترفع السماعة وتُدخل

العملة ، وفي تلك اللحظة تدب فيها الحرارة وتصلك أصوات الاستغاثة والصراخ في بث مباشر من "راديو صوت الجحيم". ورغم أنّ الفروقات بين التكنولوجيا والطبيعة ، الحي والميت ، من وجهة نظرنا محددة وواضحة ، لكنها ليست كذلك في حقيقة الأمر. فتكنولوجيا الجنة مبنية على أسس مفارقة لخصائص شخصية المُعذَّب الدنيوية..

- هههههه!

- في الجحيم يسود الظلام لسته أشهر، والنور لست دقائق. ويطغى عليه الحرمان والعذاب والفاقة، اليأس والعار والكدر. وطريق الحصول على العلم وتطبيقه مسدود. وهناك لن تسمع للفن صوتا، وستخضع بكلك للعقاب. والوظيفة الأساسية للزبانية هي تذكيرك طوال الوقت بأنك قابع في الجحيم..

- مربع..

- والخلاصة أنك إن أسست جنة في الدنيا، فستكون قد بنيت طريقاً أفقياً بين الموت والجنة. فالجنة الحقيقية هي الحياة، ما يعني الاستمتاع بالحياة الدنيا وسع طافتك. ازرع زرعك واسق طيرك، ورب ابنك، وتحل بالأمل والحب.. وحين يشعر الناس بقربك أنهم في منجاة من الذم والتقييم والنبد، بل على العكس من ذلك، هم مكرمون ممتنون يشعرون بالحرية وينالون الثواب والتبجيل، حينها ستكون قد ماثلت بين مكانك والجنة، وستكون معمارياً أو مهندساً، بناءً أو عاملاً ممن يعملون في الجنة. لكنك إن قتلت ولم تُحي، جوّعت ولم تطعم ولم تحمل خصوبة الحياة بين جنانك، إن شعر الناس بجوارك أنهم مخنوقون كما بدخان نيران الجحيم، معاقبون مذلون ومهانون، حزاني ومسلوبو الحرية، مذنبون يحيطهم العار والكدر، فهذا يعني أنك قد بنيت جحيمك الخاص، وبت من الزبانية. وبذلك ستكون قد مهدت الطريق لتتجه حال موتك من جحيمك الذي بنيته بيديك نحو جحيم الآخرة.

- حسناً، وماذا عن صلواتنا التي أقمنا، وصيامنا شهر رمضان وكل الذبائح التي ذبحناها.. ما فائدتها؟

- سيد روجي، كل هذه الواجبات تقودك نحو طريق بناء الجنة، فلو أديت فريضة الحج عشرات المرات، واستحقرت الناس، فستصيبك الدهشة بعيد موتك، وستغدو مجرد أحمق، يقوم الزبانية بتحويل فرائضه إلى قضيب محمى من الحديد يدخلونه في

- سامحك الله عوني ، ليتك أخبرتني بكل هذا في وقت مناسب..

- لا سابق أو لاحق لهذا الأمر يا صاحبي ، الأمر الوحيد أنّ تصنيف أهل الجنة وأهل الجحيم منوط بموازين القلب. فما سيقودك نحو الحزن أو الحبور في الآخرة ؛ هو مشاعر الآخرين اتجاهك ، دعواتهم لك أو عليك.

- إذأً ، فحتى في أنفسنا علينا أن نخوض حرب استقلال.. حقاً ، أنت لم تعاصر الحرب أليس كذلك ؟

- والدتي كانت حاملاً بي أثناء الحرب. وكنت في أحشائها أخوض الحرب وأنا بعدُ جنين.

- ها ها هااااي.. إذأً ، هذه المراوغة التي تنتابك أحياناً هي ليست من قبيل المصادفة ، فتلك المعمة قد توطدت مع أفكارك أيضاً.. آآآه ، لقد تكشفت كل خبايانا ، فلتكن عاقبتنا خيراً ياذن الله..

- أمين سيد روحي ، فليحفظ الله برحمته وشائج الوصل بين عاقبتنا ونوايانا.

إن منحت مشاعر أحدهم قيمة

مبالغاً فيها ، فسيغدو من المحال عليك فهمه

«لم أصادف أحداً قد بلغ المائة من العمر

واستطاع النجاح في عمل أهم من العيش طويلاً».

(بيل فيل ، 1879-1933 ، رطانة الساخر)

بعد بضعة أيام ، وعقب انتهاء صلاة الظهر ، وفيما كنا نجرجر أقدامنا متأبطين

ونحن نتكئ على عكازينا متجهين صوب باب حديقة الجامع ، سألت عوني واو:

- سيدي ؛ ما هي مهنتك ؟

- كما كل من في هذا الجامع ، فأنا متقاعد.

- ومن أي عمل تقاعدت ؟

- ومن أين خطر لك هذا السؤال ؟

- هل شوربة كنور ، شاي لبيتون وفنجانك النسكافيه كلها ساخنة كما يجب ؟

فقط أردت الاطمئنان ..

- كنت قاتلاً مأجوراً ..

- بالله عليك ؟ .. تعني أنك كنت ترتكب الجرائم ؟

- وهل باليد حيلة؟ ضرورات العيش. كنا نغامر لإخراج لقمة الخبز من فم الأسد..
- وكم عدد من قتلتهم؟
- خمس أو ست دزينات..
- ألم تكن تشعر بشيء فيما أنت تقوم بقتل أولئك الرجال؟
- عند استعمال كاتم الصوت ، كلا..
- طالما انتابني الفضول لمعرفة كيف يكون القتل المأجورون..
- لا يمكنك نهائياً شراء قاتل مأجور - يقولها وهو يستحضر في نفسي الضحكات الشريرة الظافرة التي كانت تُسمع على خلفية مشاهد حرب النجوم..
- على رسلك ، أتحاول السخرية مني؟
- أجل.
- سامحك الله يا رجل! أقسم بأنني صدقتك لوهلة. الحمد لله أنني لست الكاذب الوحيد في الجامع.. ولكن ما كانت مهنتك على وجه التحديد..
- أكتب الكتب. روايات بوليسية..
- أمر محير ، إذأ ، فقد كنت مؤلفاً؟
- لم يكن عملي تأليفاً حقيقياً عزيزي روجي ، أتعرف شخصية ميكي هامر في روايات ميكي سبيلان؟
- إيه؟
- كنت أقتبس المغامرات منه ، لا بدّ وأنك سمعت باسميهما ؛ المرحوم كمال

طاهر وعفيف يساري ، كنت أرسل بالتناوب أسبوعياً نسخاً لكل منهما..

- أحقاً ما تقول عوني واو؟ هذا يعني أنني كنت كل هذا الوقت أرافق مؤلفاً وكاتباً دون أن أعرف!!

- بالله عليك لا تبالغ يا رجل. لم نكن نفعل شيئاً سوى الاقتباس من ذلك البارع البائس. ولست الآن سوى متغضن بائس بدوري ، يربي الفئران في درج الجوارب ، يجرجر قدميه وهو يحصي ما بقي له من أيام ليس إلا..

- هل أنت من ألف أغنية (تحطيم الحطام)؟

- لا.

- ساعة الأجل؟

- للأسف لا..

- سأسبح عميقاً؟

- إنها مؤلفات تعود لكمال طاهر ، لترقد روحه في سلام ، كان أستاذاً عظيماً.. وقد أبدى اهتماماً بالغاً بإحدى قصص المغامرات المضطربة التي ألفتها بعنوان “روح الفريق لدى الزومبي”..

- لقد قرأت هذه الرواية على وقع بيتهوفن أثناء المناوبة المسائية في العمل.. كان ميكي هامر قد أخرج سلاحه وهو يخاطب الروح الشريرة.. ما كان يقول؟ ها! “إن لم تغادر مكتبي على الفور فسيكون آخر ما تراه هو الرصاصة التي ستخترق منتصف جبهتك”.. والمكتب الذي كان يتحدث عنه لم يكن سوى إحدى الحمامات العامة..

- لا أذكر ، فهماك مئات الكتب ، آلاف الصفحات وملايين الكلمات..

- كما ختمت رواية النفوس الميتة للكاتب الروسي غوغول. لقد ظلت الرواية غير مكتملة الأجزاء ولم تبلغ الختام ، حيث لم يسعف العمر المؤلف لإتمامها. ربما سأدوّن على شهادة قبري "فلنتحدّ أيتها النفوس الميتة".

- أتعني أنك تنوي مخاطبة الأرواح وتوجيه نداء إلى ساكني القبور؟

- لقد أخذتنا الفلسفة في شعابها ولم تتسنّ الفرصة للسؤال حول الحال والأحوال والعيال ، كيف هم الأولاد والعائلة؟ هل تستطيع أن تتفاهم مع أحفادك الذين باتوا أطول منك قامة؟

- لا تنكأ جراحي.. سألخص لك الوضع كالتالي: كنت سكيّراً ، خاضعاً لهذه الآفة المدمرة ، وما بين إغماضة عين وانتباهتها كانت زوجتي قد غادرت المنزل ، وتركتني روحاً مشردة ، ففرقت حتى قعر الزجاجة.. احتجت إلى عشرين عاماً كي أسترده وعيي الذي غادرني عندما غادرت. ولكن الوقت كان قد فاتني. فقد تبرأ مني أبنائي ، وحتى أحفادي الذين لم يكونوا يعرفونني في الأصل. وأملاً في النجاة من الهاوية التي رمانني الشيطان فيها ، مددت يدي صوب رحمة الله..

- من الواضح أنّ مساعيك قد أثمرت. يفيض منك نور ثلجي كحاج عاد للتو من الديار المقدسة. ما رأيك في كتابة أثر آخر تطبق شهرته الآفاق؟ فالروايات البوليسية هذه الأيام رائجة جداً..

- إن شرعت في الكتابة سأطلب الإذن من ذاتكم العليّة..

- العفو سيد عوني ، فمن أكون؟ الإذن لكم..

- لا لا ، فإن أسعفتني طاقتي فأنا سأقوم بكتابة رواية تتحدث عنك بالتحديد..

- يا سبحان الله! ولكنني لا أصل إلى ربع إمكانات ميكي هامر؟

- أنت يا سيد روحي ، أنت نشيط ككلب شرس تم ترويضه من قبل الشيطان نفسه. كوحش لا يأمن عابد الشيطان جانبه ليؤمنه على قطة. مجنون يكشر مبتسماً خلف الستارة الممزقة المدماة في الحانة التي اقتحمها أفراد الشرطة ، دكتاتور آكل لحوم البشر يقتحم الكوايبس ليهيمن على صاحبه..

- أي هراء هذا سيد عوني ؟ فضّ فوك يا رجل ، أي وحوش وأي دكتاتور؟

- على سبيل المجاز ليس إلا.. فأنت تمتلك قابلية تحويلك إلى أحد أبطال الروايات ، والقدرة على إذكاء نيران الحكاية..

- هيهات يا سيدي ، فأنا لست سوى عجوزٍ فانٍ يحب شرب البيبسي فاترة. وباتت الإمكانيات لا تلبّي الطموحات. انظر إلى وجهي فهو أقرب إلى سنّ منخور حتى العظم..

- إذا فأنت تحب البيبسي؟ سيفجرون أحشاءك كدمية قماشية وضعت بداخلها قنبلة ، ويسرقون آخر أنفاسك لبيعها ، وسيغدو المكان الذي يُلقى بجسدك فيه ، ميداناً للجرائم وسط هذا العالم. والمؤسف أنّ غرزات ذاكرتك قد تمزقت ، فنحن نلتقي عما لا يقل من نصف قرن لخمس مرات في هذا الجامع ، ولا زلت تحاول أن تتعرف عليّ مراراً وتكراراً. والمرأة التي تظهر في منزلك ، استطاعت إقناعك بأنها "خادمتك القديمة" ، وقد أخذت كلام جيفان - الذي كان يحوم حولك منذ وقت طويل - على محمل حسن النية ، ولكنك لا تعلم أي مكائد يمكن أن يقحم فيها رأسك الأجوف بيديه الداميتين.

- إيه.. فرغم كل سنوات عمري ، لم أتعلم من يجب عليّ مضاجعته.. فالحقائق لا تكشف عن لهيبها يا عزيزي.. ولست سوى بئس يخدعه الحمقى ، يستغفله المفلسون وينبذه حتى من لا أحد له..

- لقد جرحك كلامي أليس كذلك؟ وأزعجتك دون داعٍ. ولكن لا ضابط للساني أو رابط لأفكاري سيد روحي. في كل صباح أستيقظ مردداً: لِنر أي شخص سأكونه اليوم؟

- لا عليك سيدي ، لقد كبرنا ، كما أنّ..

- أجل؟

- إن منحت مشاعر أحدهم قيمة مبالغاً فيها ، فسيغدو من المحال عليك فهمه..

يتنحى عوني واو أمام باب الحديقة ليفسح لي الطريق:

- ترى هل علينا العودة؟ فصلاة العصر باتت وشيكة..

- ما رأيك أن أدعوك إلى كعكة؟ فالיום إن لم يخب ظني هو عيد ميلادي..

- أووووه! لم أكن أعلم أن لديك عيد ميلاد أيضاً!

ابتسمُ:

- أنّ ما يقارب السبعة عشر مليون إنسان يشاركونني هذا العيد..

- أحقا!

أتنهد بعمق.

- كيف مرت هذه الثلاث مليارات والمائة وثلاث وخمسون والستمائة ثانية

بسرعة..

- هل تمنيت أمنية؟

- بالطبع..

- وما هي؟

- الشمس؛ تمنيت أن تعود إلى موقعها الذي كانت عليه أيام شبابي..

كان كلانا كبطلين من رواية شرع أبله في كتابتها ، وقد تعدت نسبة ال. (IQ) لديهما المائتين..

- عزيزي عوني!

- تفضل مولاي!

- لقد قلت: امسح على رأس طفل يتيم ، حينها سترى الله مائلاً في عينيه. ساعد فقيراً ، وسترى الله مائلاً في عينيه ، أطعم قطعة واسقها ، وسترى الله في عينيه..

- أجل؟

- حسناً.. ولكن ماذا لو - لا سمح الله - توهمت نفسك مكان الله ، ولم تر في تلك العيون سوى صورة عبادك؟..

حتى المعجزات

يجب أن يكون لها حدود

«الحب ؛ هو محاولتك منح شيء لا

تملكه ، لشخص لم يطالبك به».

(جاك لاكان ، 1901-1981)

كانت زرقة عيني نازلي هلال تمتد متماوجة كأفق لا نهاية له.. كل ذلك الفيض من البريق أحال ما دونه إلى صحراء. وبدأت أشعر وكأنني في المشهد الأول لفيلم إيروتيكي. تدخن واقفة بالقرب من الصوبارو ، تمتص الشمس والرياح من حولها ، فتتضخم مع مرور الثواني وتغدو كتمثال هائل لآلهة مغرورة. أجمل مخلوق يمكن لكم أن تروه في البر والبحر والهواء ؛ مزيج من العظمة والكمال والاستثنائية. حتى المجانين والعميان والموتى يصفون لبعضهم مدى حسنها..

حين أنظر إليها أشعر - في الآن ذاته - أنني أوفر رجال الأرض حظاً وبؤساً ، وأدرك أن حياتي قدّر لها أن تنتهي قبل أن تبدأ ، وأفتقد السلوى تماماً ككاهن على فراش الموت. في مفترق الطرق بين الخسران والجرأة ، كنت على وشك تحطيم كافة قوانين الطبيعة والمجتمع..

أنا ونازلي هلال كلمات قصيدة واحدة ، ولكنني في القسم الذي احترقت صفحاتها..

في حضرتها تتلاشى آماليّ أماً تلو الآخر ، كما كان عازفو أوركسترا هايدن في سيمفونية (الوداع) يتركون المسرح العازف تلو الآخر.. لا رابط وحد ما بيننا حتى في رقة الوتر الوحيد المتبقي من كمان باغنيني الأعوج. لقد خلقنا كي لا نبلغ سوى حدود التماس المفرد. لا بدّ وأنّ قلبي سيسبقني إلى عتمة القبر..

يذكرني بريق رموشها بالتماعات حراشف أسماك الزينة ، وتحذوني رغبة في الاحتفاظ بها كفراشة على فراشي ، ولكنك لا تستطيع زرع باقة الأزهار التي تشتريها في قفار البوادي. يا إلهي! لما تنتعش روعي حين رؤية هذه المرأة ، كأكل لحوم التهم لتوّه مهرجاً؟..

- إن شئت فاجلس في الأمام سيدي.. - يحمل جيفان كازانوفاً حقيبة مزدانة بالمنمات ، وهو يفتح باب السيارة.

- أشعر بالدوار في المقدمة - أقول ذلك وأنا أندسّ في المقعد الخلفي.

تسحب نازلي هلال آخر نفس من سيجارتها ومن ثم ترمي بالعقب وتستقر إلى جواربي. تبدو لذيدة بقدر أول وجبة شواء تمّ طهوها بعد اكتشاف النار. إنّ أعظم الاضطرابات هي تلك التي تظهر على غفلة في الوقت اللامتوقع. ومقابل ذلك فالرجل الجالس إلى جوار ملكة جمال الكون ، ليس وحيداً بعد اليوم. كنت مفتونا بها حتى العظم ، وكأنّ حريقاً قد اندلع داخل الصوبارو. كنت بالغ التشنج ، حتى أنهم لو وضعوا قطعة فحم في مؤخرتي لحالت بعد أسبوع إلى ألماس. لم أقع في الحب قبلاً ، لقد حطم قلبي رقم التأخير القياسي ، كطائرة قامت بأول تحليق لها بعد أن أحالها الصدأ إلى مجرد خردة. ألن تقعوا في غرام من هي أصغر منكم بسبعين عاماً أيها القراء المحترمون. أنتم متأكدون ؟ لقد كنت متأكداً مثلكم قبل ثلاثين عاماً.. وفي كل مرة قلت فيها بأنني «لن أفعل ذلك مطلقاً» ، تتضافر الأقدار ليبدأ العد التنازلي لأفعل ما أنفثُ منه. ما العمل ؟ فلا يمكن أن تدير ظهرك للقدر. ومقابل طريق العقل الواضح ، فلا يمكن التكهن بطريق القلب إلا بعد السير فيه. فالأفكار يمكن لها أن تبقى ثابتة ، لكن المشاعر في تغير مستمر. لقد كنت أعيش السعادة

المؤقتة لفتران التجارب ، ذلك أنني لا أكاد أملك الوقت لتخيل الأوقات التي نستطيع فيها سوية أن نلحق قرني البوظة على الساحل. فلا يمكنك تحويل ملاحظة الموت إلى مزية. كان علي الموت منذ وقت طويل ، والاجتماع بري تشارلز. في الفترة التحضيرية من الحياة ، يطول العمر ، وفي اللحظة التي تقرر فيها بدأ العيش الفعلي ، يركلونك بعيداً عن الساحة..

تتجه بنا الصوبارو صوب المجهول ، لقد كنت أخشى على الدوام أن أكون مجرد مسافر على دروب الحياة. جيفان خلف المقود يجادل قوانين الفيزياء ، فيما ترتج السيارة وكأنها فرس تشهق ، أو أنّ العلة مني..

للنجاة من جاذبية نازلي هلال الساحقة كحكم بالموت غير قابل للطعن ، أوجه نظراتي صوب المدينة القديمة. الأبنية المغطاة بالملح تحرق عيني ، الطيور مغبرة ، والأشجار يابسة ، وهي تنتظر حلول المساء. فيما سائقو الشاحنات الذين يحبسون بولهم ، يهرون بنا مسرعين. وأفراد الشرطة كما في كل وقت يضربون بعضهم البعض. أما حسناوات البدلات الأنيقة من الموظفات ، فيعدن إلى منازلهن على ظهر المكانس مغادرات نوافذ القصور. القطط الميتة تبدو كالدانتيل الموشى وقد التصق بالأسفلت ، إنها انتهاكات عبدة الشيطان.. الحشد البائس يغذي أورامه الدماغية من خلال الإشعاعات النابعة من أجهزة الخلوي. الشمس كوجه شقراء زائفة أثقله المكياج وشوهته طعنة قاتلة ، تصبغ سطح الأمواج قبل أن تدفنها الأخيرة. هل قام ميكائيل بتوكيل عزرائيل لإدارة شؤون الحياة هنا ؟

- إلى أين نحن ذاهبون يا جيفان ؟ - أسأله ولكنه لا يسمع.

فيأتيني الرد من نازلي هلال:

- إلى المطار. الغد هو التاسع عشر من أيار ، وستنضم إلى الاحتفالات المقامة في

أقبرة.

حين يصلني صوتها الذي يداعب الأذن ويحيي الروح أفكر بأنه «حتى المعجزات يجب أن يكون لها حدود».. أهذي في حيرة لص سرق شيئاً لا يدري كنهه - ذلك أنّ القلب

حين يقطر دماً ، فالفم لن يقطر عسلاً - لقد تعرفت إلى امرأة في أنقرة قبل عامين.. يعني أعتقد أن ذلك حدث في أنقرة.. وأظنه كان قبل عامين.. أعتقد أنها كانت امرأة.. المرء في سني يصعب عليه تذكر كل شيء..

فيما نودع بعضنا في المطار تطبع نازلي هلال قبلة على وجنتي. فأنتهز الفرصة سراً كغنيمة ، وأنتشق عبير عنقها في رزانة. والأمر الذي يجب عليكم الانتباه إليه ؛ هو أنها لم تقبل يدي ، بل وجنتي. ليت القبلات كلها تتجمع. أعلم أنني أشيد أحلاماً تزيد عن إمكانات روبوت بالٍ مهمته سقاية الأزهار وإطعام العصافير. ولكن يا عزيزي القارئ ، الجسد عمره واضح ، إلا أنّ الروح لا يمكن التكهن بعمرها.

- لقد نجوت منذ خمس سنوات من حادثة طائرة عنتاب..

لا فكرة لدي مطلقاً حول المعنى المضمحل خلف هذه الجملة غير الكاملة التي رمت بها نازلي هلال في نبرة حيادية أشبه بالعفوية.. وكيف لي ذلك؟

- لقد ولدت في عنتاب يا سيدتي العزيزة نازلي ، ولكن مع الزمن تأكد بأنني لن أموت هناك..

لطالما خذلتني مشاعري وذاكرتي ، لذا فبقائي حياً كل هذا الوقت لأمر غريب. وفيما كان جيفان كازانوفاً يودعني همس في أذني:

- لقد تحدثت مع معصوم جيغي ، وسيتصل بك في أقرب فرصة ممكنة ، ليقوم بزيارتك.

هل طلبت من جيفان أن يدعو معصوم جيغي لزيارتي؟ يبدو أنني وفي عاصفتي العاطفية ، أهملت شؤون العقل..

لا يمكن للسمة

أن تصعد القارب وحدها

«إنها لنعمة عظيمة ألا يتمكن الإنسان من

رؤية المستقبل».

(جوليا زيه ؛ السقوط الحر)

أثناء طيرانك الاضطراري بعد أن ركلتك الأقدار بإحدى نوازلها ، ستلتقي بإبليس
وجهاً لوجه وهو يفتح لك ذراعيه. وإذا سرت على مسافة قريبة منه فستلاحظ أن ذنب
الشیطان يزداد التفافاً حول رقبتك.

أفكاري تذروها الريح وقدماي لا تلامسان الأرض خفة. بقيت طوال الرحلة ما بين
إسطنبول وأنقرة أتقياً ، حيث ما من مهرب أمامي من الاختناق في غبائي الفلكي. فقد كان
علي الانضمام لاحتفالات التاسع عشر من أيار - يوم إحياء أتاتورك لعيد الرياضة والشباب.
كانت الطائرة السلحفاة من البطء بحيث أنّ طائرة ورقية قد تمكنت من تجاوزنا. كما كانت
حاشدة برجال ذوي بدلات رسمية. كان البيروقراطي المتضخم الجالس إلى جوارني أشبه
ببطريق ضاق عليه جلده. فضلت النظر من النافذة المتسخة إلى الخارج ، بدل النظر إليه.
كانت صورتي التي يعكسها الزجاج على خلفية الغيوم السوداء أشبه بأحد الزبانية العاملين
في إعداد مراحل الجحيم. فحتى صورتي قد تجعدت كما عقلي..

بدأ الرجل الجالس إلى جانبي محاولة التحدث إليّ. كانت عيناه تتقدان كنييران عبر
ثقوب المدفأة. أخبرني بأنه يراني على الدوام على شاشات التلفاز ، وكوني المحارب الوحيد

من حروب الاستقلال الذي لا يزال على قيد الحياة أمر جدير بالاهتمام. وأن على رئيس الدولة القيام بزيارتي في كل فرصة ممكنة ، كما عليّ الانتقال للسكن في قضاء (جانكايا) جوار أنقرة. فمقابل الفوضى الفظيعة في إسطنبول ، يبدو نظام أنقرة وهودوؤها أمراً يستحق التجربة. كما أنّ أنقرة ليست رطبة مثل إسطنبول ، وهي تمتاز بروحها المعاصرة ، فالعاصمة مدينة الانضباط والأمان والراحة. وهي قلب الجمهورية ، مركز العالم ، ومبتدأ الكون.

بعد أن سمعت هذه الثثرة المسكوبة في أذني المغرقتين ، التفتُ إليه بجسدي المتكلس لأجيبه:

- أفضل الموت في إسطنبول على العيش في أنقرة..

كنت أفكر في بناء قفص من عظام معصوم جيحي لأضع فيه رأسه المقطوع ، ذلك أنها كانت آخر رغبات ذو الفقار أوغلو. ولكن مقابل ذلك كان من الواضح أنّ علاقة السيدة زبرجد بمعصوم جيحي قوية إلى درجة كبيرة. فالمسكينة كانت تضع الرجل الذي كان زوجها يرغب في دق مسامير نعشه ، في مرتبة فوق مرتبة أولادها. ولكن الأزواج عادة ما يختلفون على الكثير من الأمور. فالزيجات التي تعاني من تفاوت فكري ، ملحها هو الفلفل. ولكن بما أنهما قد انتقلا إلى دار البقاء ، ولأنّه لا يوجد قران هناك ، ما الذي سأفعله بالملح والفلفل وفوق أي الأطعمة أذروهما؟ هل سأقوم بنزع فرحة العروسين بإضافة جسد ثالث إلى مجلسهما؟ من أهم ما تعلمته في الحياة ؛ أنّ الناس يموتون في تسلسل خاطئ.

لفني حزن من اكتشف أنه ليس سوى آخر الحمقى ممن يطوّبون آخر حقبة من الاعتدال والانتظام والتواضع. وكأنني آخر فرد من سلالة منقرضة وضعت في حوض أسماك كل ما فيه زائف. وأغلب الظن أنّ ضميري يحاول أن يكذب عليّ..

تمنعي بلادتي المزمنة من إدراك جريان الأمور في الوقت المناسب. فالأمور التي تستغرق وقتاً مديداً من قبيل حفر بئر يابرة ، ونفق بملعقة الشاي ، هي امتياز لا يتوفر لدي. لذا لا يمكنني إضاعة المزيد من الوقت لتضافر ترددي وعجزي أمام حلّ مشكلة معصوم

جيحي ، وبناء عليه سأطلب من جيفان كازانوف أن يحدد لي لقاء مع معصوم جيحي. ومن ثم «دووووف» سأرسل النذل المهذب الذي يتملق السيدات العجائز لاختبار السير على الصراط المستقيم..

أقف في منتصف الطريق بين دماغ الرجل الذي أنوي تفجيريه ، وقلب السيدة الذي أحاول فتحه. وبعبارة أدق ؛ فأنا عالق بين الرجل الذي يتوجب علي إلغاء وجوده ، والمرأة التي لا يمكنني - بحالٍ - تجاهل وجودها من حولي.

أبدو كدودة تتمسك بإبرة وتخوض غمار المياه مقررة الصيد بدل حفر التراب..
أجل ، هذا ما أنا عليه بالضبط..

أكواخ الصفيح التي ناطحت السحب

في مطار إسنى بوغا؛ استقبلتني زمرة من الأطفال بوجوه مشرقة وكأنهم صورة تم اقتطاعها من إحدى المجلات، وقد رافقوني حتى فندق الشيراتون. تبدو الغرفة بسقفها العالي وبذخها الواضح وكأنها قد أُنثت من قبل مهووس بالتناسل.. من النافذة رحت أراقب أكواخ الصفيح التي ناطحت السحب، وهي تدفعك إلى التفكير بأن بشاعة المدينة قد أمعنت في جرائمها هنا..

مللت من سير أقداري، فتمددت على السرير. كنت طافحا بالموت حتى التخمة كروايات تشارلز ديكنز. دماغي كحفنة من غبار زحل قد أفرغت في طاسة جمجمتي، فيما بحر ذاكرتي قد ضربه الصقيع، وجفّ نهر ذكرياتي. كراكب دون تذكرة على متن قطار أسود يهدر متجهاً صوب ثقب أسود، نفيت إلى قفر حيث بلاد المهجورين. أشعر بنفسى كدابة مريضة خلت الحظيرة إلا منها، وعليها أن تتحمل سوء مزاج المزارع العجوز الذي يعيش وحيداً. فكل من يمكنه إعلان الحداد عليّ قد توفي، فيما لا أتخلف عن أي من احتفالات الاستقلال والنصر..

أشعلت التلفاز بواسطة جهاز التحكم. وبدأ التواتر (الزايينغ) [15](#):

«كل أوغلان برعاية كيلوغ [16](#).

زاب.

برنامج أخبار المجتمع: العدسات تلتقط صورة رجل الأعمال تيمور تومور وهو يقرأ رواية (كل تماس يترك أثراً) لإيمرا سربيس في النادي الليلي Noct-O.

زاب.

النشرة الإخبارية: البارحة أقدم شاب يطابق اللاعب البريطاني ديفيد بيكهام في الشبه ، على الانتحار من فوق جسر بوغازيجي ، ومن ثم تشبث بالجسر بيد واحدة وهو معلق فوق البحر ، وقد أحاطت به الكاميرات ، وفيما لفاعه الأحمر يرفرف مع الهواء ، أخذ يلقي خطبة نارية تطغى على نداءات الشرطة ، تحت أضواء الجسر الملونة التي توقد وتخبو على وجهه. ومن ثم أقدم على قفزة رائعة وثقتها الكاميرات لحظة بلحظة. وعلى لفاعه الأسود يظهر شعار الكوكا كولا. بينما تتصدر المشهد صورة الرجل مجهول الهوية إلى جوار صور بيكهام ، وبحسب قناعتي ، يصعب على والديتهما التمييز بينهما. أما بحسب ما نقل عن قائد خفر السواحل ، فقد تم العثور على اللفاع فيما البحث جار عن جثة الشاب. وقد أعرب ديفيد بيكهام الذي رُصد وهو يقوم بجولة في بيفرلي هيلز بالرولز رويس عن أسفه لوالدي شبيهه الذي أقدم على الانتحار من فوق الجسر في إسطنبول ، كما أوضح اللاعب الشهير الذي شاهد الفيديوهات المنتشرة على شبكة الإنترنت باسم “قفزة بيكهام نحو الموت” بأنه لا يستصوب إدراج اسمه في هذه الواقعة الأليمة.

زاب.

فيلم محلي: مجرمو العصابة قد ألقوا القبض على جونيت أركان بعد إصابته. يأمر رئيس العصابة الذي يرتدي قبعة بعد سحب نفس من سيجاره: اقطعوا أصابعه ورأسه وارموه بعيداً..

زاب.

إعلانات: “غزال فاتن” ، ترتدي البكيني الأزرق وتسير على وقع الموسيقى فوق رصيف الميناء ، وخلفها شابان. تقفز الفتاة إلى الماء ، ومن ثم يعلو وجهها مبتسما ، وتظهر أسنانها الناعمة. ويبتسم الشابان بدورهما ، وتظهر أسنان أحدهما ناصعة البياض فيما الآخر صفراء. صوت خارجي: “صاحب الأسنان السليمة - وهوب! يقفز قرش هائل فوق سطح الماء

ويبتلع الفتاة في لقمة واحدة ويختفي - يحصل على الفتاة”..

زاب.

برنامج حوارى: فتاة في نحو التاسعة أو العاشرة مع أوبوها ، ترد على أسئلة إحدى الفاتنات الشقراوات. فقد تم اختطاف الفتاة منذ عشرين يوماً ، الأب معماري شهير ، والوالدة عازفة بيانو في أوركسترا السيمفونية الوطنية في إسطنبول. وقد طلب الخاطفون حمولة عشر شاحنات من الألعاب من متجر (Toys'R'us) كما اشترطوا أن يتم تسليم الألعاب من قبل ثلاث مجموعات متماثلة يرتدي كل عشر رجال منها أزياء ميكي ماوس ، باغس باني ودونالد دك ، والعشرة الباقون يرتدون أزياء المهرجين ، أي ما مجموعه أربعون شخصاً. وقد انطلقت الشاحنات التي يقودها المهرجون وأبطال الرسوم المتحركة على الطريق ، بينما ترافق القافلة سراً سيارات مدنية بالتناوب وتصور العملية. أما الرجال الذين تنكروا في أزياء الفأر والبطة والأرنب والمهرجون العشرة كانوا جميعاً من أفراد الشرطة ، وبحسب التعليمات التي كان الخاطفون يبلغونها بواسطة الهواتف النقالة للقافلة ، فقد سارت حتى مدينة كارس ، وتوقفت أمام نصب العاشقين حيث تماثيل كل من: العاشق مراد جوبان وأغلو ، العاشق شرف تاشلي أوبا والعاشق شانليك. وقد استقبلهم آلاف من طلبة المدارس الابتدائية ، وكان سبب توجه الطلبة نحو النصب التذكاري هو المسابقة الشعرية التي تقام برعاية مدير التربية والتعليم في المحافظة. وحين دخلت الشاحنات التي تحمل شعار الـ (Toys'R'us) المدينة ، عمت الأطفال بهجة عارمة ، فيما خاف الكبار. أخيراً طلب الخاطفون توزيع الألعاب على أطفال كارس. أما الفتاة المخطوفة فقد وجدت بين طلبة المدارس الابتدائية وهي ترتدي زي المدرسة ، وعلى ظهرها الحقيبة ، كما أنّ شعرها كان ممشطاً ، بل وقد ألفت قصيدة من أجل المسابقة.

زاب.

هذا هو رجلي المنشود: الجد ب. ج البالغ من العمر مائة عام وعماماً واحداً ، من

مدينة إسكي شهير ، ينتحر بواسطة خنجر فيكتورنوكس .

زاب .

مسابقة ملكة الجمال: لم أصل حتى الآن إلى قرار حاسم حول من منهن تعجبني أكثر ؛ الشقراوات ، السمرارات أم الحنطيات . ولكنني أظنه تصنيفاً خاطئاً . الفتاة التي احتلت المرتبة الثالثة تصرّح : “أنني بداية إنسان ومن ثم مثيرة ..” أعتقدنا مخطئة في الترتيب . أمّا الثانية فتروي قصة : “أحيانا الضفدع هو مجرد ضفدع ، اليقطينة يقطينة والمصباح مصباح ..” ووو حان دور الملكة : “إنّ جسدي الضعيف سيواريه الثرى يوماً ما ، ولكن الجمهورية التركية ستبقى خالدة إلى الأبد .. فتاة مخلصه . إنها تذكرني بأحدهم ولكن من ؟ ..

زاب .

يتكلم أورهان كينجايا كعادته بجدية وثقة ورويداً رويداً : “في الحقيقة لم أوقف إقامة الحفلات .. وتشير الإحصاءات العلمية - ولتلاحظ أنها إحصائية علمية رسمية مخصصة لهذا الموضوع - أنّ هناك ثلاثمائة وسبعة وتسعون ألف شخص يستحمون الآن ، ومائة وسبعة وسبعون ألفاً منهم يغنون ، وثلاثة وستون ألفاً منهم وهم الأكثر نبوغاً يترنمون بواحدة من أغنياتي ؛ ما يعني أنني في الواقع أقدم على مسرحين مختلفين حفلتين في الآن ذاته ، وذلك بالرغم من هطول النظر ...” .. إنه محق بالفعل .

زاب .

تنفيذ حكم الإعدام بييريكييت روبيكون الذي كان يتصدر لائحة المطلوبين لدى ال .(Fbi) . فقد تمّ اتهام القبلة الشقراء بضلوعها في أعمال تفجيرات . توجهت بنظراتها إلى الكاميرات في غرفة تنفيذ الحكم ، وطبعت قبلة على كفها وضعتها على موضع قلبها في الصدر ، فانتابني القشعريرة ..

زاب .

قائد روحي كاريزماتيكي يبتهل بالدعاء: “يا إلهي! أعد إلينا أخوتنا في الدين ممن تمّ اختطافهم من قبل الفضائيين وأصبحوا ضحية لتجارة الأعضاء الكونية، أعدهم لنا سالمين غانمين..”.

آآآآمين!

لا تحرم عبادك ممن قام العملاء السريون بمحو ذكرايتهم ، وجعلوهم يقدمون على ارتكاب الآثام والمعاصي متحكمين بأذهانهم من خلال مختبراتهم القابعة تحت الأرض ، من رحمتك وعونك..

آآآآمين!

يارب النظام العالمي المتعدد الأكوان: أصلح حال النسخ المذبذبة من مريدي جماعتنا في الأكوان الموازية ، ممن أغرتهم وساوس الشيطان المغوية ، ولكنهم عادوا إلى طريق التوبة والصلاح ، واغفر لهم..

آآآآمين!

زاب.

امرأة أشبه بثعبان الماء: “يمكننا إعداد ثمانية أطباق مختلفة من دودة الأرض..”.

زاب.

برنامج إخباري: أحد سائقي سيارات الأجرة جالس أمام المذيعة الشقراء محلية الصنع ، وهو يزيد من فضول سكان المدينة قائلاً: “في تلك الليلة كنت أنزل من جادة بيوك ديرة نحو شارع بارباروس ، وفيما كنتُ أمرّ من أمام المقبرة ، خطر لي أن أخفض من صوت المذياع ، وإذا بهيكل عظمي ينتصب أمامي ، فارتطمت به نائراً أجزاءه على كل ما في الجوار من أشجار وحجارة. ضغطت على الفرامل ، وقبل أن تتسنى لي فرصة النزول

والتحقق مما جرى ، وإذا بقطيع من الهياكل العظمية يجتاز باب المقبرة.. أنا أخبرك بما رآته
عيناى هاتان.. لا أدري ما حصل وكيف حصل ذلك يا سيدتي ، ولكن أحدهم تمكن من
إيقاظ كل من فيها من موتى ، وكأنهم فى مسيرة احتجاجية.. ويشهد الله أننى لم أتمكن من
التعرف على المشاهير بينهم ، فما من أحد منهم قد احتفظ بقطعة جلد أو لحم - وكما
تعلمين - فمن الصعب التعرف إليهم من العظام فقط ، ولم أستطع أن أحدد أيهم كمال
صوناي أو توركان صايلان.. على أى حال صعد أحد الركاب إلى السيارة ، وطلب منى
الانطلاق فانطلقت وراء لقمة العيش..”.

من الأفضل أن أدون على شاهدة قبري “إنّ نومي بات أثقل من السابق”.

زاب.

القط سيلفستر يبتلع الكناري تويتي فى فلم الرسوم المتحركة.. الطائر المسكين ،
أصبح لقمة سائغة للقط..

زززززاب.. لقد أخذنى النوم..

حين تخطّ أقدارك

لا يمكنك الركون للجداول

«عامّة ، كل الأشخاص الذين امتلكوا القدرة

على تغيير العالم ، كانوا يفتقدون مهارة البقاء

على قيد الحياة».

(بالتاسار زاماكويس ، 1861-1817 ،

نظرات عصفور بعيني حسان)

قام رئيس الجمهورية بتقبيل يدي ، أجل ، خلال احتفالات التاسع عشر من أيار

في ملعب أنقرة وأمام أربعين ألف زوج من العيون ، وقد رددت هامساً:

- بارك الله فيك يا بني!

عزف مارش الاستقلال ، وقد كانت ظلال الغيوم الرقيقة تغطي الساحة المعشبة ،

بينما الآلاف من الناس المتحمسين يرددون الهتافات. في المربع المواجه مجموعة كبيرة

ترتدي الأبيض والأحمر ، مصطفىين على هيئة العلم التركي ، الذي كان يتماوج مع حركاتهم

المتناغمة. تخيلوا ميدان معركة بلا سلاح ، أو عرساً دون عروسين. كانت أرتال الطلبة

الرياضيين من الفرقة النحاسية والكشافة تمرّ ، بينما يلقي رجالات الدولة الخطابات

المكرورة. وقبل البدء بالمباريات الرياضية ، تمت دعوتي إلى المنبر ، وبدأت السير على

وقع التصفيق حتى المنصة فوق العشب الأخضر. كانت الرطوبة العالية كافية لخلق

الضفادع. كنت أكثر حيوية من زومبي يتعاطى المنشطات ، وقد وجهت عدسات الكاميرات نحوي. وكانت نصف دزينة من الميكروفونات تقوم بإيصال جملي المتكسرة المتلعثمة إلى مكبرات الصوت الضخمة:

- الرياضة.. جزء لا يتجزأ من حياتي أنا أيضاً.. فأنا آخذ حمامي واقفاً على يدي.. على المائدة أمارس تمارين المعدة.. وفي التواليت أرفع الأثقال.. وبفضل كل هذا أقف أمامكم كأني معدل على الفوتوشوب.. ولدي حاجبا ملاكم ، برائن لاعب سلة وأنف لاعب الغولف”..

كنت كغريب أستمع لصوتي باحترام. وكمارلون براندو أتكلم بتؤدة:

- نحن لم نشاهد الحرب على الـ CNN.. فلم نكن نملك شاشات فيليبس LC.. ولم نحارب من خلال أجهزة التحكم عن بعد.. وفي الخنادق وبعد توقف الانفجارات لم نكن نتناول أسماك (دارنيل تون) المعلبة ونتجرع لبن (سوتاش) المعلب ومن ثم نشعل مستمتعين سيجارة مالبورو.. لم أتمكن من ارتشاف قهوة ما بعد التعب (جاكوبس غولد) إلا بعد مرور سبعين سنة على نشوب الحرب. وما أراه أنكم على طرقات ألعاب القوى المرصوفة ، تتقدمون بأقصى سرعة بأحذية (الأديداس) ، فيما كنا نسطو على أحذية المطاط السوداء في أقدام الشهداء.. ذلك أنه ومع انطلاق وابل الرصاص لم يكن سيرك حافياً بالأمر السار على الإطلاق.. فلو اختفت فجأة لائحات البنوك ومحطات الوقود والوجبات السريعة ، ألن يشعر الواحد منكم بأنه واقف عارياً في الجليد.. إنَّ (البرغر كينغ) ، (شيل) وبنك (غارانتي)؛ هو المثلث الذي تعيشون محصورين داخله إلى الأبد.. ولأن التاريخ والحرب قد طبعت في كتبكم فقد باتت أشبه بموسيقى الماء لهاندل. يا له من رجل ، لقد كان ترباً لباخ ولكنه عاش أكثر منه بتسع سنوات ، كلاهما مات كفيفاً. ولكن الدجال جون تايلور¹⁷ قد ساق كلا الرجلين إلى حتفهما.. أقسم لكم أنّ حرب الاستقلال كانت أكثر العلامات الفارقة في حياتي ، حتى أنني أستطيع الربط بينهما وبين علكة (فيفيدانت) التي ترقد تحت لساني. في العام ألف وتسعمائة وتسعة عشر أصيب الجند بالزكام ، وكانوا يعطسون في تواتر

منتظم ، وإن عطس أحد الجنود أثناء المناوبة الليلية ، كان يصاب بطلقة قبل أن يتمكن زميله من أن يقول له «يرحمكم الله».. هكذا: هابووووش.. بووووم.. يرحمكم الله.. كان الأجل يحوم بالقرب مني ، فكم من قتيل قلت له: يرحمكم الله».. لم نكن ننام ، فالنوم في دعة إلى جوار جيش قد أقسم على القضاء عليكم جميعاً ، كان ترفاً خطيراً. النوم الذي هو أقرب الحالات إلى الموت ، يظل ساهراً في الحروب.. أنعلمون؟ أنا أيضاً راغب أن أتقلد مثلكم (السواتش) ، وبناء عليه سأذهب إلى المحكمة مطالباً بتصغير عمري. يتردد في داخلي صوت ، إنه صوت قائد فرقنا المرحوم أدهم يحيى بيك ، حيث كان يردد على الدوام ، بأنّ من تخطى عتبة السابعة والتسعين وليس عليه أن يضع (السواتش) في معصمه ، ذلك أنه واعتباراً من اللحظة التي توطر معصمك بتلك الساعة ، تصبح عضواً أصيلاً في المجتمع. فمعظم الناس يقدرّون الأشياء التي لم يحققوها ولم يحصلوا عليها ، ولم تمكنهم قدراتهم من بلوغها ، وهذا ما أنا عليه ، فحين أتمدّد في الفراش مساءً ، وفيما استغرق في النوم ، تبدأ أحداث حياتي تتوالى أمام ناظري كشريط دعائي. وفي الأيام التي لا أشرب فيها (الكوكا كولا) ، تناتبني ليلتها الكوايبس. جيشان يتقابلان وجها لوجه ، وفي اللحظة ذاتها يقوم كافة الجنود بالانتحار. إنها تفصيلة صغيرة في تشعبات الحرب المتداخلة. أنت لا تطلق النار على الآخر بل على نفسك.. لتحل فورة الانتحار محل ضواء القتل.. آلاف الجند قد صوبوا أسلحتهم نحو قلوبهم أو أصداعهم أو ووضعو الفوهات في أفواههم بيد ، ليسحبوا الزناد باليد الأخرى ، فتفور (الكوكا كولا) من كافة الأجساد ، لتطفو سابحة في المتاريس فوق الرغوة الباردة التي بلون الدم مغرقة ميدان المعركة وغامرة كل الخنادق.. ما أريد قوله لكم أيها الشبان المحترمون ، والمعلمون ، ولنفسى وحتى لرجال البيروقراطية الجالسين على مقاعد البروتوكول.. حين تبتلون بأفة الجهل وتحل عليكم لعنة الوحدة حتى تصل بكم التعاسة حدود التوحش.. ستجدون أكبر عزاء لكم في الشاشة الذكية لهواتفكم (الآيفون) ، القدرة التي تحتاجونها ، موجودة في مواقع الشراء على شبكة الإنترنت.. وصيتي للشابات ؛ لا بديل لكن عن (الجادور) ، أما نصيحتي للشبان ؛ تعقبوا أثر (الجادور)»..

إنه الربيع ، وقد تزامن مع المطر الذي غدا كليشيه روائية.. كانت بروق ميكائيل

وفلاشات كاميرات الصحفيين تتألى فى التوقء.. سحبت المسءس الأمىرى وءءورى فتحت
ثقبىن ءءىءىن فى العىوم التى بءء كءرابىل متءاخلة الأطر.. وفى تكشيرة تىس أمسكت
بالمىكرفون صارخاً:

- إنهم ببالعون فى الآثار ءانبىة للفىاؒر!!!!!!!!!!!!.

ولكننى لم أءءء ماهىة الصوت الذى ملأ سمعى لآحقاً ؛ أهو هزىم المءر أم صفىق
الأكف المبللة أم أصوات آخرى تصلنى من العىب.. كءثة أضاعت هىكلها العظمى كنت
أءرءل عن المنصة حىن ظهرت مروحية سوءاء يعسووىة كئىبة تحصء المءر بشفراتها ، وبءأ
ضءىء ما يعلو ، ففكرت «إنهم البابارازى الطائر»! ولكننى كنت مءطئاً. وءحققء إءءى
مفآآء الحىة الصءىرة الحلوة ، حىن بروز أربعة مسلحىن مقنعىن من المروحية مزوءىن
بأسلحة رشاش أوءوماىكىة وصوبوا نىرانهم نحوى. وءىءءة ضغط الطلقات التى استقرت فى
صءرى ارتفعء عن الأرض قبل أن أهوى. أصابتنى حىرة ءزىنة لأننى لن أءمكن من رؤىة
نازلى هلال مرة آخرى. ءخىرة عزرائىل لا ىمكن لها أن ءنضب ، وءربه لا ىمكن أن ءبلؒ
الخءام. فهو ىءىر اسمه وشكله وعنوانه لىطوف أرجاء الأرض ، وىبءو أن الفترة المءصصة لى
قء شارفت على النهاىة. والرصاصة التى كانت لقلبى - فى ءمة الأقدار - آخىراً وءءء طرىقها.
فءءء فى مءاولاً ءرءىء الشهاءة ، وءوءهء نحو المىكرفون الذى سقط عن الطاولة بالبءب
من رأسى:

- حىن ءخطّ أءءارك لا ىمكنك اسءءءام الءءاول ، ولكن ىمكنك اسءءءام
ال.(بى إم ءبلىو)..فلءءىّ ال.(بى إم ءبلىو).

غطسة سمكية نحو القبر

تسألني فيغان نيغاتيف ؛ وهي تضع الحبة الخضراء وكأس الماء على الطاولة:

- ماذا تشاهد سيد روحي؟

- التلفاز!

تعرض الشاشات ربما للمرة الألف مشاهد احتفالات التاسع عشر من أيار التي اختلط حابلها بالنابل. فكلما تفوهت بالهراء ، كانت المدرجات تتماوج كفستان المجنونة في كافة الاتجاهات. وبحسب ما تقوله فيغان فقد تمّ تلحين خطاي بتقنية التيكنو ريمكس ورفعته على اليوتيوب ، حتى غدت الأغنية من بين الأغنيات الأكثر سماعاً ، وتحولت إلى نغمة للهواتف الجواله. أما مشاهد إطلاق النار عليّ والتي تمّ تصويرها من على المدرجات بمئات الكاميرات ، بكاميرات مقرّبة وبعيدة ومن مختلف الزوايا ، بسرعة وبطاء ، فقد أدرجت على الإنترنت... وتبلغ أرقام المشاهدات الملايين ، فقد حطمت الرقم القياسي - والذي لا أدري أي شيء يكون؟ أتنقل من قناة إلى أخرى. يبدو أن طرف العربة الخلفي قد انجرف مع السيول ، وبدأ نهيق الحمار يبلغ عنان السماء..

تهبط المروحية التي تشبه تابوتاً يحمله يعسوب وتبدأ بنزح وابل الرصاص. تنتفض المدرجات واقفة ، وتنبجس الدموع من عيني رئيس الجمهورية. أسقط أرضاً بالتصوير البطيء. وبعد فريق الموت ، تسرع فرق الإنقاذ على الفور.. أتابع بدقة هذا المشهد الأخير من حرب الاستقلال. آخر قطرات الدماء المسفوحة في الحروب ، ولقطة الختام في الكفاح الوطني.. قمة العروض البدنية التي يمكن لمحارب في المائة من تقديمها. وتحت رعاية ال.(بي إم دبليو) أسلم الروح.

- ولكن ألا يجدر بي أن أكون راقداً في قبري الآن يا فيغان؟

تجيب خادمتي التي ترتدي نظارة الغطس حتى لا تدمع عيناها حين تفرم البصل:

- لقد منّ الله علينا بسلامتك يا سيد روحي.

- يبدو أنّ الحياة هي مرضي المزمّن.

أشعل سيجارة بعد ابتلاع الحبة ، فيما تصرّح نشرة الأخبار أنّ نجاتي من محاولة القتل لهي معجزة نادرة. أما ضيف الأستوديو الطبيب الجراح ، فيصرح بأنه حين شق صدري بالمبضع كان يتذكر أتاتورك ، فأشعر بالزهو. علماء الوراثة اليابانيون يريدون التواصل معي ، أما الرئيس الأمريكي باراك أوباما فقد أوضح في إحدى خطبه أنّ مقاومتي هي «مصدر إلهام» ، كما تمّ إطلاق اسمي على مهر حديث الولادة لفرس سباق بريطانية. وفي فرنسا قام أحد مطربي البوب المنحدر من أصول عربية بتأليف أغنية راقصة تقول: «روحي مجرد / ما هذا الصمود / علمنا كيف لنا / بلوغ الخلود».

كنت قد نمت لعدة سبع وأربعين ساعة فيما الكون يتقلقل.

الباب يطرق ، وبالطبع إنه جيفان كازانوف. كان يرمقني بحيرة وإعجاب كالسجين الذي أفضى به نفق الهروب إلى قفص الأسد. يهتف وهو يلوح بالمجلة التي في يده:

- لقد تصدرت صورتك غلاف التايم.

- هل ترغب في (الفيفيدانت)؟ - ودفعت علبة العلكة التي على الطاولة نحوه.

تغيرت تعابير وجهه على نحو مفاجئ ، كمصحح لغوي اكتشف على شاهدة قبره

خطأً إملائياً.

- ماذا؟ - كانت عينه الزرقاء تغمرها الدهشة فيما البنية تشع حنقاً.

- على رسلك أيها الشاب. هل أنت تائب عن مضغ العلكة؟ لا تنسَ أن مدي التزامك بتوبتك مقياس على كبر ذنوبك التي تبت عنها..

- عفواً.. أمهم.. ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

- ما الذي تعنيه؟

- اطلب مني شيئاً، أي شيء.

- وأنا - متمدداً على أريكة ال. (إيكيا) أمام تلفازي (السوني)، مرتدياً روب (بيير كاردين) ومنتعلاً خفيّ (تويجي) - ما الذي يمكنني أن أطلبه؟.. ها؟ ربما عصير اليوسفي من (شويبس) ومن ثم قد نلعب جولة مصارعة الذراعين..

انتابت جيفان قشعريرة كمصاص دماء شاهد صورته في المرآة، وكان يراوح متملهاً وكأنه سيتبول على نفسه من الذعر..

- حس.. حس.. حسناً.. يبدو أنك شفيت سريعاً بعد العملية...

- الحمد لله.. الأدوية تعمل جيداً..

- الأدوية؟

- كف عن الدوران حولي يا رجل، هلاً جلست؟

استقر إلى جوارى على الأريكة وسألني:

- هل أعطوك أدوية أيضاً بعد العملية؟ - كانت كلماته الأخيرة أقرب منها

للهمس..

- وماذا تظن؟ ألا تذكر حين أخذتني إلى هذا الطبيب الذي يشبه وجهه وجه الجراد ، قال لي حينها بأنني بعد بلوغي المائة أستطيع تناول الأدوية ، وهذا ما أفعله..

- ولكن وجهي هجيف لم يعطك وصفة طبية. ألا تذكر أننا هربنا من المشفى؟

- بالطبع لا أذكر ، ما الذي تظنه يا هذا؟ ذاكرتي جبل من الثلج ، وقد ذاب صيف العام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين. الدنيا في نظري جنة ملؤها العذاب. ألم تدرك ذلك حتى الآن؟.. إن دلني أحد على القبر ، لأسرعت إلى قاعه في غطسة سمكية..

كانت عيناه تمتصان ضوء الصالة كله ، فيما احمرت صلعته وكأنها قد خرجت للتو من الميكرويف.

- يبدو أنني لم أعتن بك كما يجب ، هل يمكنك أن تسامحني؟

- أيها الولد الطيب. لقد تحملت تبرمي في أيامي الأخيرة ، وتحملت سوء مزاجي ، وارتضيت مرافقة عجوز عنيد مثلي..

نهضت لأحضر وسام الشرف المعلق على بدلتني الحربية وعلقتها على بلوزة جيفان ، ووضعت يدي على كتفه:

- هذه الوسام أصبح لك من الآن فصاعداً.

فيما ترتفع أمواج زرقاء في إحدى عينيه ، كانت قمم الرمل تعلو في الأخرى..

- هل أنت جاد سيدي؟

- بالرغم من قيمتها المعنوية الكبيرة لدي ، فليس بإمكانني أخذها إلى العالم الآخر معي..

وبدل أن يقبل يدي هذه المرة ، قام باحتضاني ، فضممت جسده النحيل إلى

صدري بحرارة ، ولم أرخ ذراعي حتى شعرت بالوسام يضغط على صدري.

وبحركة مفاجأة منه ، أنهى المشهد:

- هناك أمر يتوجب عليّ حلّه ، وسأعود بعدها. - وحتى قبل أن ينهي جملته ،
كان قد اختفى عن الأنظار.

أقصى مرتبة يمكن للحمقى بلوغها

«إن تشويه الماضي يحرف المستقبل».

(أريغو جورجيو ، 1909-1999 ، علائم الغموض)

الصحافيون الذين أطارت الأخبار بصوابهم ، وضعوا منزلي تحت الحصار. فما إن يروني في الشارع ، حتى يبدأوا بتطويقي.

- سيد روجي ، ما هو سر العيش الطويل ؟

- كيف تعلل نجاتك من الموت في كل مرة ؟

- هل تمارس الحمية ؟

- ما هو متوسط الأعمار في عائلتك ؟

- هل ستواصل رحلاتك ؟

- هلا نظرت إلى الكاميرا أرجوك ؟ فقط للحظة ..

- كيف تنجح في البقاء شاباً ..؟

- أتناول جنين ماعز ، عرق القرد وقبعة كهربائية ..

توجهت نحو الجامع مترنحاً كشخص يغرز إبر الهيرويين في أطرافه الأربعة ، وقد طوقتني جماعة المصلين أيضاً محتفلين بتمزيقي الكفن ونجاتي من المغسل ومن رقود جثمانني فوق حجر المصلى **18**.

- الجثة الحلال عند ذكرها تبان.. - هتف عوني واو الذي وجد له رقيقاً آخر خلال فترة غيابي ؛ كوركوت أونلي. تصافحنا. كانت بشرته ولون الحائط الذي يستند عليه بذات الدرجة ، وأذناه أشبه بياي سيارة سباق. رجل أنيق سينمائي الطلعة ، كان ممثلاً سابقاً في حقبة أفلام “الزمن الأخضر”¹⁹ ، يقيم في الضفة الأوروبية²⁰ ، يعمل الآن بائع تحفيات ، وقد لعب دوراً في فيلم «طريق الفضاء» الذي شارك عوني في كتابة السيناريو له ، وبسبب إقائه لدوره في الفيلم ، لا يزال المقربون منه يلقبونه بالمستر سبوك.

وقد جال الحديث بين أروقة العالم الآخر حتى الفضاء ومجراته ليصل بنا إلى النساء. وبالطبع فكل ما يقوله فيلسوف الهيكل عوني واو ، سينال الإعجاب.

- إنّ النساء مالكات القلوب الحجرية ، والنظرات الفارغة والأثناء المنتصبة ، يفقدني الصواب. - انظروا إلى الرجل الذي توهمت أنه لو انضم لرفقة الصحابة فلن يعاني من التكيف مع ورعهم كيف يتهتك في الكلام؟ يتحرك فكه الأنبوبي وكأنه تخرج للتو من مدرسة الحشرات ، يجب عليك أن لا تركز لأي كائن يسير على وجه البسيطة..

- فقدت عملي ، عقلي وزوجتي.. - يقول مستر سبوك - ولم أملك الأيمان أصلاً ، وقد علق قلبي في الباب الدوّار لمر ضيق وبات مقيداً هناك.. - كان يداعب لحيته وهو يتحدث - ومن ثم وبفضل من جناب الحق ، عثرت على امرأة حياتي..

مع تنهيدة تفكّر عميقة أعلق:

- أنتم لا تزالون شباباً ، أما أنا فلا أملك أسفاً سوى إضفاء بعض الهيجان على الماضي ، لأخدع به نفسي المضطربة..

يصرح عوني واو باعتراف صادم:

- أنا - وأستميحك عذراً - قد بنيت حرملكاً افتراضياً كاملاً..

نهتف أنا ومستر سبوك في الآن ذاته:

- ماذااااا؟

- قصص حبكم الفروسية لا تجدي نفعاً معي يا سادة. لذا فأنا أجري بحثاً عاطفياً على الإنترنت، فبعد صلاة العشاء أتراسل مع المقبلات الجامايكية المقرمشة، والطوكيوهيات الطازجات.. وبالطبع بالكذبة التي تستمد دعمها من عدم الافتراضي تكتسي المشروعية لتستمر. وفي هذه الأيام فإن الحظ يسير معي من حسن للأحسن.. وما إن أصرح بأنني “صديق روحي مجرد الذي صافح عزرائيل” حتى تجري الرياح بما أشتهي، وتسير أشرعتي وفق ما أريد..

سألت مستفهماً:

- استناداً إلى بيانك هذا؛ أيمكننا القول بأنك تستخدمني - أنا العبد الفقير - كقوادٍ سلوقي في صيدك يا سيد عوني؟

دبّ الحياء في المستر سبوك، ليستنكر:

- التوبة، أستغفر الله..

فاستسلم عوني واو للعزف مجدداً:

- سيد روحي، إن سمحت لي أودّ أن أقدم توضيحاً؛ أنا بالتأكيد لا أستطيع نكران جاذبية الجنس اللطيف الساحرة، وما اعتراضي سوى على الحب الذي ليس إلا كذبة تمت إحاطتها بعهود كاذبة..

احتد المستر سبوك:

- دستور! لقد وقع نبينا أيضاً في الحب يا سيد عوني. والعشق موروث عن سيدنا، فقد سألته السيدة عائشة (ر): كيف حبك لي؟ فقال (ص): مثل العقدة في الحبل، وبعد مدة من الزمن عادت لتسأله: كيف حال العقدة؟ ليجيبها الرسول الكريم: على حالها..

ويتوجب عليك دوننا جميعاً أن تكون مطلعاً على هذه الحقيقة..

ولأنني كنت أتلقى على جِمار حسرتي لنازلي هلال ، فقد وجدت نفسي في موقف
الوفاق مع ضيفنا الفضائي الذي يرتدي ربطة عنق ، وفي خلاف مع عريضة عوني:

- المستر سبوك محق ، ما كنت لأحسبك من هذا النوع يا سيد عوني ، لقد
تكشفت عن زير نساء وفاسق محنك ودون جوان متخصص يا رجل!..

استقر غراب على المصلّى فيما زمّ عوني شفّتيه قبيل الحديث:

- أشفق على كليكما ، فليصلح الله حالكما ، تضعان نفسيكما في ذات مرتبة نبينا
الذي إليه تعزى نشأة الكون ، وتريدون نبذي من ساحة الشفاعة ، أليس كذلك؟ وتخالون
في قناعة حمقاء أن لا فرق بين مدى سمو مشاعره وخرافتكم؟ أهنتكم. فلتسمعوا ما
سأقوله ، إذأ ، أيتها الدواب التي تروم الرعي في رياض الجنة: كل السذج الذين تعصف
برؤوسهم رياح التشدد ، قد وضعوا نصب أعينهم قرصنة كل ما هو مقدّس ، وهم يتشبثون
بالدين بأطرافهم الأربع. لقد أضلهم بريق الجهالة والتعصب والأحقاد ، والحقيقة العارية هي
أنهم لا يقيمون للفكر وزناً ، ولا يقنعهم عمل. فالقسوة يا سادة كما أنها عميت الذنوب فقد
أثقلت في العقاب أيضاً.. وهؤلاء المتعصبون يظنون أنّ بإمكانهم كسر أبواب الجنة ركلاً
ودخولها.. ولكن كل ما في هذه الدنيا ، وأقول كل ما فيها حتى الحب زائل. والرجل إن قصر
علاقته مع النساء على محور الحب فقط ، فسيغدو مجرد فاسق.. أمّا وصدقنا بأنّ
الرومانسية هي أعلى مرتبة يمكن للأحمق بلوغها. ومقابل ذلك فالشهوة أكثر وضوحاً
وفاعلية ، فالمنطقية في الحب نادرة ، أما فضيلة ممارسة الجنس بصورة آية ، ففي معظم
الأحيان ينظر إليها باعتبارها ذنباً ، ما الحب في حقيقته إلا غباء تغلفه المشاعر ، لذا فالذنب
هنا أجدر بالاحترام من الغباء بكل تأكيد..

- ولكن أليس الذنب حصيلة الغباء ، وأليست أكبر الذنوب نتيجة غباء البشر؟ -

أسأله.

- كيف يدّعي المرء محبته لله ، إن كان عاجزاً عن محبة نفسه ؟ المسألة برمتها باطلة. وأما الحياة فتكمن في قدرتنا على اجتراح الذنوب..

كان لكلماته وقع كئيب في نفسي ، فالطاقة التي تثبت بقائي على قيد الحياة ليست في حوزتي ، لقد عدت من الموت ، ولكن ، على كل حال ، فأنا لم أعد إلى الحياة بعد. يطرح مستر سبوك ما كان يجول في خاطري:

- يعني ؟

- يعني أنّ الذنوب ليست الوحيدة بالطبع التي تجسد قيمة الحياة ومبتغاها - يوضح عوني واو.

يطوق المستر سبوك بأسئلته ، عوني واو الذي يراوح بين حدود الحكمة والدجل:

- إذأ ، فلتخبرني ! هل الأحاسيس تريقها الملذات ؟

- إنّ المتخرجين من المدرسة الأبيقورية ، يرفعونها إلى مرتبة الأخلاق. - لم تكن نيران ذخيرة عوني تتوقف ، فهو يمتلك ذاكرة فيل ، حقد جمل ، دهاء الثعلب ، عناد التيوس ، شهوانية القرد وخيلاء الطاووس مجتمعة.

كنا قد انحرفنا عن الموضوع ، ولكن ما إن تجاوز قطار الحديث الانعطافة حتى أعدته إلى سكتته الأولى ، مرتدأً إلى الحديث السابق:

- إذأ ، فالوقوع في الحب ليس من العقل في شيء ، ولا يجب أن يكون كذلك ؟

- أي مسلمين أنتم يا هذا ؟ إنكم لا تجيدون حتى ارتكاب ذنب يعوّل عليه!

- ما الذي ترومه يا عوني ؟ هل بتّ داعية للمنكر والمعاصي ؟ - أثبت المستر سبوك جدارته في الحوار.

- أنتم يا معشر المتدينين ، لا أريد منحكم فرصة التلذذ باحتقار الآخرين والتلويح بعقاب الآخرة مهددين بلائحة الذنوب ، ولكن..

- ولكن ماذا؟ - زمجرتُ محتدأً..

- أصدقائي الأعزاء! المذنبون متسامحون ومترحرون ، ذلك أنهم لا يعانون من قيود تحولُ دون تعاطفهم مع الجميع. الندم لحظة تنوير ، أمّا التوبة فهي إحدى طرق العلاج النفسي والتعرف على الذات ، وما الحمد سوى تطوير ملاحظة الإنسان في سبيل الكشف عن المزيد من الجمال. كما أنّ الآلام تخفّت حدثها مع مرور الأيام ويبرأ المرء منها حين تضع الحدود بين الذكريات المرة والحلوة خلف غلالات الزمن. فالشخص الذي يتقن الحمد يبلغ السلام مع نفسه ، وتتاح أمامه السبل نحو الرقي. الدعاء يجب المواظبة عليه في تركيز عميق وتنظيم حاذق. فهل تلك الابتهالات الشبيهة بتضرعات بغل بليد يطلب من والديه لعبة - حتى وإن كانت نابعة من القلب - يمكن أن تسمى دعاءً؟ إنّ كل حرف يتلفظ به العبد طالباً العون الإلهي في مسار بناء شخصيته قد يغير العالم برمته. وبذلك فالطلبات الأنانية هي مجرد تطفل على الذات الإلهية. خلاصة القول إنّ الدعاء إثبات علمي وتعبير شعري عن الرابط بين وجودنا وبين الكون والذات الإلهية. وبالطبع تتقاطع طرق كل من الدعاء والتوبة والحمد. فنعمة التوبة عن الضلال الذي يتم ارتكابه تستحق الحمد ، ويمكن الدعاء من أجل زيادة نعمة التوبة. وأما الذكر ، فهو سبيل التذكير ، وهدايةً الذاكر نحو الشعور الفضيل ، والتصرف القويم ، دون الانغماس في الذنوب والغفلة ، وبمنجى من الاضطراب ، المعاصي ، الجحود ، التردد ، الشهوات ، النسيان ، الكسل ، الثرثرة ، النفاق ، الطمع ، الفضائح ، الدناءة والخوف.. أمّا فكيف لنا الاهتداء إلى سبيل الله؟.. فلا أدري إن كانت كلماتي في النهاية ستفضي بكم إلى ضرورة الأخذ بمشورة الشيطان الذي يقيم في مسكن الدوبليكس الفاخر الكائن بين صدوركم ورؤوسكم ، أم لا؟

تبادلنا أنا والمستر سبوك نظرات تفاهم مدركين أننا لا نملك الذكاء الذي يسرّع من الجنون ، والعلم الذي يضيف هالة من العظمة على لؤثة عوني واو. كما كان من المحال

لنا المطالبة بجرأة العصيان ، وفرادة الاستثنائية وسمو الغرابة. فالبراءة الناقصة ، والثواب المبتور والتزام أداء الفروض قد سحل أرواحنا تحت التعاسة ، فيما ضيق الأفق يضغط على صدورنا ويحيل النفس لهائاً..

ربما يجدر أن أدون على شاهدة قبري:

«هذا الحجر يعود إلى قبر آخر ، ولكن ما باليد حيلة!».

ومع حلول المساء ، كذئاب جائعة أحاطت بالجامع في صمت ما قبيل العاصفة ، كنظرات الزومبي الخاوية وهي تتابع فيلماً للزومبي ، كانت تتجول نظراتنا.

- إلهيه مستر سبوك؟ هل استطعت الاجتماع بامرأة حياتك؟ - سألته..

- بفضل وزير الشؤون العاطفية.

- ألم يتم إبطال تلك الوزارة؟

- أجل ، بالطبع... فقد تم قتل كافة أعضاء الهيئة التي تعتنني بالعاشقين وتقرّ شؤون القلب وشجونه.. - وأخرج من جيب جاكيتيه بطاقة ليريني إياها معقّباً - ولكن بطاقات الحب لا زالت متداولة.

فعلّق عوني واو الذي بدا أقرب إلى سلحفاة معمرة راودتها الكوايس طيلة سباتها الشتوي ، لتستيقظ متعكرة المزاج:

- يا للأمر المثير! قلوب مترابطة بعقد رسمي ، الإكليل الزاهي ، وألبوم الصور القابع في الأرشيف مجسداً السعادة العائلية الأبدية..

- أتمنى لكما السعادة - علق في محاولة ترقيع لفظاظة عوني واو..

ومع صوت الأذان الذي غمرنا ، تهلل وجهه وانفتح سروراً كمحفظة الكريم في

المآذب ، والأب السخي في الأعياد..

الجندي الذي يَأْتَمِر

بأمر شيطانه الداخلي

الرجل الذي يتوجب عليك شدّ عزمه لارتكاب

جريمة ، لم يبلغ مصاف الرجال بعد.

(كول آغاسي منتقم بيك ، 1877-1920)

كحريش انثُرِعَتْ اثنتان وثلاثون من أقدامها ، كنت أسير عَرَجاً نحو البيت ،
وطوال الطريق وأنا غارق في ذكرياتي ، أستمع من المذياع الذي باتت بطاريته ضعيفة إلى
السيمفونية الخيالية التي ألفها هيكتور بيرليوز (1803-1869) وهو في السابعة والعشرين
من العمر. كان ليونارد بيرنشتاين (1918-1990) قائد الأوركسترا الوطنية الفرنسية ، ذلك
المحترم الذي قال يوماً: «عاشق الموسيقى الحقيقي حين يسمع فتاة تغني في الحمام ، يضع
على ثقب المفتاح لا عينه ، بل أذنه».

استقبلتني فيغان نيغاتيف على عتبة الباب لتقول بصوت خفيض:

- لدينا ضيف.

بدا الرجل الأصلع بالغ الأناقة الجالس في الصالة مألوفاً لي ، وقد اختار بدل
الجلوس عاطلاً في انتظاري ، أن يحتسي قهوته وهو يلون لحيتي وشاربي في الصورة التي
تصدرت غلاف جريدة التايم بقلم الحبر الأسود..

- أهلاً بك سيدي - خاطبته.

ارتعش... ومن فوره وضع القلم في جيب جاكيتته الداخلي وهو ينهض ، وقد أحاطت بقعة زرقاء بإحدى عينيه ، فيما تبدو قطب جراحية على حاجبه. كان جسده من الضخامة بحيث يبدو كافياً لملاء بطون قبيلة جائعة من أكلة لحوم البشر حتى التخمة. قبّل يدي دون أن تلامسها شفتاه.

- شكراً سيد روحي. أرجو أن تسامحني ، فقد كان عليّ الاتصال قبل المجيء.

فيما أتوجه للجلوس على الأريكة المنفردة كنت أراقب ضيفي الغامض.

- من البيت الأبيض أم قصر جانكايا؟

- لا ، فقد طلبت اللقاء بي ، هذا ما أخبرني به السيد جيفان. أنا معصوم جيغي.

فتحت فمي دهشة فيما سقط العكاز من يدي ، كيف نسيت ؟ فقد انمحت القائمة السوداء من ذاكراتي بعد العملية التي جعلتني أرقد في المشفى لثمانية أيام ، على إثر إطلاق النار عليّ في الملعب. لقد التقيت بهذا الرجل مصادفة يوم وفاة السيدة زبرجد ، وتلاقت نظراتنا حينها. يبدو أنه لا يتذكرني. على أي حال فالمخلوق الذي أنوي سحقه قد جاء إليّ بقدميه. لو أنّ الحظ الذي توفر لي ، قد أتيح حينها للقبطان أهاب ، لوجد مويي ديك الذي خرج باحثاً عنه في البحار ، راقداً في ثلاجة منزله بالذات.

- حقاً؟ يا له من أمر رائع ، لقد تشرفت يا بني. - وأحنيت رأسي محيياً..

كانت الأضحية التي تم إنتاجها في مصنع الجلود في مزاج حسن.

- الشرف عائد لي سيدي. وبالمناسبة أريد أن أهنئك بالسلامة وأتمنى لك

العافية ، العالم كله يتحدث عنك..

- شكراً لك..

بدأت مشاهد الجريمة التي سأقترفها بعد قليل تتابع في مخيلتي: سأرسل فيغان

إلى منزلها. لا عليها البقاء لتقاسمني التهمة.. ولكن ماذا إن حاولت منعي؟ لا أظن، فأنا مقتنع بأنها ستستمتع بالدماء التي ستراق على يديها.. سأطلب الإذن من معصوم، متجهاً نحو غرفة النوم لأحمل بندقيتي الذهبية وأعود بها إلى الصالة، لأذيل جسد ضيفي الأنيق بزخعة من الرصاص بدل التوقيع..

ثم؟ ترى هل يتوجب عليّ إطلاق النار على نفسي أيضاً؟ لكنني نجوت من محاولة قتل في الملعب منذ وقت قصير. ما القصة؟ هل لدي مناعة ضد الأسلحة النارية؟ حسناً سأفكر في هذه التفصيلة حين إتمام المهمة الجنائية على خير ما يرام. ولكن عليّ التعرف على هدفي الحي بعض الشيء، من يكون ومن أين ينحدر؟ وأيضاً القيام بواجب الضيافة وسؤاله عن الحال والأحوال، وإكرامه كما يليق.. ومن ثم أطلي سقف منزلي برشقات دماؤه..

- لقد أردت التعرف إليك، لأنّ صديقاً عزيزاً قد حدثني عنك بكل خير..

- إنه لأمر يشرفني، ومن يكون هذا الصديق؟

آآآه! كنت على وشك إيقاظ الأفعى الراقدة. إن حدثته عن ذو الفقار ظريف أوغلو فقد ينتابه الشك، أو ربما يحدس ما أضمر. من الأفضل تصنع البلاهة.. لذا بعد التمهّل لبرهة:

- العصافير..- رددت في بلاهة، حين أنقذني جرس الباب. وفيما أحاول النهوض من مكاني كانت فيغان قد فتحت الباب. لينضم عوني واو والمستر سبوك إلى هذه الحفلة. وإزاء الرجل الأنيق بجسده الرياضي الفتى، كنا نبدو نحن الثلاثة كمستحاثات قذفتها إحدى كتب التاريخ بمنجنيق عتيق.

قدمت معصوم جيحي لأعز أصدقائي:

- هذا السيد هو عوني واو، وهو مختل عقلي قدير..

أما المستر سبوك الذي لم أتمكن من تذكر اسمه الحقيقي فقد أوضح:

- وأنا كوركوت أونلي - لينقذني من موقف محرج.

- معصوم جيغي.

تصافح الثلاثة ، وبدأت فيغان بتقديم الشاي ، فيما عوني يوضح سبب زيارته على

عجل:

- في الحقيقة إن حديثي في الجامع عن الحرمك الافتراضي ، وما قلته عن

الذنوب المعتدلة والانقياد للشهوات ، كان صحيحاً ، ولكن ما كان عليّ التحدث إليك بهذه الأمور.. وما الذي قلته أيضاً؟..“الانقياد لصوت الشيطان الذي داخلكم”؟.. أستميحك عذراً سيد روجي ، فقد كنت صائماً اليوم ، ويبدو أنني خرجت عن نطاق السيطرة تماماً..

رقّ قلبي لكلماته على الفور ، ربما سأدون على شاهدة قبري: «لو كنت امرأة لنمت

مع عوني واو»..

- العفو فأنت تأسرني بلطفك - والتفتُّ نحو معصوم جيغي -: عوني واو كاتب ،

ولديه مجلدات كاملة من الروايات - متمماً بذلك النقصان في تقديمي له منذ برهة.

ابتسم معصوم جيغي في تقدير:

- همممم! رائع ، ولكنني للأسف لن أدعي أنني فرأت كتبك..

فعلق عوني واو في تواضع:

- كنت أكتب القصص الخيالية ، دون أن أذيلها باسمي. روايات بوليسية مبتذلة

تماثل سلسلة ميكي هامر..

- يا للمصادفة! كنت معجباً بذلك المحقق الجسور. وكانت رواياته من الكتب

المفضلة لدي في مكتبة والدي. فقصة “روح الفريق لدى الزومبي” كانت مغامرة رائعة.

- أنا من كتبها - كاد عوني واو يطير فرحاً - أحقاً أعجبتك؟

- بالطبع. كانت روايتي المفضلة ، وأعدت قراءتها مراراً ، إنه لشرف عظيم لي التعرف عليك سيدي. وإن لم تمنع فأنا أريد أن أعيد مصافحة يد كاتب عظيم مثلك مرة أخرى - وفي حركة عفوية منه ، قبل اليد التي صافحها ورفعها إلى جبينه.

كاد السرور يطيح بعوني واو وهو يصرّح:

- إنها المرة الأولى التي أقابل فيها من أعجبت كتاباتي منذ خمسة وخمسين

عاماً..

حاولت تغيير الموضوع:

- كما أنّ السيد كوركوت كان ممثلاً ، وقد لعب دوراً في أحد أفلام الخيال العلمي.

- ألسنت أنت المستر سبوك؟ - سأله ضيفي الأصلع.

- لقد أصبت الهدف تماماً - سرّ المستر سبوك من تذكره.

فدبّ المزيد من الحماس في ضيفي ذي الصلعة الرخامية:

- كان دورك رائعاً في فيلم (لعنات المريخيين ورائد الفضاء نيازي) وأداؤك

أفضل بما لا يقاس حتى بأداء ليونارد نيومي..

- لا يا رجل ، إنك تبالغ..

- كنت أود مشاهدة أداء حي لك على خشبة المسرح. فقد شاهدت أعمالك على

أقراص (DVD) ، في (بيجماليون) لعبت دور هيغينس ، والبيك في (العروس) ، غوس في (لعبة المدّ والجز) ، وفيليب هوتز في (الغضب الهائل)..

- يا إلهي! كيف لك أن تعرفني إلى هذا الحدّ؟

- وفي (هاملت) لعبت دور هوراشيو..

- صحيح!..

- لقد كان من دواعي أسفي على الدوام ، توقفك عن العمل في المسرح. أعتقد أنك يجب أن تعود إلى العمل مجدداً..

- أحقاً هذا ما تعتقده؟ - وقد عصفت بالمستر سبوك أعاصير من العواطف الهادرة ، وهو يقفز من فوق شلالات الشراب..

- بالطبع. فأنت أكثر شباباً من أنطوني هوبكنز.

تدخل عوني واو في الحديث:

- إنك محق ، ولكن المؤسف أنّ الإنسان لا يدرك قيمة الوقت إلا بعد أن يكون القدر قد ذهب بجلّ العمر..

لكن آلة المديح أحاطت هذه المرة بكاتبنا المختل:

- سيد عوني! هل أنت من كتب (متعة التذوق لدى آكلي البشر)؟

- أجل!

- (لا تترك تابوتك)؟

- أجل!

وكأنه كان يتلو قصيدة لّقنه إياها الشيطان:

- (زمام السفية)؟

- أجل؟

كانت أهدافه لا تخطئ..

- (بالعافية يا ميكى) و(الإصابة المحققة)؟

- أجل!

- (مجموعة الرؤوس الصلحاء)؟

- أجل!

باتت هذه النشوة الملتوية الصلفة لهؤلاء السفهاء تثير أعصابي ، فلم يكن لدي الوقت الكافي لتأجيل الجريمة ، ولن أنتظر الشروط الملائمة أكثر من ذلك. لذا نهضت متجهاً نحو غرفة النوم ، فيما القارئ يشحن الكاتب. أخرجت البندقية من علبة الكمان ، ووضعت رصاصة في المخزن ، وحين عودتي إلى الصالة كانت فيغان قد انتهت من ضيافة الشاي وانسحبت ، أما البقية فقد كانوا يحدقون إلى بعضهم بنهم كمدمني الجنس الذين يخضعون إلى جلسة علاج جماعية. كانت صلعة معصوم جيغي تخطف الأبصار ، وتستحضر موسيقي الخمسينات من القرن المنصرم ، فيما يخوضون ثرثرة موسيقية. وجهت البندقية نحو الهدف مباشرة ، ورغم أنه لم تكن تفصلنا سوى ثلاثة أمتار أو أقل ، لم ينتبه معصوم جيغي إلى وجودي. اعتراه تشنج وتغصنَ وجهه ومع موجة العطاس التي انتابته سحبت الزناد.

- هابتشووووو!

عوني واو والمستر سبوك معاً:

- يرحمكم الله..

- دووووووف!..

ومع قوة الطلقة التي أصابت قلبه ، ارتد إلى الخلف ليصطدم بباب الشرفة وينقلب

على وجهه ..

لقد عشت هذه اللحظة سابقا ، في حرب الاستقلال حين كانت جوقة (يرحمكم الله) منتشرة.

عمت المكان مقطوعة الصمت لبيتهوفن ، وقد أدركت حينها أنّ القتل هو الأبسط والأسهل بين كافة الجرائم ، فلا حاجة للخبرة والمعرفة والموهبة. كانت رائحة البارود المحترق تفوح في الأرجاء ، فيما الدخان لا زال ينساب من فوهة البندقية ؛ سحابة هيروشيما منزلية الصنع.

جحظت عينا عوني واو ككرتي زجاج في وجهه الذي رقشته قطرات الدماء ، فالمسكين قد خسر للتو قارئه الوحيد على يدي.

أما المستر سبوك الذي ألمّت به الحيرة ، فقد ظلّ جامداً كأحد الأشباح المنحوتة على قبر قديم ، بعد أن أرسلت أحد أصدق معجبيه في هذا الكون إلى عالم آخر.

حبس المنظر أنفاس فيغان نيغاتيف التي أنتت راکضة إثر سماعها الصوت ، ذلك أنّ مهمة ترتيب فوضى ما بعد العملية الإرهابية ، والتخلص من بقع الجريمة والحفاظ على الأمن العام كانت تقع على عاتقها.

انفتح الباب الخارجي مع صوت النيران ، ليقتمح جيفان كازانوفا المكان ، كان هندامه مرتباً ، لكن وجهه قد أطاحت به الكدمات ، فغدا أشبه بصحن من العصيدة التي يتم إعدادها في مطابخ دور المسنين ، وكانت عينه اليمنى مغلقة تماماً..

رصّت شفطاي التي أشبه بلحاء جرح متيبس على طاقم أسناني الاصطناعية ، وسألته قلقاً وأنا أشير بفوهة البندقية إلى وجهه:

- ما الذي حدث لعينك ؟

فيما قطرات الدماء المنسابة من لحيّتي تتساقط على خفيّ.

الإخلاصُ ؛ من شيم الجريمة

«الجسد الملقى على الأرض

بأطرافه الملتوية ، أشبه بالصليب

المعقوف على علم نازي متغضن.»

(كمال طاهر ، 1910-1973 ،

سأسبح عميقاً ، رواية ميكي هامر)

جيراني ؛ المدنيون الأبرياء لم يلقوا بالألصوت السلاح ، فالجهلة والحمقى لا يستأوون من الضجيج. أزحت طرف الستارة لإلقاء نظرة على الخارج ، وكأن ظلاماً متعمداً كان يلف المدينة ، فيها المستذئبون ومصاصو الدماء يلعبون الشطرنج في الحديقة .

كان وجه عوني ووجه المستر سبوك أكثر تعاسة من الجسد الملقى على الأرض .

علّق عوني واو بجملة تناسب الموقف تماماً:

- إذأ ، لقد قتلتته!

- لقد قطعت حديثكم في أكثر المراحل إمتاعاً ، أستمحكم عذراً. لن أخفيكم

أنها كانت أكثر الأشياء التي أمتعني القيام بها دون أن أكون عارياً.

لقد ارتكبت أولى جرائمي في المائة من العمر ، لذلك لا يمكن القول أبداً أننا

تأخرنا عن القيام بأي شيء.

كان وجه المستر سبوك شاحباً وخالياً من التعابير كغطاء التابوت وهو يسأل:

- هل ستقتلنا أيضاً؟

داخلني امتنان غريب وأنا أوضح:

- المكان هنا ليس مملأً على الإطلاق - وتركت بندقيتي على طاولة الطعام.

أعقبته فيغان بسؤال ينمّ عن وحدة الحال والمصير:

- ماذا سنفعل الآن؟

فاحتج جيفان كازانوفاً في جزع:

- فليهدأ الجميع ، سنقوم أولاً بتغليف هذا الوسيم - واخفى في لمح البصر ليعود

ومعه شوال زهري له سحاب.

- ما هذا؟ كيس جثث؟ - سأله عوني واو.

أجابه جيفان وهو يفتح السحاب:

- لا ، كيس النوم. سنضع الجسد فيه وننقله.

لكن عوني اقترح فكرة بالغة الغرابة.

- برأيي أن نتقاسم القتيل ، فتسهل علينا مهمة نقله ودفنه.

- لا!!! ، لا!!!.. سأتكفل بحل كل شيء. اتركوا الأمر لي. - كان جيفان وهو يضع

القتيل في الكيس أسرع من حصان سبق في أوج جريه.

وجّه المستر سبوك سؤالاً منطقياً إلى جيفان:

- ألن تُسأل ما الذي حدث هنا؟

- ومن تكون؟ - سأله جيفان.

- كوركوت أونلي ، صديق السيد عوني - ومن ثم التفت نحوي سائلاً بذات الطريقة الدراماتيكية لمذيعي محطة التلفاز الرسمية - سيد روحي لماذا لطخت يديك بالدماء؟ هل يعقل أن يقوم الرجل بقتل ضيفه؟

ولكن عوني واو بادر لاستلام مهمة الحديث:

- حين كان ذو الفقار ظريف أوغلو على فراش الموت طلب من روحي القيام بقتل معصوم جيغي. وذو الفقار هو المدير العام السابق لمحطة حيدر باشا ، حيث كان السيد روحي يعمل هناك حارساً ليلياً. وقد ختم ليالي أربعين عاماً لوحده وهو يستمع إلى الراديو ، يبقى متيقظاً طوال الليل بينما يكون الكل نياماً ، فلم يتمكن من التعرف إلى أحد وعقد صداقة معه. وحين تعرفت على روحي مجرد كان ذو الفقار صديقه الأوحده ، لذا لم يستطع ألا يلبي طلبه.. ربما يجدر بي أيضاً في آخر أنفاسي أن أوصيه على جريمة..

انكشف الستار عن حيلتي وأدرك جيفان أنني قمت بخداعه ، ولكنه لم يظهر ذلك. وقد قام بمساعدة المستر سبوك وفيغان بلف الجثة وحملها على ظهره وخرج.

لقد تقبلنا الجريمة بسهولة ، ولم يترك مذاقها في فمنا سوى حلوى اللبن بالفاكهة المخادعة في المطابخ غير الخبيرة ، والمنعشة رغم ذلك. لأننا كنا عجزة مؤمنين ، مطعمين بلقاح المرارة ، نقيم على ضفاف الآخرة ، أما مخيلاتنا فكانت تسبح في فضاءات الإسخاتولوجيا²¹ ، نفيض بانفعال المشاهد الأخيرة ، وقد عقدنا أواصر حبيمة مع عزرائيل. نتحلق حول الملائكة التي تزين مصلى الجامع ، نحفظ الطقوس الجنائزية عن ظهر قلب ، مداومين في المقابر ، حتى ظلالنا كانت تسحبنا نحو المقابر ، وقد باتت دروب مقبرة كارجا أحمد مطابقة لوقع خطواتنا ، بعد أن واربنا آلاف الأموات الثرى وسقينا قبورهم بدموعنا. تدور كل أحلامنا عن الجنة ، وكل كوابيسنا عن الجحيم. بينما كل الأسماء المدونة أرقامهم في دفاتر هواتفنا مسبوقة بكلمة المرحوم ، المغفور له ، رحمه الله ، لذا فمن المحال أن

نتصل بأي شخص كان من دائرة معارفنا. ذلك أننا خلطة سحرية قوامها الموت ، ومشروع ناجز لجنازة يمكن لها الانطلاق في أي لحظة ، فهما الشركاء الأمثل للأجل. وبناء على كل ذلك فقد كان من السهولة بمكان تكيفنا مع الجريمة.

كنا نشاهد من البلكون على ضوء مصباح الشارع ، جيفان وهو يضع الجثة الملفوفة في كيس النوم الزهري ، في المقعد الخلفي للصوبارو.

أما الطبيعة التي باتت كزوجة الأب - غير مرغوبة - في المدينة ، فلم تبدِ أي ردّ فعل غير طبيعي إزاء الجريمة. هذه الدنيا الكاذبة كانت تسيطر على كل الحقائق والمظاهر. تنهد عوني واو:

- أحياناً ينتصر الأشرار ، ونادراً الأخير ، وغالباً ما يخسر الجميع.

- أمن الصواب أن تنطق بكل الحقائق ؟ - سألته.

- مهما بدا سؤالك للسامع محملاً بالحماسة ، لكنه أكثر حماقة في الواقع .. وبعد هنيهة أردف - ومع ذلك ..

- ماذا؟

كان كاتبنا يترنح على حافة الجنون والنشوة.

- الإخلاص ، من شيم الجريمة.

سألت فيغان نيغاتيف محتفية بالضيوف:

- سيد عوني! هل أحضر المائدة؟ لقد أعددت الفاصولياء البيضاء ولدينا مخلل ..

- لا داعي لتجهدي نفسك - وأشار لكرشه مادحاً - في هذا الكرش ما يستطيع

إيصالي إلى الصين والعودة بي ..

الرحلات القصيرة

في الأوقات الضيقة

حتى الحب لم يعد كافياً.. كان علينا

مصادفته منذ أزمنة بعيدة..

(حبيبي رسمياً ، 1966)

في الصباح استيقظت في سريري الموحش ، فلم أكن في عين الكون سوى فائض

دون طائل..

كانت الشمس تسطع وكأنّ أحدهم قام بتشغيلها على الحرارة القصوى ، فيما

الغيوم مضربة عن الظهور.

ليس سوى يوم خميس اعتيادي في هذه الصحراء المترامية ، هذا ما كانت توحى

لي به أجواء المنزل.

تكاسلت عن الذهاب إلى الجامع ، مفضلاً البروك بالقرب من نافذة الصالة ،

فالجُلوس هكذا ومراقبة الشارع الساكن تشعرني بالنعاس ، وفيما أجلس في صمت أبي

الهول ، حُيّل لي أنني أشاهد فيلماً وثائقياً عني ، يدور عن ما تبقى لي من عمر أقضي نصفه

جالساً على الأريكة ، والنصف الباقي في السرير.

كانت أزهار البيغونيا الداتورا والخطمية المتراسة في الأصص الخزفية على الشرفة

مندمجة في همس محموم ، فيما أعبطها على دورة حياتها النباتية ، وأنا أحاول إنعاش ذكرى

الروائح قدر المستطاع في ذاكرتي ، بعد أن باتت مراكز الشم معطلة لدي منذ سنوات طويلة.

تعلق فيغان نيغاتيف:

- ما شاء الله ، الأزهار تبدو في غاية النضارة..

- من الأفضل أن نوزعها على الجيران ، فهل سأخذها معي إلى القبر؟ - أعلق في
تكاسل ، ولكن السؤال شغل ذهني بالفعل - فيغان هل لك أن تزرعي هذه الأزهار على قبري
حين أموت؟

وفيما كانت فيغان تلقي نظرة على الرسالة التي وصلتها على هاتفها النقال
أجابتنني:

- بالطبع ، فكرة رائعة - أراهن أنه ما من رجل قد أهدى هذه المرأة التي تشبه
رأس الملفوف الأجدد ، وردة حمراء.

كلانا يراوح على الصراط الفاصل بين دنيا الفناء وعالم البقاء ، كأسمك القاع في
أوقيانوس معتم.

الأعمار الطويلة هبة من أجل تشويش الأذهان ، فمعظم دروس الحياة تذهب
هباءً. فبعد عمر معين ، لا شيء يزداد نمواً في الإنسان سوى الأورام. ليبداً السير في طريق
اليأس بين نوبات الهذيان والخرف..

ولكن لعنة الأقدار وسوء الطالع ونوائب الدهر في هدنة ، فقد تخلصت من
معصوم جيغي دون أي مشاكل أو قلق. ورغم أنّ حياتي لا زالت على الوتيرة ذاتها من
الرتابة ، لكنها باتت تحمل بين طياتها بعض الإثارة ، كما أنني لم أكن أملك الطاقة الكافية
لأشعر بتأنيب الضمير. بالإضافة لاعتقادي بأنني قاتل مفيد للمجتمع. فالجريمة في معظم
الأحيان ، هي أصدق تعبير عما يجول في أعماقنا من مشاعر. وقد ارتكبت جريمة بالوكالة.
ولكن ما الذي جعل ذو الفقار يزوج بي في هذه القضية الدامية. كيف لي أن أتكيف مع هذا

التناقضات الهائلة ، يبدو أنّ الرجال - على عكس النساء - مع التقدم في العمر تقل لديهم قابلية الاندهاش .

وضعت أسطوانة مقطوعة (أرايسك) التي لحنها روبرت شومان (1810-1856) لكلا را فيك ، بعزف الكسيس فيزنبيرغ على البيانو. لو حدث وأتقنت في يوم من الأيام عزف البيانو مثله ، فمن الواضح لمن سأفعل ذلك. تراودني ذكرى نازلي هلال كل عشر ثواني ، ولكنني بالتأكيد لست أول رجل يهلك في سبيل امرأة. فحتى أكثر قصص الحب مثالية مترعة بالمكرورات ، فما بالكم بالحب الأفلاطوني الذي لا يعد سوى لعبة قديمة..

اتصلت بجيفان كازانوفا ومع رنة الهاتف الثالثة أغلقت الخط ، يبدو أنّه قد تخلى عني ليبدأ حياة جديدة مع جسد معصوم جيغي .

وفيما أنا جالس على الأريكة ، قمت برحلة زمنية قصيرة ، ولكن لا أدري كيف حلّ المساء ، وأدركت أنني لم أفعل شيئاً سوى النوم. كانت بروفا صغيرة عن الموت الوشيك .

أشعر أنني سأموت في اللحظة التي أريد ، فلا يحتاج الأمر مني سوى التمدد على ظهري ، لأن موعدي حان منذ وقت طويل. كما أنني لا أملك عملاً ، أو وظيفة أو هواية. لقد انتهيت - الخاتمة. كل ما أريده أن يدونوا على شاهدة قبري «لا يسمح لي بالخروج إلا ليلاً» .

ولكن الفيلم الحقيقي يبدأ منذ الآن ، فالمجريات التي تسير وفق خطة مسبقة ، لا يمكن بحال من الأحوال أن نسميها الحياة .

انقطع التيار الكهربائي ، وحلت العتمة ، وصممت الموسيقى ، وحين أشعلت فيغان الشموع المثبتة في الشمعدان الفضي ، امتلأ المكان بظلال أليفة. وبعد هنيهة من الوقت ، جاءت لتلامس كتفي من الخلف ، وهي تقول:

- الحبة .

عيناى مغمضتان ، وقد فتحت فمي بقدر فتحة حصالة النقود ، لتضع فيه الحبة

كقطعة نقدية. وحين مللت انتظار كأس الماء ، فتحت عيني ، ليصدمني تيار كهربائي يتجاوز خمسمائة ألف فولت من الدهشة ، فقد كانت نازلي هلال واقفة أمامي وهي تحمل كأس الماء.

سقتني ، لقد سقتني ، سقتنييييييييييي!!! كنت أتمرغ في ذات العذابات التي عاشها كوازيهودو - أحذب نوتردام - قبلي ، وأحيا الأسطورة الرائعة ذاتها. كانت مشاعري كأوراق الكبة الحمراء تتراقص أمامي قلوباً مزدوجات ومنفردات. وحتى لو فاضت آخر قطرة في العمر الآن ، فمن الأوفر حظاً من رجل حقق أجمل أمنياته?..

وفي حركة أكثر إذهاً من كل المؤثرات التي ترافق مشاهد مماثلة في أفلام الخيال العلمي ، انحنيت أمامي على ركبتيها ، لتتوهج كأميرة البجع قبيل تحولها الوشيك. وكانت كلماتها المجدودة تبعث البهجة في مسامعي:

- بفضلك بدأ ابني الوحيد يتماثل للشفاء سيدي ، ولم يسبق لي أن شعرت بالامتنان لشخص ، كما لك. وقد رغبت بالمجيء لأوجه إليك الشكر بنفسي. لن أنسى ما حييت طيبة قلبك ، فأنت بطل يفيض قلبه بالرحمة ، وأتمنى لو أنني أستطيع ردّ هذا الجميل..

- ولكن ما الذي فعلته؟ - سألتها.

غامت عيناها:

- كان كرمك السبيل لعودتي إلى الحياة مع عودة أوزان إليها سيدي.. - وكان الملائكة كانت تردد كلماتها في كورس مذهل.

هذه العيون القمرية بين أفول وبزوغ ستغدو وطني حتى الأبد.

تهدجت:

- نازلي.. هلال..

- تفضل سيد روحي!.. - كان صوتها دافئاً.

- ما الذي.. تتحدثين عنه؟.. - اختنق صوتي..

- لا تحاول أن تنكر ، فقد أخبرني جيفان أنك من أعطيته النقود لعملية زرع نقي عظام لأوزان الذي يبلغك تحياته ، ويقبل يديك.. ها! ويريد أن يلعب معك لعبة الحرب.. كان والده أيضاً يلعب معه هذه اللعبة..

يجتاح عينيّ نازلي هلال اللتين في اتساع أوقيانوس ، مد وجزر بطيء ، فتتحرك أمواجه الزرقاء لتعلو ببطء.

اختلطت عليّ الأمور ، وامتلاّت بالحيرة التي تملاً جسداً بعيد تلقي رصاصة في جبهته ، وبالأس الذي يحوط طفلاً يعشق مربيته. معها كنت أشعر نفسي بطلاً في أحد أفلام الكاراتيه ، وبالقلق من أن يكون كل ما حدث مجرد حلم سيتلاشى.. وبين الفينة والأخرى كانت إحدى فراشات الليل تحلق بيننا في حركات متراقصة..

اقتربت مني المرأة التي أحبّ ببطء لتقبل وجتني. كانت قبلة تختلف عن تلك القبلة العجول التي رشقتني بها في صالة المطار ، قبلة تشبه ختم ملكة. لقد كان انتظاري مدة مائة عام من أجل هاتين الشفتين - اللتين يطغى بريقهما على كل ما في العالم - مجدياً بحق.

أه! ولكن المعجزات لا تتغير الأقدار ، ولا تمنحنا لوعة الحب سوى القدرة على إخفاء مشاعرنا.. لقد كانت هذه القبلة ، أكبر العلامات على حلول قيامتي الشخصية..

لقد اتخذت قراري ؛ فلينقشوا على شاهدة قبري هذه الجملة: «إنّ الحياة امتياز».

جيفان كازانوفا

- أصحيح أنّ نوح طوفان ربح الأحد المنصرم مائة مليون من اليانصيب؟

- أجل صحيح ، ولكنه لم يكن يوم الأحد ، بل الاثنين. ولم يكن

اليانصيب بل لعبة النرد. بالإضافة إلى ذلك ، إنه لم يكن نوح

طوفان ، بل إبراهيم القربان. ولم تكن مائة مليون ، بل مائة

ليرة. كما أنه لم يربح هذا المبلغ ، بل خسره.

(الثلاثي المحتال)

الخاصرون أبطال الدوري

«لن تستطيع إصلاح الناس باللكمات

والركلات».

(بروس لي ، 1940-1973)

كنت أنهار تحت وقع اللكمات الحديدية الثقيلة.

أهلاً بكم في حلبة الجنون ، اليتيم والفاقة ، فقد بدأت مباراة البقاء أو الفناء.

كان منافسي الذي عقد الشيطان قرانه عليه ، يزيّن كافة أصابعه بالخواتم ، حلقات من النيكل والفضة والحديد ، تقلّب وجهي كالمحراث مع كل لكمة.

لا قواعد ولا حدود ، على العنق ، على الجبين وعلى الأحلام.. كان الضرب مباحاً على كل أجزاء الجسد ، تستطيع أن تققطع ، أو تخدش أو حتى تحطم رأس غريمك بحجر.

كنا نبعد خمسمائة متر عن ساحل موزا في منطقة كادي كوي ، والثلج ينهمر كقطع الأحاجي من السماء. محاطين بضجة مألوفة ، وسط لهيب اللظى للحشود المتحلقة ؛ رجال شرطة محدبون ، متحولون جنسيون يتلون الأدعية ، جدات يقدر من أعينهن الشرر ، وأوغاد تخال بأنهم ولدوا من مؤخرات بعضهم ، ونماذج مستحدثة من فلاحى القرون الوسطى ، ممن تشكل مشاهدة عمليات الإعدام قمة متعتهم ، بالإضافة إلى الخالة فينيما الصهباء ، التي كانت تصبغ بغلها أطلنطا بصباغ الأحذية الأسود وتؤجره حصاناً ، فتكشف الأمطار رقصاته وتذيب الصباغ ، لتذكرنا أنّ المظاهر خادعة على الدوام.

الكل يأمل أن أفوز ، ذلك أنني لم أتعرض للخسارة منذ أربعة أعوام. فقد كنت البطل الغالب في هذه المباريات الشقية.

يهتف الحشد:

- كولومبو.. كولومبو.. كولومبو.. وهو اسمي على الحلبة ، وقد استمد من شخصية المحقق كولومبو في مسلسل الشرطة الشهير من السبعينات ، وهناك غطاء دائم على إحدى عيني ، يسألني عنها دوبارا:

- ما بها عينك ؟

- لا تعمل .

- هل فقئت بالكامل ؟

- لا ، عيني في مكانها ولكن الضوء يؤلمها .

- تعني أنك مثل كولومبو ؟ - وبذلك بقي اسمي كولومبو. ولكن المحقق كولومبو لم يكن يغطي عينه ، ولم يخض أي قتال ، كما أنه لم يقض ليلته في الأزقة ، لم يكن يشتم أو يبكي أو يقلع معطفه .. لست جديراً بهذا اللقب .

كان غريمي ذو الشعر الأجعد والبشرة التي بلون الكولا أثقل مني بحوالي خمسة وأربعين إلى خمسين كيلو غرام ، أقرب لأحد مصارعي السومو على حلبة الأوبرا ، وانعكاساً لجمل هائل يرتدي خرقة رثة ، ويستطيع أن يلتهم السوبرمان حياً ، ليمسح فمه بعباءته بالذات ..

ومع بدء القتال ، أخذ يردد التهديدات المكرورة:

- لقد حان أجلك وانتهى أمرك ، فلتدعُ آخر دعواتك ..

- سأنهال عليك ضرباً ، حتى يغدو شعرك أملسا.. - أجبته .

لقد كان وزني ثمانية وخمسين كيلو غراماً ، أما خصومي فكان التفاوت في أوزانهم لا يخضع لمقياس .

على هذه الحلبة لا تصنيفات للمتصارعين بحسب الوزن أو العمر أو خلافه.. فالأوغاد المشردون ، المرضى ، المدمنون القذرون ينهالون على بعضهم ضرباً حتى الموت.. كانت مكبرات الصوت المثبتة على أنقاض ما كان سابقاً كافيتريا وقد تحولت إلى حلبة صراع ، تبت أغنية (لعبتي المفضلة) لفرقة كارديغانس . كانت هذه الأجواء الباعثة على الدوار تحيل ندف الثلج المنهمرة إلى ذرات كوكائين ملحّنة . هنا ؛ في هذه الأزقة المظلمة للجحيم قد تمّ تأهيلي..

كنت مترعاً بالأدرينالين حتى التخمة ، وكان تسديد اللكمات صعباً قدر تلقيها . يبدو رأس الأجدد وكأنه قد قطع وتم سلقه ليعاد إلى ما فوق كتفيه من جديد ، وكان وجهه أشبه بكبد توم وايتس ، وأجزم أنني كنت أبدو أسوأ منه . يجرني من لحيّتي المبعثرة وهو يضرب صدغي . وقد توقفت أصوات الطاخ والطبخ ، لتحل مكانها أصوات عجن وتهشيم ، ومن خواتمه البراقة كانت قطرات دمائي تنساب . تلفت إسوارته التي علا الصداً بريقها انتباهي ، إنها موضة تعود لما قبل عشرين سنة مضت ، تتناسب فرحة اقتنائها طرداً مع قلة أهميتك في هذا العالم . التويت إثر ضربتين متتاليتين ، وكمسرنم يترنح بالكاد كنت أرى الحشود التي تجاهد الإقياء وهي تنظر إلى وجهي .

ومع الركلات التي يوجّهها إلى بطني بحذائه البالي الذي ارتداه متعاكساً ، أرتطم بالأرض ، وقد بدأ سيل من اللعاب الممزوج بدمائي يتدفق من فمي ، ككتلة مهروسة محاطة بخرقة رثة . كنت أشعر بالدوار ، وتحت أضواء الشارع الشاحبة كعيون جثة مرمية في حاوية مهجورة ، بدأت أترنح على حبال الحلبة . لم أكن سوى حشرة سقطت في مبولة الشيطان نفسه . وبدأت أنجرف نحو نعاس قاتل دون أن أشعر بمزيد من البرد أو الضربات المنهالة

على جسدي ، محاصراً في تلك البقعة من المدينة التي تحكمها الفيروسات والإرهابيون. كنت كدمية مصنوعة من صلصال القبور ، تتخبط ذائبة في مستنقع من الأسيد. ومع مرور كل لحظة كانت المشاهد المحيطة بي تغدو أقرب لبقع بطاقات رورشاخ.

كنت واثقاً أنني - ولسنوات طويلة - لن أنسى هذا الضرب ، إلا أنني لم أكن متأكداً إن كنت سأعيش هذه السنوات. ولكن لا داعي للقلق علي ، فقد خسرت أشياء أكثر قيمة من روحي بكثير.

كان الأجدد أيضاً في حال يرثى لها ، فالدماء التي تغطيه تكفي لطلاء باب قصر (توب كابي) مرتين. وكانت رائحة فمه أكثر نتانة من الخراء ، ومع ذلك كان كالبطيخة المهشمة يرغي ويزبد:

- أنا محظوظ لأنني لست في مكانك..

كانت موضة المصارعة الحرة الأميركية (يوم فايت) قد شاعت في تركيا أيضاً ، وكان مشردو الشوارع ممن انقطعت بهم سبل الحياة ، يقاثلون بعضهم لقاء بعض الطعام ، سرير ، كحول أو حفنة مخدرات.. وكانت الفيديوهات التي يتم تصويرها بكاميرات الموبايلات تباع للمواقع الإلكترونية ، وخلال وقت قصير ازدهرت هذه الأعمال ، وبدأت المافيات تسيطر على هذا النوع من المباريات وتنظمها. كانت خليطاً متناغماً من أصوات تهشم العظام ، الشتائم وضربات صراع لا يرحم. ولم تكن تقتصر على القتال ، بل على كل ما هو مدرج تحت خانة الخطر أو الهزل ؛ كاصطياد فأرة بالفأس في حوض سباحة فارغ ، القفز من فوق أسطح أبنية عالية فوق الأشجار ، المسابقات على اغتنام الأطعمة التي تلقيها المطاعم في حاوياتها ، الجري في قنوات المجاري التي يفرغ فيها تيار كهربائي.. وبالطبع كانت الأكثر رواجاً هي فيديوهات القتال. صراع الخصمين العاجزين عن هزيمة بعضهما ، كانت تملأ المشاهدين بالإثارة. فقد كانت الرهانات تُحدد ويتم تنظيم مباريات غير قانونية تبثها المواقع الإلكترونية ، حيث ينضم المتراهنون من كافة أصقاع الأرض إلى هذه اللعبة. أدخل الرقم

السري لبطاقتك الائتمانية وأرسل الأرقام وانتظر ، وما إن يتمكن واحد من الوغدين اللذين يجري في عروقهما البول من تثبيت خصمه أرضاً ، حتى تعمل الأرقام لصالحك..

وأعترف أنني هنا من أجل تبييض عذابات الجحيم الذي أعيش فيه .

كان الفرق الوحيد بين خصمي وميكي تايسون هو لون البشرة لا غير ، فقد كانت حملاته متقنة وضرباته نظامية. لم يسبق لي مشاهدته في الجوار ، من المؤكد أنه لم يكن واحداً منا. فأنا أعرف جيداً كيف يكون اللاعب المحترف. لقد كذب عليّ بدري دوبارا - رجل المافيا المسؤول عن التنظيم - الواقف معنا في الحلبة. كيف لم ألحظ ذلك؟ فقد قاموا باستئجار هذا المارد من أجل ضمان هزيمتي. لكن من الطبيعي ألا يثقوا برجل مثلي ، تضح روحه بأربعين علة.. ودعكم من تنفيذ الأوامر ، فقد كنت عاجزاً حتى عن تذكرها أو حتى فهم ما يقال لي.

كان الأجعد يصرّ أسنانه فيما يكيل الضربات التي تنهال على أضلعي كانهجارات محطمة ؛ دووووم.. دووووم!!!

كانت ضربات يده اليمنى من القوة ، بحيث ترتجّ لها عظام أجدادي في أجدائها مع جسدي المحطم.

حتى الجنون لن ينجيك من مواجهة الحقائق ، والانهيال لن يعفيك من مسؤولياتك ، وارتكاب الجرائم لن يمكنك من تغيير القوانين..

كانت فينيما بصوتها المشروخ تناديني:

- حطمه يا كولومبو - كان فستان الخالة قد خيط من ملاءات بيت الدعارة ، وهي تلوح بمجلة (القناع الأحمر) التي ائتمنتها عليها كالعلم.

يتوجب عليّ أن أهزم هذه المرة ، هذا ما قاله لي بدري دوبارا:

- بعد الدقيقة الأربعين دعه يفتك بك ، وإلا سأحشر عينيك في فتحتي أنفك.

ولكنني ومن أجل المرأة العجوة أسدد ضربة قاضية للأجعد. فيتغضن فم الوغد في تكشيرة ليغدو أشبه بمؤخرة ضبع نافق. أها! لقد فقد توازنه ، يترنح قبيل سقوطه. أمسك كتفه بيدي اليمنى ، فيحاول تسديد لكمة بيده اليسرى ، لأتقادها في الوقت المناسب فيسقط مقبلاً الأرض. لقد انتهى أمري ، فالتهديدات في عالم المافيا بمثابة الوعود.

- سأنتزع قلبك العفن من بلعومك.. - يحدّد بدري دوبارا مصيري.

بدأ المتفرجون بالعدّ حتى العشرة ، ولكن الأجعد لم يأت بأي حركة. كان راقداً كحبة بطاطا مهروسة بحادث مروري تواصل حياتها النباتية ملتصقة بالأرض. وأخيراً أقبل الحكم الشكلي الذي لم يتدخل نهائياً في سير المباراة ، برفع يدي اليمنى. فتزفر الخفافيش الاصطناعية ويتلوها صفيق الأكف.

لو لم يكن هناك من تحدّي - (العطس داخل خوذّة القيادة ، فيما تقود دراجة نارية بسرعة ثلاثمائة كيلو متر في الساعة) - لقمّت باختراعه بكل تأكيد.

وفيما اصطف الجميع في ذيلٍ أمام الشاحنة للحصول على نقودهم ، أخذت الحركة تخف ، وكأننا كنا نقوم ببعض التدريبات على سطح المريخ. يقترب مني بدري دوبارا ، وهو يبتسم كممسوس خطرت له فكرة ذكية. كان مظهره يؤكّد ذهابه إلى الجحيم دون أدنى مساعدة من الشيطان. هذه المرة لن يعطيني المحار المحشو ، البيرة ، صحن أرز ، سيجارتي حشيش ، معطفاً ، خمسين ليرة أو عنوان أحد الأوتيلات. كانت الدموع المنهمرة من عيني تتعرج على وجهي المليء بالكسور ، كنت مزيجاً من قنديل بحري رمته الأمواج على الشاطئ وبزاقة بحرية عجنتها الأمواج. انعقد حاجباه كنعلين فوق عينيه وهو يرمقني ، وكأنني تبولت على حذائه.

قبيل المباراة خاطبني متودداً:

- كولومبو ، حين يموت الرجل يدفن معه ظله أيضاً ، هذه هي الأعراف. هل تفهمني؟

- بالطبع.

- نحن أصدقاء.. الصديق يعني ذلك العدو الذي لم يهاجمك بعد. هل تسمعني؟
- كان فمه يفوح كشاحنة قمامة نتنة.

- هههههه.. هههههه..

وكانه لم يكن يتكلم بل يتقيأ الجمل:

- وأظنك تعلم أنّ ما يجعل اللعبة لعبة ، ليست القوانين ، أليس كذلك؟

- أكيد..

- وإن نظرت للوقائع من الزاوية ذاتها دوماً ، ستغيم عن ناظريك الحقائق..

- ها؟

- النقود هي الأم الرؤوم لكل الشرور. النقود هي من تتكلم هنا..

- أعلم ذلك..

- الرومانسية تربطك بالحياة ، ولكن الكثير منها يؤدي بك إلى الموت. هل أنت

معي؟

- أجل ، بالطبع..

- أنت لست سوى فاشل يرتدي كلاسين يلتقطها من الحاويات. ورقة آس مهترئة في دسته أوراق بالية. لذا لا تحلّق خلف الأوهام ، وإياك ومحاولة فتح ثقب جديد وسط

- حسناً.

- وإلا سألوك لحملك نيباً ، وأبصق عظامك..

- تمام..

- سأحرقك وأرمي برمادك في وجه أمك..

من الصعب عليك أن تكسب إعجاب شخص لا يشعر بالسرور من معرفة نفسه. وفيما يواصل الحديث ، فهو ينجح في الإبقاء على أفكاره التافهة غير المفهومة ، وبذلك فقد يتمكن من ترقية هيئته.

إنه وغد ذو مبادئ ، وسيفعل الآن ما أخبرني به. على ساعده الأيمن وشم حربة ، وفي يده نسخة حقيقية منها. بلعت ريقى ، لينساب الدمع المتجمع في فمي نحو بلعومي. وفيما أمسكت يده اليسرى بقذالي ، غرز الحربة في بطني ولواها.. مرة تلو المرة تلو المرة..

تهجيت هامساً ، وأنا أحاول الابتسام:

- ششش.. كر.. رالاً..

الدهشة الآلية

التي سببت اضطراباً مزمناً

«نحن ضحايا الحب الذي تنهال

عليه نوازل القدر».

(أورهان كينجباي)

على المرح الذي ضربه الصقيع كنت ملقى على بطني ، نائماً وسط بركة دماء هائلة يمكن رؤيتها من الفضاء الخارجي. كان الجوار قفراً ، فيما ندف الثلج المنهمرة تبدو كحبات الذرة المتفجرة. أشبه برجل الثلج الذي صدمته سيارة ، كنت غارقاً في خدر لذيذ ، أشعر بالنعاس. الموت أكثر سهولة مما كنت أعتقد. وأخيراً.. سأبحث في الجنة شبراً شبراً عن سربيل سيلاحي بييري. وحين أعر عليها ، ستكمل جملتها التي توقفت في منتصفها ، وسواصل حبنا من حيث توقف.

أحدهم فيما يخطو فوقي ، داس على يدي:

- عفواً يا بني.

تعرفت إلى صوت جيروكة فينيما التي شجعتني لكسب المباراة ، وكان آخر ما شاهدته هو ذيل أطلنطا.

كانت حياتي تنساب أمام عيني كفيلم صوره أحد الهواة دون إتقان. أخي أوكان في الحادية عشرة من العمر وأنا في السابعة. أمي وأبي يتطلقان ، أظل مع أمي وأخي مع أبي ،

وكل منهما يتزوج من شخص آخر. وبعد عدة سنوات تموت أمي ، وبعد فترة وجيزة يلحق بها أبي. يظل أخي أوكان لدى زوجة أبيه ، وأنا عند زوج أمي. كنا نذهب أنا وأخي إلى الصالات الرياضية ونتدرب على الملاكمة. وحين ينهي أخي الثانوية ، يلتحق بجامعة الأناضول كلية الطيران المدني ، وحين الانتهاء يبدأ العمل في مطار غازي عنتاب كمراقب المرور الجوي. أما أنا فالتحق بجامعة مرمرة ، كلية التربية الرياضية والتدريب البدني. وفي العشرين من عمري وخلال اشتباك مسلح ، أتعرف على تحفة حقيقية ، أو كما يقال عامة (فتاة صاروخ)؛ سربيل سيلاحلي بييري ؛ حسناء وكأنها رسمت بالليزر ، تخب الألباب. أشارت نحو البدلة الرياضية البنية والزرقاء التي أرديتها وهي تقول:

- ثيابك تناسب ألوان عينيك.

وتمر سنوات ثلاث كأغنية نانسي سناترا ولي هازل وود (خمرة الصيف - Summer Wine). وبعد التخرج من الكلية ، أتعين مدرباً في مدرسة (كيسيك باش) [22](#) الابتدائية ، وأخطب سربيل ، ونتفق على الزواج قبيل انتهاء الصيف. تذهب سربيل لزيارة جدتها لأُمها التي تعيش في مدينة غولجوك ، ونتحدث عبر الهاتف معاً حتى ساعات متأخرة من كل ليلة. وكعادتها في آخر الليل تفتتح أحد المواضيع بجملة:

- اسمع ما سأقوله حبيبي .. يهتز المنزل ، أقول:

- أنه زلزال .. - تنقطع الخطوط ، ولا تكمل سربيل جملتها مطلقاً. تموت حبيبتي الوحيدة ، وأبحث أياماً متوالية عن جثمانها بين الأنقاض. أنهار من التعب وأنا أنقل الجثث إلى الشاحنات. كان جسد حبيبتي الذي ازرقّ من الرأس حتى أخمص القدمين مسحوق الرأس والصدر ، ولا يمكن التعرف إلى وجهها الذي أصبح كصحن من المربي ، وبدا أقرب لرأس من القرنبيط. وقد انغرست ضلوعها المهشمة في أعضائها الداخلية ، وبترت إحدى ساقيها من الركبة ، وأثناء الجنازة تخبرني إحدى صديقاتها أنها كانت حبلى .. لقد توفي طفلنا أيضاً مع زوجتي المستقبلية. أتمدد في حوض مليء بالثلج ، فيها مياه مغلية تتدفق على

رأسي. أتخلى عن الحياة ، وأهجر المنزل ، العمل كل شي وكل الناس ، وأرمي بهاتفي النقال في البحر. وفيما أحاول أن أشنق نفسي على الفئار البحري ، تقوم ثلة من السكارى بإنتاذي ، لأمضي الشتاء برمته في الشوارع. ولأنني أعلم أن أخي حين يعطي مواصفاتي للشرطة للبحث عني سيخبرهم بأن: “إحدى عينيه زرقاء والأخرى بنية”.. أضع عصا بجلدية على عيني اليسرى. وأرافق أحد السكارى الذي يسكن في مقطورة شحن معطلة ، لقبه (فريك) ولا اسم له. وفي إحدى المرات التي كان يتبول فيها من المقطورة نحو الخارج ، يفقد توازنه ليسقط ويموت. أحمل جثته لأضعها على قضبان سكة حديد (سوغوتلو جشمه) وأضع بطاقتي الشخصية في جيبه ، وبعد عدة دقائق يصل قطار بصوته المتحشرج ، يسير فوق جسده ، ويحيل (فريك) إلى لحم مفروم. أشعر برغبة في التلاشي والاختفاء. ربما تعتقدون أنني فقدت عقلي ، فحين يجنّ شخص تحت وطأة العذاب ، لن يشاهد الناس عذاباته إنما جنونه. كنت أبيض بالألم وسط سكرة مميتة. في هذه الفترة بدأت مباراة المصارعة الـ (بوم فايت) بالانعقاد. وكان القتال يترك لدي أثراً علاجياً. فالاضطرابات المزمنة التي تضخمها الحقائق ، لا يمكن تخفيف حدتها سوى بدهشة آلية ، وخسارات متعاقبة. أتسلق نحو القمة في مضمار الخاسرين ، وها أنا أنحدر من تلك القمة كشوال من الروث المحترق..

حصّة الخنزير

«الحياة على عكس الشطرنج ، تكمل

سيرها بعد موت الشاه».

(إسحاق عظيموف)

لم أمت! حين استدعيت الوعي ورأيت مصباح الفلورانس فوق رأسي ، أدركت أنني لا أزال في هذا العالم ، رغم أنّ الموت كان سيواتيني تماماً. كنت مرتاعاً ، فالرغبة أشد ألف مرة من النوال ، الحسرة من اللقاء ، التذكر من النسيان..

رجل أصلع يرتدي بدلة أنيقة ، ومن الواضح أنه أحد رواد السولاريوم ، يقوم بالاعتناء بي.

فتحت عينيّ ، فانحنى فوقى يتفحص وجهي ومن ثم التفت خلفاً وهو يهتف:

- لقد استيقظ..

دخل طبيب شاب بربطة عنق حمراء.

- سيد جيفان! هل تسمعني؟

- هممم.. - قلت وأنا أومئ بعيني.

لم يتخلّ عن ابتسامته الخبيرة وهو يشرح لي:

- لقد تمزق طحالك ، واضطررنا إلى استئصاله أثناء العملية. ولكن لا مشكلة ،

كل ما يتوجب عليك فعله هو أخذ لقاءات ضد المكورات الرئوية كل خمس سنوات. كما قمنا بخياطة أمعائك التي تضررت نتيجة طعنات الآلة الحادة. وبسبب إصابة غشاء الجنب الأحشائي بالتهاب جرثومي ، ستتبع علاجاً من مضادات الالتهاب منعاً لحدوث إثنان. وبذلك سنواصل استضافتك لدينا لمدة خمسة أو ستة أيام أخرى ، وقد كنتَ محظوظاً لأنه تم إدخالك غرفة العمليات بسرعة كبيرة. حمداً لله على السلامة. هل تود أن نخبر ذويك ؟ هل من أحد تريدنا الاتصال به ؟

- لا .

- حسناً ، استرح الآن ، وسنلتقي لاحقاً..

استيقظ من نوم بلا قرار ، في عتمة حالكة ، وأعواد السقوط مرة أخرى. لا تراودني سوى أحلام على شكل صور فوتوغرافية مريعة. أسترده الوعي وأفقدته في تناوب ، فيما الوقت يواصل سيره في دقائق متقطعة. تغير الممرضة زجاجة السيروم ، وتغرز الإبر في ذراعي ، وتفرض كيس البول المعلق في مؤخرة قضيبتي.

بعد مضي أربع وعشرين ساعة استعدت الوعي. كنت وحيدا في الغرفة ، حاولت النهوض على مهل ، نزعت الأنبوب الرفيع المغروز بإبرة والمثبت باللاصقات على ذراعي. كنت أرندي أحد أثواب المشفى الذي يترك المؤخرة عارية. سرت نحو الباب حافي القدمين ، وأنا أشعر بنفسي فارغاً كزجاجة شراب مرمية على شاطئ قفر ، خرجت من الغرفة ، وأنا أتفقد المكان حولي.. المكان ؛ ليس مشفى أو ما شابه ، بل مكتباً مقسماً بحواجز إلى أقسام تغص بطاقم من الموظفين الذين يعملون على أجهزة الكمبيوتر. كنت كمن سقط في مأوى للاجئين ، يتجول موظفوه في أطقم من أحدث الموديلات. قبالتني وفي نهاية الممر غير المكتمل ، تتراءى غرفة تغطي نوافذها ستائر معدنية. بدأت بالسير نحوها. كان المكتب يفيض كمخزن للعطور المهزّبة. أسرعرت نحوي صهباء فاتنة حين شاهدتني وهي تقول:

- سيد جيفان ، لقد نهضت!

كانت تشعّ بريقاً من الرأس حتى أخمص القدمين ، كخنجر من البندقية.

- تفضل إلى الداخل لو سمحت ، وسأخبر المدير. فقد طلب منا إعلامه حال استيقاظك. - لتقودني من ذراعي برفق نحو غرفتي ، ومن ثم تسرع مبتعدة.

كان طقم أسود معلقاً في خزانة الملابس في الغرفة ، وتحتّه زوج من الأحذية ، فارتديت الثياب على عجل ، حيث ناسب الطقم مقاسي ، والأحذية قدمي. تأملت وجهي من خلال المرآة المعلقة على الباب الداخلي للخزانة. كانت ذقني مخلوقة وخفّت التورّمات في وجهي ، وحول الحلقة البنفسجية المحيطة بعيني ، كانت قطب خياطة جراحية. وفيما كنت أهمّ بالخروج ، دخل الأصلع البرونزي.

- مرحباً ، لم يسبق لي وأن قلت هذه الجملة لرجل من قبل: عيناك جميلتان جداً - تشنجت شفّته الرقيقتان حول فمه الشبيه بطرفي كمشاة وهو يردف - أنا معصوم جيحي - مدّ يده لتتصافح.

كانت الفتاة الظريفة التي حدثتني سابقاً ، تقف خلف مديرها خطوة واحدة ، وهي تحدق كدجاجة لديها ميول انتحارية.

قلّصتُ عينيّ وأنا أتأمل صلعة الرجل البراقة.

- إذأ ، فأنت لا تحبذ ارتداء شعر مستعار ، ها ؟ - علّقت ، وكان من الواضح أنه ليس أقرع.

ولكن معصوم الأصلع حاول التفاوضي:

- لم يتمّ اختراع شيء مجدٍ للرأس منذ المقصلة - وهو يحاول اتباع تعاليم الأبانيشاد الهندوسية ، ويجاملني في استهزاء مضمّر - البدلة تناسبك تماماً ، أرجو أن تكون قد أعجبتك. كيف تشعر؟ يبدو أنك استرددت عافيتك..

ومع تذكر إصابتي ، شعرت بألم يخترق الجانب الأيسر من بطني:

- لها أنا هنا؟

يشرح لي بنبرة آلية دون أدنى قدر من المجاملة:

- هدّئ من روعك ، لا تنتظر منك أن تكون ممتناً لنا لقيامنا بإنقاذ حياتك ، سنقدم لك عرضاً سيد جيفان ، وإن أجبت..

- لا.

- لم أفهم؟

- أجابتنني هي ؛ لا..

- نحن لا نريد إجبارك ، ففي حال..

- إن سمحتَ لي أود المغادرة. - وخطوت خطوة نحو الباب ، فمدّ ذراعه ليقطع عليّ الطريق ، لأتوقف.

- ستكون طليقاً بعد ثلاث دقائق..

- حسناً ، أنا أسمعك..

توجهت مع معصوم جيحي نحو الردهة ذات الستائر الحديدية ، لنجلس متواجهين. كانت لديه لغة جسدية أشبه بكلاب الدوبرمان:

- هنا (باكت) وكالة نقل ومبيعات. فكما تعلم هناك العديد من السبل للحملات

الإعلانية: الإنترنت ، التلفاز ، الإذاعة ، الجرائد المجلات ، اللوحات الإعلانية ، اللوحات الرقمية.. ولكن السبيل الأكثر تأثيراً هو الإنسان. فالحافز الأكثر فعالية من أجل شراء أي منتج ، هو نصيحة وتوصية شخص آخر. ونحن نريد أن نمنحك دوراً إعلانياً..

انسابت الكلمات من فمي تلقائياً:

- ماذا؟ أنا؟ كيف؟

ارتفع تيار الابتسامة في وجهه درجة إضافية:

- سنقوم بزرع رقاقة في منطقة فيرنيك من دماغك. وبذلك ستتخلل كلماتك التي تنطقها ، جمل دعائية نقوم نحن بإرسالها إليك من هنا. وبتعبير آخر ستؤجرنا لسانك لبضع ثوانٍ. ونحن سنعتمد بعض المعايير المتوافقة مع وسطك الاجتماعي ، وشعبيتك وظروفك ، وسيكون أجرك متوافقاً معها..

صمت منتظراً إجابتي.

- لها أنا؟ فأنا لا أعرف سوى المتسكّعين المدّعين ، ولست أكثر من عاطل مشرد ، وشعبيتي لا تتعدى شعبية قرص سيدي فارغ..

- الحقائق لا تقبل الجدل ، ولكننا وخلال مرحلة تجربة نظامنا الجديد ، سنقوم ببث تجريبي معك..

- سأعمل لديك كأحد فئران التجارب؟ أليس كذلك؟

- أجل.

- أقدر صراحتك ، ولكنني لن أوجر دماغي إعلانياً. وهذا آخر ما لدي.

- حسناً ، ولكنك بتّ تعرف ما ترفضه.

- تماماً - قتلها وأنا أنهض متجهاً نحو الخارج.

- سيد جيفان - خاطبني من الخلف.

التفتُ ، فرمى نحوى هاتفاً نقالاً ، وفيما الهاتف يحلّق في الهواء فكرت على الفور في بيعه وشراء الكحول بثمنه.

- وما هذا؟

- رقم هاتفي الجوال محفوظ داخله. يمكنك الاتصال في أي وقت تشاء.

لو لم يسبقني أحدهم لمقولة «إشعال الشومينه بمنشورات تفادي الحرائق» لقيمت
بإيادها..

الكلب الذي أهده بافلوف لفرويد

«أنا حقاً أحب الأموات ، وأشمئز

من الأحياء».

(فرانكشتاين ، عروس فرانكشتاين ، 1935)

في المصعد لاحظت أنني في الطابق السابع تحت الأرض ، فضغطت على زر الصفر الواقع في أعلى القائمة ، ودخلت حجرة خشبية ، وحين أغلق باب المصعد من خلفي تحول إلى جدار. كانت الحجرة تقع وسط حديقة كبيرة من أشجار الباولونيا ، وكان مبنى (باكت) يقع في جوف الأرض بالمعنى الحقيقي للكلمة. ولكن كيف لكل أولئك الناس التنفس؟ وأين يقومون بركن سياراتهم؟ وأي نوع من المدراء هذا المعصوم جيغي ، حتى تمكن من إقناع الموظفين بالعمل تحت الأرض؟ وما الذي يعنيه تثبيت رقاقة في أدمغة البشر؟ ثم ألا يعني الإعلان الذي يخاطب كتلة مجتمعية كبيرة ، القيام بآلاف الجراحات العصبية من أجل نجاح هذا النوع من الحملات الدعائية؟ فعلى أي أساس سينفق مع الشركات؟ ومن سيغامر بالجلوس إلى مائدة التفاوض مع أولئك الفرانكشتانيين الذين يقومون بسرد أكاذيب معقدة على المشتريين المحتملين؟.. وإن لم يكن معصوم جيغي متأكداً من فاعلية هذه الطريقة في زرع البذور الدعائية في الأدمغة ، لم يستثمر كل هذه الأموال؟ وإن كنت ضحيته الأولى بالفعل ، فكيف يسمح لي بالمغادرة - بكل بساطة - بعد أن اطلعت على مخبأه السري ، وعلى تجارته المخبرية؟

بعد الخروج من باب الحديقة المرتفعة الجدران ، بلغت الطريق الأسفلتي بعد اجتياز مهر طويل. دون أن أحدد أين أنا. كنت بلا نقود ، وجائعاً ، ولم يكن أمامي من

سبيل سوى الأوتوستوب ، فرفعت إبهامي ووضعت ابتسامة على فمي ، فقد كانت تمرّ بين الفينة والأخرى سيارة ما. وبالنظر إلى أرقام السيارات ، كنت ضمن حدود إسطنبول. بعد عدة دقائق ، توقفت سيارة بورتش سوداء (Targa 4S 911) في فرملة حادة. خلف المقود كانت تجلس شقراء مضاعفة الجاذبية باهرة الحسن. ما إن رأيتهما حتى تركت الماضي خلفي.. خاطبتي المعجزة الطبيعية الجالسة في معجزة التكنولوجيا:

- تفضل سيدي.

كان الأمر أشبه بجلوس شخص مقطوع الرأس أمامك في قاعة السينما.. عليّ الذهاب إلى لاس فيغاس..

ركبت السيارة دون تردد.

- شكراً لك ، إنه لطف بالغ منك..

على الراديو كانت أغنية (في العام 2525) لزاغر وإيفانس.. آخر مرة استمعت فيها إلى هذه الأغنية ، كنت أخوض بطولة قتال أسطوري.

ضغطت على دواسة السرعة:

- أنت من الجامعة ؟

- ها ؟ لا ، للأسف لا ، وأنت ؟

رتبت الحروف في تهجئة لذيذة:

- أممم.. أنا الدكتورة فوجير فوجي. - وهي تمدّ يدها اليمنى نحوي. كان الخاتم

الماسي في أصابعها الرقيقة يبدو خافت البريق. وأظافرها تشبه قطرات من شامبو الأطفال. أما شفتها فتوحي لك بأنّ هذه الحسناء باتت في طور التقبيل.

- سررت بمعرفتك دكتوراً ، وأنا جيفان كازانوفاً.

علت وجهها ابتسامة رقيقة وهي تقول:

- إذأ فأنت هنا بحثاً عن المغامرة ؟

- أحاول اقتراف الآثام التي تصل بي إلى ذروة الكمال..

- اعذرني على فضولي ، ولكن هل كنت تخوض قتالاً؟ - قالت وهي ترسم

بسبابتها اليسرى حلقة حول وجهها..

- إنها تعود إلى أيام الثانوية ، ولكن لسبب أجهله تأبى الجروح أن تندمل.. - على

إحدى لوحات الطريق قرأت (شيله ، مشروعية كويو) - فوجير ؛ هو الاسم الآخر لسلاالم
الحب ، إن لم أكن مخطئاً؟..

- صحيح..

- أما فوجي فهو البركان الشهير الواقع في جزيرة هونشو ، وفي الوقت ذاته إحدى

أنماط الموسيقى النيجيرية الخاصة؟..

- موسيقى ؟ أنت تعلم عني أكثر مما أعلمه عن نفسي ، لقد أثرت اهتمامي.. - كان

صوتها مثيراً كحفيف أريكة من الساتان.. عضت على شفتها السفلى ومن ثم لعقت العليا ، لا
بدّ وأنها وبعد الانتهاء من دراسة الطب ، تخصصت في إحدى نوادي التعري. كانت حركاتها

توحي بإباحية موزونة على وقع الموسيقى الهادئة ، فيما يريق شعرها يذكر بمرى البرتقال ،
وتلتمع بشرتها وكأنها مذرورة بغبار الذهب ، أما عطرها فكان يطغى حتى على أريج الطبيعة

الأم. أخذت باستنشاقها مع رائحة عطرها إلى أعماقي. كانت الدكتوراً فوجي وكأنها فتحت
صماماً حتى نهايته ليصل فيض التستسترون ذرى السماء. اشتهيت لثم الخال على زاوية

فمها ، وأنا أشعر بأننا وسط بالون من العلكة المحلاة. كانت البورتش التي تتقدم بسرعة
مائتين وعشرين كيلومتراً في الساعة ، أشبه بسرير شهر العسل. إن استمر الأمر على هذا

النحو، سيغدو سوتيان طبقة الأوزون البراق، مصيدة تلتف حول رقبتني وتسحبني نحو الموت. لذا كان عليّ أن أبطل مفعول هذه القنبلة الشقراء.. في الخارج وبينما ندف الثلج الفائلية تنهمر، كان الجو في السيارة أكثر حرارة من المعتاد بما لا يقاس. كنت مجرد متسكع جائع، مصاب ومشرد، أتحرق لتمرير نفسي أكثر. فقد التقيت بامرأة أحلامي، والفرق الوحيد بينهما هو أنّ امرأة الأحلام كانت عارية..

الأقدار تقدم لك المصادفات بيمينها، وتنزل عليك بكل الضربات بيسارها، وأما السعادة فهي تلك اللحظات التي تتخللها. لقد كنت أترنح متلويّاً منذ ما يقارب السبع سنوات بعدابات الحب المطلة على هاوية الموت. ولكن هذا الانحراف الكامل لمشاعري وشخصيتي تحت وقع تغيير الديكور والملابس لم يكن علامة خير بأي حال.. ففيها كان احترامي لذاتي يتبخر، كنت أمتلئ بنشوة مسكرة. أهذا هو الأمر؟ الخلطة الأساسية؛ مواعدة حامية بين النار والبارود، مع تعهدات جنسية قد تحل أعنى المشاكل؟ هل البريق الذي يبدو في آخر النفق ينبع من مجرد عري قديم الطراز؟ وهل القبلات تسدد حسابات الشوق الطويلة؟ وديون الهجران يمكن لبطاقة الجنس الائتمانية أن تسدها؟ من المرجح أنني لست سوى ذلك الكلب الذي أهدها بافلوف لفرويد..

المرأة المثيرة مجرد كذبة، مزيج قاتل من الامتحان والمصيدة.. ولكن إلى الجحيم.. كان جسد فوجير فوجي يتكلم بلغة أكثر بياناً من كل صوت، أما صوتها فكانت تستخدمه فقط كخلفية موسيقية لهذه اللغة:

- إلى أين نذهب؟

- أنت من تقررين فوجي!

- هل أنت نباتي يا جيفان؟

- بعض الأحيان..

- هل تستطيع اختيار الطعام؟
- حتى نسور الرمة تنتقي طعامها..
- يعني؟
- لقد أحلّنتني خلال أربع دقائق إلى أكثر راكبي الأوتوستوب اختيالاً ، وهذا بحق رقم قياسي...

السرعة القياسية على الطريق المؤدّي

إلى قلب الرجل

نجلس أنا وفوجير في أحد معابد الطبخ ، مكان في كانديلي خلق من التزاوج بين القصر والقلعة. وبالنظر إلى الممالح الكريستالية ، فمن الواضح أنّ هذا المطعم بملوحة مياه المضيق..

مضت عليّ عدة أسابيع لم أضع خلالها لقمة طعام في فمي ، فمعدتي وجيوي فارغة أكثر من قمقم البوظة المثلجة ، وقد بلغ لدي الجوع مراحل متقدمة ، دخلت معها عمليات الأيض في جسدي طور استخدام مصادر طاقة بديلة..

كانت أطراف الغيوم الموشاة تعكس تناسقاً لونياً لشمس الغروب. أما النوارس التي هي لله وإليه راجعة ، فقد كانت تقطع السماء في كل الاتجاهات. وقد بدا المشهد برمته لوحة رومانسية مكتملة المعالم..

حسناً ، كنت مستعداً لهذا التناقض الذي يعتمل داخلي ، وترضية هجمات الليبدو ، ففضيحة متأخرة كهذه ربما تمكنت من إعادة ارتباطي بأسباب الحياة ، والتعويض عن رغبات الموت المزمنة. وبالمقابل كان من المحال التغاضي عن تهشم المشهد بعمومه ليتحول إلى مجرد خردة مرة أخرى ، فقد اختبرت الهوة السحيقة بين الفشل والانحطاط ، ولأنني لم أتمكن من التأقلم مع الألم النفسي ، اخترت عيش أحط أنواع الحياة ، لذا كان علي أن ألوذ بالفرار على وجه السرعة:

- فوجي!

تلقت عني متابعة الجملة على الفور:

- جيفان أعذرنى ، فابن عمي هو الطبيب المسؤول عن هذا المكان ، وقد لجأت إلى خدعة صغيرة ، من أجل ألا يكلفك الطعام هنا أي مبلغ ..

كانت هذه المرأة أكثر من مجرد تجميع لتحف جمالية ، فقد طغت عليها مسحة حياء وهي تصرح بذلك فيما تموج في عينيها جواهر ملونة. إنها تتقدم على الطريق المؤدي إلى قلب الرجل بسرعة قياسية ، وبالمقابل يعلم الجميع أنه ما من طريق مختصر يفضي إلى قلب المرأة ، وفيما هي تصطادني كانت تعاملني معاملة مادة (قابلة للعطب).. النساء الجميلات ؛ هنّ القادرات على إخفاء مكرهنّ ، بمكر متقن. ولكن من يبالي ؟ فنحن هنا نقوم بقص الشريط لصرح حب بالغ التناقض ..

كان عليّ بذل جهد هائل من أجل تناول بيف بورغينيون بأناة ، حيث تولى عضوي مهمة الحكم في المباراة المنعقدة بين عقلي ومعدتي. وفيما نقرع أقداح (كلوس ديس جاكوبينس) التي بحمرة الياقوت ، أردد:

- في نخب القارعين!

- ما رأيك بشرب القهوة في بيتي ؟ - لا يفوتني بالطبع الغرض الشريف المتواري خلف هذه البادرة اللطيفة.

- عليّ اللحاق اليوم باجتماع عائلي - يا للكذبة! لو لم يسبقني أحدهم لمقولة "رفس النعمة برجله" لقمتم بإيجادها..

أصرت على إيصالي إلى المكان الذي أنوي الذهاب إليه ، فصعدنا البورتش. لقد توفي والداي منذ زمن بعيد ، وبحسب آخر معلوماتي فقد كان أخي في غازي عنتاب. كان من قبيل التناقض العودة إلى أصدقائي المشردين ، مع النبيذ الفرنسي المتجول المرافق لدمي ، والطقم الإنكليزي الذي أرثديه ، والحذاء الإيطالي الذي أنتعل ، والأسوأ إن شاهدني بدري

دوبارا أتجول في الأرجاء ، فمن المؤكد أنه سيعاود طعني. أفضل الاحتمالات الذهاب لرؤية زوج أُمي الذي لم أره منذ ما يقارب الثلاثة عشر عاماً ، آمل أنه لا يزال يقطن في شقته في (كيزيل توبراك).

ترجلت من السيارة أمام بناية (دار السعادة) ، فسألتنني فوجير في مواربة مهذبة:

- أتسكن في هذا البناء؟

- حالياً.

- ألن نتبادل أرقام الهواتف؟

أها؟ لم أكن أعلم رقم الهاتف الجوال الذي أحمله في جيبي.

- أعطني رقمك وسأتصل بك.. - قلت.

أعطتني الرقم وبدأت أضغط على الأرقام وحين ظهر رقمي على هاتفها قبّلت الشاشة. وقبل أن تعاود الضغط على الدواسات علقنت:

- لنر من سيّصل أولاً..

بدأت أحدس بأنّ هذه المرأة ستخلق رجلاً جديداً من قطعي المبعثرة.

- الأسرع يفوز.

هدرت السيارة ، ومع انعطافها نحو اليسار ، انضمت لقطع السيارات المتدفق في شارع بغداد.

كانت بعض البنايات القديمة في الشارع قد تمّ هدمها ، لتقوم مكانها بنايات حديثة. ضغطت جرس الشقة التاسعة ، فانفتح الباب ، وارتفع بي المصعد نحو الطابق الرابع. كان رجل ستيني يرتدي روباً منزلياً ، ينتصب أمام باب الشقة ، وبالنظر إلى حجم

بطنه ، فمن المرجح أنه حامل بنوبة قلبية. ولا بدّ أنّ لفافة التبغ القصيرة بين أصابعه ، هي السبب في الدخان المنبعث من فمه أثناء الحديث ، وصوته القريب من صوت محرك قديم:

- أين كنت يا رجل ؟ لقد أحال الانتظار اللوحات إلى لطخات مختلطة..

- لم أفهم ؟

- ألم تأت من أجل تعليق اللوحات ؟

- لا سيدي ، أنا أبحث عن السيد كاموران.

- ها ! كان من المفروض أن يرسلوا إليّ أحد موظفي المونتاج من المعرض.

تفضل ، كامو في الداخل.

- شكراً ، لا أريد الإزعاج ، فقط أودّ طرح سؤال عليه وسأرحل.

- لا تختفِ ، سأخبره.

عندما رأني كاموران على العتبة ألّمت به دهشة كبقرة أطاح بها الإعصار. كان يرتدي بلوزة مقصبة مزركشة وبنطالاً قصيراً ضيقاً فسفوري الخضرة. وعلى الفور تداخلت صورتان في ذاكرتي: تعرضي لعضة شامبانزي حين زرت حديقة الحيوان برفقة كاموران في طفولتي. والصورة الثانية من العام المنصرم حين قام عملاق مثليّ بمحاولة التحرش بي على حلبة المصارعة أثناء منزلته. لم أكن في وضع يسمح لي بتقييم زوج أمي الطيب القلب. مددت له يدي مبتسماً ، فسحبني نحوه واحتضنني وتصافينا. كانت كتل البوتوكس في وجهه تسبب أخطاء تعبيرية:

- جيفان ؟ أنت حي ؟

الفوز على حلبة المصارعة ،

والخسارة على مسرح الرقص

«لو أنّ لهذا التمثال فماً لينطق».

(هوانغ بو ، 1857-1794 ،

ما بين التمني والاحتمال ، المجلد السابع)

رفقة التماثيل في حديقة كالاميش ، بقيت عيناى مثبتتين على الأفق دون رُمس ،
فيما أراقب السفن الراسية في الميناء وكأنها خيطت ببعضها ، فالبحر بات غير مرئي في عتمة
الليل حيث المياه قد غيرت لونها. المكان مقفر وبارد كمستودع متحف العصور الجليدية ،
فيما الأشباح تلعب كرة الطائرة. توقفت إحدى سيارات الشرطة المناوبة خلفي ، وتناهى
لسمعي خطوات اثنين من الشرطة.

من السهل تمييز المتخرجين تواءً من الكلية من بينهم ؛ أيديهم ليست فقط
مرفوعة ، بل تكاد تلوح في الهواء ، معنوياتهم عالية ، ولديهم القدرة على التندر بفكاهة بين
الحين والآخر دون ظلال من الإهانة.

- أنت أيضاً شعرت بالملل من الحفل؟

لم أتحرك.

انضم زميله أيضاً إلى النقاش:

- هل تخلت عنك حورية البحر؟

- لست أخلّ بأي نظام.. - أجت.

ورغم عدم وجود العصابة حول عينيّ ، ورغم تغيّر هيأتي ، فقد تعرّفا عليّ ، وكان من المعجيين بمبارياتي. حتى أنّ أحدهما تحمس وبدأ يلاكم ظله ، فيما الآخر يتصنع أنّه يتلقى اللكمات ، وهو يترنح يميناً ويساراً ، متوجعاً: آه.. آآخ.. لم يكونا أفضل من فأر برأسين..

أخبرني زوج أمي (كامو) بأنّ أخي مات منذ خمس سنوات في حادث طائرة في عنتاب. وأدركت أنّ الجثث هي من تتحكم بقيادة أقداري في منعطفات الحياة. بينما نازلي هلال وأوزان قد انتقلا للعيش في منطقة أجي باديم ، والعنوان قابع في جيبي.

انتهى بي المطاف مع الشرطيين في أحد المطاعم ، لأتناول فطوراً بشهية أضاعها السهر طوال الليلة المنصرمة. وقد أوصلاني لاحقاً إلى منزل أرملة أخي وابنه اليتيم. دخلت حديقة البناء ، وفيما أضمن أي الأجراس عليّ أن أرّن ، فتح شاب أمهق الباب.

- في أي شقة تسكن السيدة نازلي هلال ؟

قال وهو يتمعن في عينيّ متفحّصاً:

- على اليسار الرقم ثلاثة.

شكرته.

لم تتغير نازلي هلال ، في نظري ظلت قائدة كل النساء الذكيات في الكون. قالت في ما يشبه الهمس:

- أهلاً بك جيفان. - وطوقنتني بذراعيها في خفة.

- أهلاً بك ، هل أوزان نائم؟

- أجل ، تفضل بالدخول.

يشي طابع الأثاث بتكشف كئيب ، فمن الواضح أنّ الكثير من القطع إمّا تمّ نقلها أو بيعت.

- أخي.. أعني البقية في حياتك.. - تلعثتُ..

لا بدّ وأنها لاحظت التورمات في وجهي ، وعضاً عن ذلك سألتني:

- كان يظنك ميتاً ، ونحن كذلك. أين كنت ؟

لا أحد أبرع من الأموات في طقوس الجنائز والكيفية التي يتوجب التصرف بها في التعازي. لذا فقد بحث بالحقيقة عارية:

- كنت في الشوارع..

بعد برهة ظهر أوزان. كان قد كبر وقد تساقط شعره كله ، وكان يغطي أنفه وفمه قناع طبي. لست بحاجة لأكون طبيياً لأدرك أنّ ابن أخي الوحيد مصاب بالسرطان. فرك عينيه المنتفختين ، وعلى عكس شرطي الحديقة ، لم يتمكن من التعرف عليّ.

- قل مرحباً لعمك جيفان - طالبته نازلي هلال في رجاء.

فاقترب أوزان مني ، ومدّ يده وهو يقول:

- مرحباً ، أنا أوزان.

احتضنته ، كان نحيلاً ، رقيق العظام. وكأنني أمسك بغلاف قطعة بسكويت هشة.. كنت مصدوماً..

مضت سنون وأنا أتلوى في هاوية من الوحدة ، كنت مجرد وضع فقد ماله ، ملكه ... شرفه ... عائلته ... أصدقاءه ... عمله ... مشاعره ... عقله ... صحته ... منزلته ... اسمه ...

طريقه. كنت أخوض صراعاً مهميتاً ، ناسياً حتى في أي كوكب أعيش. إن سألتهموني ، فالأبدية هي المعاناة التي يضطرم بها جسدي الفاني ، بعد أن اتخذت القيامة جسدي نقطة انطلاقها.. كنت متيقناً من أنّ هزيمتي واستسلامي أمران مبرران ، ولا أحمل على وزري أي مسؤولية. وكندف ثلج انهيار جليدي تناثرت في إحدى العواصم ، لم يكن يخطر لي - ولو للحظة واحدة - أنني سأدمر المنازل ذات العمود ، الدافئة المضاءة على رؤوس قاطنيها ، وأحيل حياتهم كدراً وآلاماً.

- إن لم تسامحني ، فلن أتمكن من التحرر مطلقاً. كعبد فاقد العقل والصحة ، ستظل روحي تنازع السم الذي تجرعه ضميري - هذا ما أردت أن أقوله لابن أخي ، ولكن - عزيزي.. سأشتري لك قدر ما تشاء من (السينيكرز)..- هذا ما نطق به لساني..

كانت البعوضة الآلية قد امتشقت سيفها في تلافيف دماغي ، وبدأت تطلق الشرر..

لو لم يسبقني أحدهم إلى مقولة: «الفوز على حلبة الملاكمة ، والخسارة على مدرجات الرقص» لقيمت بإيجادها.

في مرمى الصنارة والبندقية معاً

«إن كنت غائراً في المستنقع حتى

الخصر ، فأنت غارق لا محالة».

(مثل بيغمي) 23

كان حجم المكافأة المخصصة للقضاء علي من الإغراء ، بحيث أنها كفيلة لإغواء حتى ظلي لتصويب النيران علي .

وحقيقة الوضع ؛ كان أخي قد توفي ، وابنه مصاباً بسرطان الدم ، وبحسب ما أوضحت نازلي هلال ، كان يتوجب العثور على ناقل مناسب بالإضافة إلى مائتين وخمسين ألف ليرة. كنت مفلساً ، وقد طعنت على يد بدري دوبارا. وإن علمت مافيا قتال الشوارع بأني على قيد الحياة ، فقد انتهى أمري. أما الرقاقة التي عرض علي معصوم جيغي وضعها في رأسي ، فقد كانت هناك بالفعل ؛ ذلك أنّ من وعد أوزان بالسنيكرز لم يكن أنا بأيّ حال. وبذلك كنت في مرمى الصنارة والبندقية معاً.

قمت بزيارة أخي ووالدي في مقبرة (كارجا أحمد).. كانت قبورهم متباعدة ، وقد أدركت حينها أنه من المحال جمع شتات عائلتي حتى في يوم الحشر. ولكنني حين قراءة اسمي على شهادة أحد القبور ، انتابني الذعر ، وتذكرت اليوم الذي وضعت فيه بطاقتي الشخصية في جيب الجثة التي ألقيت بها على سكة القطار. فقرأت الفاتحة على روح فيرك الذي يمثلني حالياً في حديقة العظام هذه.

تقدمت بطلب وظيفة في مدرسة (كيسيك باش) الابتدائية التي كنت أدرّس فيها

سابقاً ، وقد عيّن فيها مدير جديد. لم يكلف نفسه عناء النهوض عن كرسيه الجلدي ، بل أشار برأسه الأصلع الذي تلطخه شامة كزرق حمامة ، لكي أدخل. حاجباه يلمعان ، شفتاه كدودة شرطية منثنية يتموضع فوقهما شاربه الذي كبزاقة رخوة ، أما أنفه فمقدمة التراكاتور. والظلم الذي يرتديه الوغد أكثر التصاقا ببدنه من بدلة غوص ، أما ربطة العنق المخططة ، فكانت تذكر بالأشرطة الأمنية حول أماكن الجرائم. على اللوحة النحاسية المنصوبة على الطاولة كان اسمه مدوناً ؛ هاكي ل. برفين. كنت سأسأله إن كان يحب رواية هكلييري فين 24 ، ولكنني تخلّيت عن الفكرة مدركاً أنه سمع هذه الدعابة مئات المرات سابقاً.

- أين كنت طوال هذه المدة؟ - أهو مجرد جبان من الصنف الرديء ، أم وغد داخل عباءة الجلد والهيكل العظمي؟ فبعد آلاف الجولات من قتال الشوارع ، بت أصنف كل من حولي منافسين محتملين.

- كنت على الصراط المتين الواصل بين الحب والموت.. - همست.

قاطعني:

- ماذا؟ لم أسمع ما قلت.

- سيدي المدير ، لقد كانت خطيبتني ضحية الزلزال ، وكنت في حالة حداد ، وفقدت الرغبة في مواصلة الحياة ، فكما تعلم.. لقد خارت قواي. أما الآن فأنا مجبر على العمل ، وآمل العودة إلى مهنة التعليم.. هذا كل ما في الأمر..

رد عليّ بصوت مواس متسامح:

- أخي العزيز ، حين يغيب موظف عن العمل لمدة عشرة أيام دون إخطار رسمي ، يُقال من عمله ، وتبدأ الإجراءات الرسمية بحقه. أما أنت فقد اختفيت لما يناهز سبع سنوات ، لذا حتى لو تمّت إعادتك إلى الوظيفة ، فالقانون يقتضي أن تنتظر عاماً كاملاً ، وأكثر من ذلك فأنا لا أملك سلطة قرار تعيينك للعمل في هذه المدرسة.

لم يطاوعني لساني كي أشرح له وضع أوزان الصحي ، كما أنني قد اعتدت
المواجهة والتهديد أكثر من الاسترحام:

- أستاذي ، أقول لك بكل احترام ، سأجعل من مؤخرتك المكتنزة التي تتربع
على هذا الكرسي الجلدي لهماً مفروماً ، وأقطع رأسك لأزين به جدار مرحاضي ، وفي الحائط
المقابل له سأعلق رأس السيدة والدتك المحترمة ، بعد أن أحيل دار العلم والتربية هذه إلى
هرم من الرماد ، وأنا أنتزع أمعائك وأملأها بالبنزين قبل إحراقها. أرجو أن تعي تماماً ما
سأقوله لك: غداً قد يكون أقصر يوم في الساعات القليلة الباقية من حياتك.

استقبل كلماتي بمتانة ، بل بفتور:

- سيد جيفان ، أقدّر صدقك. ولست راضياً إطلاقاً عن إبعاد شخص بمثل ذكائك
الفائق ومؤهلاتك عن طاقم التدريس. لذا أرجو أن توافق على العمل معنا كمعلم متعاقد -
وأجال نظرة على الكمبيوتر الموضوع على طاولته - وأنا أعرض عليك برنامجاً أسبوعياً
لتدريس التربية الرياضية لعشرين ساعة دراسية في الأسبوع ، وهذا يماثل الحصص
الدراسية الممنوحة لمعلمينا الأصلاء.

- ما يعني؟

- ما يعني أنك ستحصل عن كل ساعة دراسية على ست ليرات وخمس وثلاثين
قرشاً - ولجأ إلى آلتة الحاسبة - وبذلك.. سيكون المبلغ الشهري خمسمائة وثمان ليرات. وفي
بعض الأشهر قد تتمكن من الحصول على خمسمائة وأربعين ليرة أيضاً..

- هذه النقود لن تمكني من شراء قلم حمرة عنابي اللون من (سيفورا).. هل
تسخر مني؟

- إطلاقاً. هذا كل ما في وسعي القيام به. اليد قصيرة والعين بصيرة لأسف ، لو
أنا نستطيع ردع ما ليس له من مهرب سيكون ذك رائعاً ، أليس كذلك؟ سندفع مرتبك من

ميزانية المجلس العائلي للمدرسة. كما سأطالب في مذكرة إعادتك ، بأن تعمل ضمن فريق مدرستنا ، ولا أظن أننا سنواجه عرقلات في هذا الشأن. كما ترى لم يمض على تعارفنا إلا بضع دقائق ، ومع ذلك فأنت أكثر من أخشاه على وجه الأرض - وأردف كلامه بابتسامة تماثل ابتسامة رجال الشرطة في صورهم التذكارية مع جثث الضحايا.

نهضت في ضيق ، ونظرت إلى الدولة المتجسدة في شخص هاكي ل. بيرفين

شذراً:

- إنها مهزلة حقيقية..

استقام مستنداً بكلتا يديه على حافة الطاولة. ومن خلف الكرسي تناول زوجاً من العكازات ، حينها فقط أدركت أنّ المدير فقد ساقه اليميني. وقد ذكرني هذا المشهد المربك ، باللحظة التي عثرت فيها على جسد سربيل سيلاحي بيدي.

- عليّ تعلم التحلي بالصبر عاجلاً - رددت في نفسي ، وأنا اشعر بأنني أشاهد صورتني في مرآة هائلة محطمة..

رافقني حاكم (كيسيك باش) حتى الباب وهو يقول:

- إنّ آلية عمل الأنظمة والمؤسسات هي إنقاذ نفسها أولاً ، وليس البشر ، وإلا تعرضت للانحطاط.. إن كنت تريد الانضمام إلينا ، فأنت تعرف العنوان..

وكشبح ملعون أومأت برأسي في إذعان ، وتحولت إلى دخان.

لو لم يسبقني أحدهم لمقولة «محمي القامة كراية الهزيمة» لقممت بإيجادها.

لقد صانتني العطالة عن علة الصراع ، عن المنافسة ومذلة القلق. ولكنني الآن واحد من ملايين المطالبين بحصتهم من مردود الستة وخمسين ترليون دولار السنوية. وكما ستلاحظون بعد قليل سأغدو طُعماً للغول التقني الذي تغذيه رأسمالية الخيال العلمي.

حتى أنني منذ الآن بدأت أشعر بنفسي أكثر عجزاً من سمكة أسيرة بين مخالب نسر طائر.

البهلوان الذي فقد التوازن

على الطريق المستقيم

«حين أتأمل دماغ الإنسان ، تتتابني

الحيرة من قدرة كتلة الهلام هذه

على إبداع شيء كالمنطق».

(إرنست بوبيل)

في باحة مدرستي التي تصحرت ، اتصلت من هاتفي النقال الأشبه بمسدس ليزري ، بمعصوم جيحي. وقد ردّ عليّ من الرنة الأولى بنبرة اختيال:

- ألو!

- السيد معصوم؟

- أترى سيارة الكاديلاك إدورادو السوداء موديل العام 1967 الواقفة قبالة باب المدرسة؟

- أجل!

- سيقوم السائق بإيصالك إليّ سيد جيفان. - وأنهى المكالمة.

ترجل السائق من السيارة وزرّر جاكيتته ، ومن ثم قام بفتح باب السيارة الخلفي ، كان السائق الأشقر بجسده المثلث ، الآتي للحاضر من الماضي ، رجلاً من طراز هتلر.

ومسدسه معلق بين المنكبين وكأنه بضاعة معروضة للبيع..

جلست في المقعد دون سلام أو كلام. كانت المدينة مع حلول الغسق ، أشبه بلوحة مائية لم تجف عنها الألوان بعد. طوال الطريق كنت أحاول لملمة شتات فكري ، حيث القروء المستقرة في مجمعتي قد أحالت دماغي ميداناً حربياً ، ومن ثم بدا وكأنها اختفت فجأة. وكأنني كنت أراوح بين الاستقراء والاستنباط.

أصدر الجوال رنة ؛ رسالة قصيرة من فوجير فوجي: «أيمكننا اللقاء غداً؟ إن كان ردك نعم اتصل بثلاث رنات ، وإن كان لا فاتصل بسبع وعشرين رنة». كل ما تقوله أو تكتبه يفوح بعبق جنسي ، كل عرض أو طلب من هذه الجائحة المثيرة يزلزل كياني. أبعث بكلمة «نعم» لهذه الأنثى الجامحة ، وأنا أفكر في تأجيل الدخول إلى قفصها.

كانت خالتي الصهباء فينيما العجوز التي تعيش على ساحل (كاوي كوي) تقول: «إنّ البشر أموات قد خرجوا برهة لتنشق الهواء». كانت هذه الكلمات تهدئنا ، وفي ذات الوقت تثير فينا نوعاً من القلق أيضاً. أما الآن فمشاعري كشريحة من البيتزا البائتة ، تتقد في صدري فوق شبكة شواء أضلعي الصدرية.

وصلنا إلى مقرّ معصوم جيحي السفلي ، واجتزنا حديقة الباولونيا ، ودخلنا الحجرة الخشبية الأقرب لحجرة القناصة الهواة ، حيث المصعد السري ، الذي نزل إلى الطابق السابع. اتجهت برفقة السائق المسلح إلى مكتب مديره.

نظرت إليه بتمعن كمن يقول: «أعلم أنك لاحظت بأنني أدركتُ قيامك بزرع تلك الرقاقة في رأسي» ، قبل أن أقول له:

- مرحباً.

علت شفته ابتسامة ملتوية.

- أنا واثق بأننا سنتمكن من حلّ المسألة بشكل ودي.. - ومدّ يده مصافحاً من

خلف طاولته.

ليس بالضرورة أن أكون شرطياً ، لأشك بصدق ما يقول .

- بداية أريد أن أعرف كافة خصائص الرقاقة ، فهي تستطيع تحديد موقعي ،
والتحكم بكلماتي ، وسوى ذلك ؟

- فقط ..

- هل تستطيع التحكم بأفكاري أو مشاعري ؟

- لا .

- ولكن تستطيع التنصت على كلامي ..

- هذا ممكن ..

- إيه ؟ ؟

- بالطبع لدينا أعمال أكثر أهمية ، لكننا قمنا بتسجيل حديثك في أول يومين ،
وذلك من أجل قياس سرعة الكلام ، خصائص اللفظ وعدد الكلمات التي تنطقها في زمن
محدد ، والهدف هو قيام كاتبنا بتأليف نصوص إعلانية تناسب طريقة تعبيرك ، حتى لا تشي
الإعلانات التي تردها بطابع تجاري بحت . ما يعني أنّ نصوص خاصة تُكتب من أجلك .

- ومن الكاتب ؟

- ألبير جانيغوز .

- مؤلف (أحلام سعيدة) ؟

- أجل .

- إنه فخر لي ، فمن المؤكد أنه سيتمكن من قيادة لساني أفضل مني .. حسناً ، وما هو عرضك ؟

بدأ الحديث بسرعة كجهاز الملاحة في السيارات:

- ما يحدد الأجرة وضعك الاجتماعي ، وعدد الأشخاص الذين تلتقيهم يومياً ، ومعدل الكلمات ذات الطابع الإعلاني التي ستخاطبهم بها. وبحساب عدد الكلمات الإعلانية التي تنطقها في اليوم الواحد سيتم تحديد أجرتك اليومية. فأنت تنتمي إلى المجموعة (د) سيد جيفان ، أي أكثر الطبقات فقراً ، وبما أنك تعيش في الشارع ، فمدخولك ومنزلتك وتأثيرك يعادل الصفر. ولكنك بالمقابل تستطيع استقطاب الاهتمام من خلال المباريات اللاقانونية التي تخوضها ، والتي يتم بثها على الإنترنت ، وبالتالي فأنت تنتقل إلى المجموعة (ب) أثناء المباراة. ورغم ذلك فأنت لست من فئة الأبطال الذين يحاول الآخرون تقليدهم أو محاكاتهم. وهذا يشير إلى أنّ منسوبي المجموعة (د) يمكنهم تقديم ثلاثة أو أربعة إعلانات يومية في أقصى تقدير. كما أنّ هذه الإعلانات تتم إعادتها لعشرات المرات. وفي الأحوال الطبيعية فإنّ أيّ رجل من أبناء المدن يمكن له أن يلفظ حوالي سبعة آلاف كلمة مخاطباً أربعة إلى أحد عشر شخصاً. بينما ينخفض هذا العدد لديك إلى اثنين ونصف ، وكلماتك إلى ثلاثمائة وخمسين كلمة..

- إذاً ، لماذا قمت باختياري ؟

- النظام في مرحلة التجريب. ويمكن لبعض المشاكل أن تظهر.

- ما يعني أنّ بيضة المفاجآت التي في رأسي يمكن لها أن تفرّخ صوصاً؟ وحتى لو انفجر دماغي فلن يبالي أحد ، ألهدأ السبب أنا هنا؟

- لا تقلق ، من الناحية التقنية لا مشاكل إطلاقاً. كل ما هنالك أننا نحاول اكتساب خبرة في مجال حوادث التواصل.

- كم ستدفع لي؟

قام بتقلب صفحات الملف الموضوع على طاولته:

- المبلغ سيحول في أول يوم عمل من كل شهر إلى حسابك البنكي ، وستحصل على ستمائة دولار ، وهو الحد الأدنى من الأجور الذي تدفعه (باكت). ولكن إن باشرت التدريس ، فالموضوع سيختلف.

- كم؟

- في كل أسبوع لديك عشرون حصة دراسية ، ما يعني أنك ستتواصل مع ما يقارب الثمانمائة تلميذ. وبما أنك في موقع المخاطب ، فسيزداد معدل الكلمات والإعلانات ، وبالتالي سيكون مرتبك ألفي دولار.

- أحتاج لأكثر من ذلك.

- إن عدت إلى مباريات القتال إلى جانب التدريس..

- مستحيل. إنهم يظنونني ميتاً..

- ما مقدار ما تحتاجه؟

- مائتان وخمسون ألف ليرة.

- لا يمكننا منح هذا المبلغ سوى إلى الموديلات المميزة..

- إلى ليو ون ، سينيتيا ديكر وإيرينا شايك مثلاً؟ - (المصدر: مجلات لايف ستايل الملقاة في حاويات القمامة)..

- لا ، نحن لا نعتمد على الشكل ، بل على التميز في المخاطبة. - وفتح آخر صفحة من الملف ليكمل - أهم الخصائص التي نبحت عنها هي: رجل ، متفرد في مجاله ،

لديه طراز خاص من الثياب ، يقوم بدور أساسي في المناسبات الخاصة ، يعرفه تسعون بالمائة من سكان البلاد شكلاً أو اسماً ، يمتاز باحترام عريق وبق ، كسب جوائز معينة ، كما أنه يظهر في وسائل الإعلام العالمية ، ويحتل موقع المخاطب في التجمعات الجماهيرية..

- ولكن هذا هو.. البابا!؟

- معك حق.. ولكنه ليس تركيا.. حتى رئيس الجمهورية لا يتمتع سوى بثمانية من هذه المواصفات التسع..

- من الواضح أنني لست السوبر موديل ، ولن أصبح كذلك قطعاً..

- صحيح. ولكن إن ساعدتنا على تثبيت رفاقة في دماغ شخص يتمتع بهذه المواصفات فسنقوم بمنحك مليون دولار.

كنت قد نجحت في الاختفاء أثناء لعبة الغميضة التي استمرت لسنوات ، ولكن أصبح من المحال في ظل هذه الظروف مواصلة السير بأساليب فروسية منقرضة. كنت كالبهلوان الذي يسير مجبراً على حبل من القطن المهترئ فوق هاوية من العدم والفاقة. وأعلم أنني أخوض عملاً استقال منه الأذكىء ، وطُرد منه الحمقى..

كان سائق (باكت) الأشقر يتقدمني بخطوات ثابتة وتعبير بالغ الجدية يعلو وجهه ، حتى ليخال إليكم أنه متجه إلى لقاء الموت. اتخذنا مواقعنا في الكاديلاك ، وبدأ القبطان ذو سحنة الموت الجلدية بنقلي على وجه السرعة من دادائية25 (مشروعية كويو) نحو عديمة مدينة الجمهورية: فننننن!!

الرأس المنهوب ، الفم المغتصب

واللسان المسروق

«أنا من علمك الكذب السرقة والخيانة ،

أهكذا تقدم لي الشكر ؟ جاحدا!«.

(ماسيمو سيكون ، 1927-1971 ، العاشق المعربد)

كانت مكنسة الأقدار الكهربائية تقوم بسحبي .

في مشفى الأبحاث والدراسات في جامعة مرمرة ، قمت بإجراء تحليل الاختبار النسيجي ، وسأحصل على النتيجة بعد أسبوع. شخّص أوزان بمرض سرطان الدم منذ أربع سنوات ، وبدأت الأرملة ويطيها بجولات معقدة بين عيادات الأورام ، وعيادات الأمراض الدموية ، ولم يسفر العلاج بالأشعة أو العلاج الكيميائي عن الشفاء. كل أسبوع كان يخضع لفحص الدم ؛ الكريات الحمراء والبيضاء (معدل الكريات البيضاء ، الخلايا الليمفاوية ، الخلايا البيضاء الحامضية ، الخلايا البيضاء القاعدية) وتحديد معدلاتها. ولم يتم العثور على ناقل مناسب من أجل نقل نقيّ العظام ، وكانت نسبة العثور عليه ، أربعون بالألف ، وقد أخبرها الطبيب: «إنّ التوافق مع نقي أخوته سيكون ثلاثين بالمائة. فإنّ قمتِ بإنجاب طفل آخر..» ولكن لأنّ أخي كان قد توفي حينها ، فمن المحال على أوزان أن يُمنح أي أشقاء. تعلّم ابن أخي القراءة والكتابة والعمليات الحسابية في صفّ مصابي أمراض السرطان في المشفى. وقد تحول جسده الصغير إلى خزانة أدوية (بابا سنفور). وبعد حقنة من النيوبوغين²⁶ يُسمح له بمغادرة المشفى لبضعة أيام.

وقعت على العقد مع هاكي ل. بيرفين ، وبدأت التدريس في (الرأس المقطوع).
فقد كانت الخمسمائة وثمان ليرات ، هي الضمان للحصول على الثلاثة آلاف دولار من
(باكت). افتتحت حساباً بنكياً ، وقد دفع معصوم جيغي المبلغ مقدماً.

الأمطار الحمضية المبشرة بحلول الربيع ، تقوم بحرق لوحات الفايبركلاس
المضاءة. 27 والشمس تشرق وتختفي صعوداً وهبوطاً كما في أفلام الرسوم المتحركة. فيما
كنت ألقن الطلاب الثقافة الرياضية على وقع الأغاني الدعائية.

لا لا لا.. شوكولاه.. بالبندق مليئة.. شوكونات.. شهية هنيئة.. شوكونات..

أقول لهم طيروا (بالأديداس) واصنعوا جسراً كال. (دوريتوس) ، وبدل العامود
أقول (آبل) ، وسيروا إلى الأمام في (دوم بيرغينون) ، وإلى الخلف عودوا يا (شوكوبرينس) ،
وقد حلت علامات تجارية مثل (شيسيدو ، باربوس ، ميكيموتو..) محل الكلمات العادية..

حتى أنني وبدل أن أقول لهم تنفس ، كنت أقول تنستل..

وأهتف ملء حنجرتي:

- (دانوني) لبن بنكهة الفاكهة ، لا يترك بقعاً على بيجامة (أديداس) الرياضية..

ومع انتهاء الحصة الرياضية كنت أخطب الطلبة الغارقين في العرق:

- من أجل التخلص من رائحتكم التي تدفع حتى الخزازير للانتحار ، مزيل العرق
(جاكبير).

أيمكن لنا تصدير منتجات مصنوعة في هذا العالم إلى الجنة؟ لم تفارقني هذه
الفكرة فيما أخطبهم ساخراً لأمزج بين الجهل والفاكهة ، وأنا أجور على أفكارهم:

- ادرسوا جيداً في حصة التربية الدينية ، حتى تكافأوا بتناول (الغيدا) بعد

موتكم.

كنت أطبق سياسة القطيع ، تحت غطاء من روح الفريق. وقد جعلت من لساني عجلة استثمار آلي لا تتوقف. وبعد مدة تكيف الأطفال مع المصطلحات الدعائية التي كنت استعملها في الحصص الدراسية.

- أستاذ! هل تريد أثناء الامتحان تناول الشوكوبرنس مع كأس دوم بيرغينون؟

كان دماغي كمفعل تشرنوبيل ، ولساني دلنا ملغومة ، ومع كل نفس كنت أنتشقي كلوريد السيانوجين. أما بهجتي الظاهرة كمهرج بدين في حوض ماء ، فكانت تتناقض بشكل صارخ مع تجهم بقية المدرسين النازي.

لقد وضعت شرفي قيد التداول من أجل أن يواصل ابن أخي الحياة ، وكنت مدركاً تماماً أنّ النوايا الطيبة لا علاقة لها بالبراءة على الإطلاق. كان الوعي يدرك متألماً أنه لا خلاص له من الضمير ، كما لا يمكن سلخ اللحم عن العظام.

وفيما كنت أسير خلف الطلاب الذين يدخلون المدرسة في صف واحد ، وقعت عيناني على عبارة أتاتورك المنقوشة على لوح معدني:

«أيها المعلمون! سيكون الجيل الجديد من إبداعكم».

هيهات!

فإبداعي سيكون الاستحسان الجماعي ، للتضحية بالصدق بأكثر الخدع دهاء ، وللإخلاص بأكثر الخيانات تأثيراً ، وللأمانة في سبيل أكثر المكائد شراً..

الحمقى يظنون الأشرار أذكاء

«لو صنعت قوالب الصابون على شكل أهداء ،

لأصبح العالم مكاناً أكثر نظافة».

(كاينوس بلينيوس سكوندوس ، 23-79 التاريخ الطبيعي)

كنت أقيم في ردهة الشقة المؤلفة من ثلاث غرف في (أجي باديم) ، وفي الأيام التي يبقى فيها أوزان في المشفى ، كنت أظل أنا ونازلي هلال وحدنا.

كان حدسي الداعر يقول بأنّ الأمور ستتعدد عما قريب.

جافاني النوم ، البيت موحش صامت ومظلم ، تماماً كحال عقلي. سمعت وقع خطوات نازلي هلال. كانت ظلال الحداد ترخي بحزنها على بشرتها الشفافة ، وهذا الحزن يضيف سحراً على جمالها. لم يحاول أي منا تجاوز المسافة الموضوعة بيننا ، كنا قريبين لا يعرف أحدهما الآخر. لقد راقصتها خلال العرس لمرة وحيدة ، وحين قلت لها:

- أنت أجمل عروس في كل هذه الصالة - ضحكت.

والآن أبدو كديك صاح في غير أوانه ، دخل حياتها بصفة متطفل ليس إلا! وبعد سبع سنوات من التيه في الشوارع ، تهرغت فيها رغباتي الجنسية في وحل التشرد ، باتت هذه الرغبة أقوى ورقة في يد الشيطان ليضغط بها عليّ. إنّ أسوأ الكوابيس على الإطلاق ، تستمد موضوعاتها من الحياة ذاتها. لقد كنت أختنق في نفق التستسترون الذي يفيض به جسدي ، وقد انتقل عقلي إلى سحاب بنطالي ، كنت أشبه بطائرة تتجه للسقوط في غابة

مشتعلة. ولكنني لم أكن راغباً في مغازلة نازلي هلال ، صحيح أنها كانت بالغة الجاذبية ، قوية وذكية ، ومن جيلي ، طيبة القلب ، تثير الإعجاب من كافة النواحي ، وما من رجل على وجه البسيطة يمكن أن يقول لها: «لا» ، بل وحتى الكثير من النساء أيضاً.. ولكن حباً بالله! لا يمكنني الاقتراب من سيدة ظلت وفيه لذكرى أخي حتى بعد أن فرقهما الموت. كانت المساءات تحيل المنزل إلى فندق يديره الشيطان ، وهو المعروف بحنكته في تسعير الرغبات وتقريب الشتات ، ورغم كل ذلك لم أسمح لجسدي بالتغلب على منطقي .

نهضت من السرير وبخطوات لص اتجهت نحو المطبخ ، كانت نازلي هلال تدخن على الشرفة ، تستحضر صورة إبريق ساخن من البورسلان. السماء التي كغطاء من المشمع ، تتخلله غيوم تفوح برائحة المازوت ، كانت كفيلة بخلق جو يفضي بك إلى التعرض إما لنوبة قلبية أو إلى الانتحار أو حتى إلى ارتكاب جريمة. وقد بدا القمر كأنه سقط في شباك العنكبوت المتدلّية من سقف عرزال قديم. وخوفاً من الوقوع في الشرك الرومانسية المترصدة بين حدود الذنب والضعف حاولت لململة أسمالي والقهقري نحو السرير. كنت أشعر وكأنني مسلوخ الجلد مرمياً في مستعمرة للنمل اللاحم ، أجاهد للصمود قبل أن يتلغني الدوار. السقف مليء بتشققات دقيقة أشبه بتلافيف الدماغ ، لا بدّ وأن من سبقني إلى الوقوع في وضع مماثل ، قد وجد الحل الأخير في الانتحار بطلق ناري. أنزلت الدرف على عيني ، وحاولت الانشغال بعدّ أنفاسي لاستحضار النوم بأقصى سرعة ممكنة.

تتالت ذكرياتي مع أخي في الفترة التي كنا نلازم فيها نادي الملاكمة ، كان وسيماً بالغ البراءة ، قليل الكلام ، يتسم بحكمة وكأنه ضليع بكافة أسرارك. لديه نزعة سفسطائية ، ويمتلك القدرة على فهم رغباتي أكثر من قدرتي على التعبير عنها. يحب قراءة الروايات ، لو تعرفت عليه لأصبحتما صديقين جيدين ، ولكنك لم تكن لترغب في مواجهته على الحلبة. فما إن يبدأ المباراة ، حتى يتحول إلى بركان من اللحم والعظم ، يعاين رقيبته في اتزان ، ويحوله خلال ثلاث ثوان بقبضتيه الغرانيتيتين إلى شلال متدفق من الدماء. كان في السابعة عشرة من العمر ، ولا يرغب في أن تغيره الأشياء التي يعجز عن تغييرها. ولكن برائن

الأقدار الحادة ، اقتلعت قلبه وأطاحت به بعيدا. كانت كل تلك اللكمات القاضية التي تقوِّض خصمه ، موجهة نحو الوحدة لا غير..

العالم مليء بالأوغاد الذين لا يتوجب أن يصبحوا آباءً. كان أبي السيد نوزت آلة لخداع الذات تعمل دون كلل ؛ موظفاً في دائرة جمارك (حيدر باشا) ، يظن نفسه كريماً ، صادقاً ، ناضج الفكر ، شجاعاً ، ذكياً ، رفيع ذوق ، عطوفاً ، عفيفاً وخفيف الظل. ولكنه كان جاهلاً ، منافقاً ، وضيعاً ، جباناً ، أحمق ، قليل الأدب ، بخيلاً ، ماكرًا ، عديم الشرف وفضلاً. وقد أحالتنا مساوئه إلى مجرد حمقى ، والحماقة مع التقدم في السن تتحول إلى الجنون. كان يوم زواج أمي من أبي ، هو أسعد أيامها حتى ذلك الحين ، ويوم طلاقها كان كذلك أيضاً. ظل أخي رهين برائن أبي ، وقد تزوج من امرأة سفيهية تتناسب مع سوقيته ، وضيعة مزاجية ، لا تترك أي أثر جيد لدى من حولها. وقد كان ضرباً من المستحيل - بطبيعة الحال - أن أتمكن بعقل طفولتي من تحليل تفاصيل الحياة العائلية ؛ هذا الهراء المقدس لكتيبة مخدرة ارتدت زيتها تحت الجلد ، وتقع في سجن بيولوجي. لم أكن أستوعب مغزى اللازمة التي كانت ترافق عمليات التعذيب في الغرفة الخلفية وهي تنتهي إلى مسمعي.

- لمن هذا اللقيط مرَّط العينين؟

ولا الكدمات على وجه أمي ، ويدا أبي الداميتين ولا دموع أخي.. لذا فالانطباع الذي تثيره لدي «الصورة العائلية» هو مجرد بقع زيت طافية من محرك عاطل فوق بركة مياه آسنة.. وحين لم يتمكن أبي من تخطي أولى نوبة قلبية ، اجتاح أخي أوكان سخط عارم ، فمع ثقل حساب معنوي غير مدفوع بينك وبين ربّ العائلة الذي يغادر فجأة إلى قعر الجحيم ، ستفقد أملك في مسامحته إلى الأبد ، وستكمل طريقك بخنجر مسموم انغرز بين أضلعك. فالشراك التي نصبها نوزت أفندي ، قد أصابت أخي برصاصة تركت فيه جرحاً لا يندمل.

بعد مضي وقت لا أدريه ، جاءت نازلي هلال لتوقظني. مشاعر الشخص الحقيقية

اتجاه الطرف الآخر تظهر بوضوح حين إيقاظه.

- جيفان!.. - كان صوتها لطيفا ، جعلني أفكر بأنّ لدي اسماً جميلاً. لمست كنتفي في حنان رسمي..

كفيلٍ يستفيق من آثار طلقة مخدر في محل للعاديات ، نهضتُ ببطء شديد ، فتراجعتُ. فركتُ كلتا عيني بأصابعي ، وشعرتُ وكأنّي أردي قناعاً ضيقاً فيما أقوم بسرقة بنك ما.

تجاذبنا أطراف الحديث على مائدة الفطور ، وحين بدأتُ الكلام ، أخذتُ أسترّد وعيي رويداً رويداً ، وقد تبددت وساوسي في عطسة سوبرمانية.. كان حديثنا ينساب بطبيعية ، كبطة تسبح في الماء برفق ، في هدوء وانسراح.

أخبرتني نازلي هلال أنها تعمل سكرتيرة في عيادة طبيب نفسي يدعى سوبة سوي في شارع بغداد ، تنسق المواعيد ، وتنظم الأرواح المتعبة في صفوف متتابعة..

كانت قد ركنت الاهتمام بأنوثتها وجمالها جانبا ، وتعلقت كل آمالها بشفاء ابنها في أقرب وقت ممكن. كانت الأمومة بالنسبة إليها امتحاناً عسيراً ، ولكن عودتي في ظل وحدتها ، قد أنعش فيها الأمل قليلاً. فإن تطابق نسيج النخاع بيني وبين أوزان ، لن يبقى من مشكلة سوى إيجاد النقود.

لفتت انتباهي الصورة المركونة على جدار الممر ؛ كانت لعجوز تجاوز السبعين من العمر ، في الحديقة مع فتاة صغيرة في حوالى العاشرة من العمر ، يلعبان ثلاثة كلاب في الحديقة.

- الرجل في الصورة ، يشبه سيغموند فرويد - عقلت.

- إنه هو بالفعل ، أيقونة التحليل النفسي. والفتاة الصغيرة هي مابي بورلينغهام - ردت - والكلب إلى جوار فرويد ، ذلك الأسود هو لي يونغ ؛ هدية من دوروثي جدة مابي

- هل قام أحدهم بإهداء كلب لفرويد؟

- أجل ، إنه هناك.

- هل لهذه الصورة قيمة معينة لديك؟

- لا أعتقد. كانت معلقة في عيادة الدكتور سوية سوي ، وقد سقطت حين كنا

ننظف المكان ، وانكسر الإطار والزجاج ، فقمتم بإعادة تطهيرها ، وأنوي إعادتها منذ بضعة أيام ولكنني أنسى..

- صورة غريبة.

- معك حق.. كانت أنا ابنة فرويد تعيش في لندن مع دورثي ، فقبيل وفاة فرويد

بعام واحد ، أي سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين ، هرب من ملاحقة النازيين ليقوم في لندن. والمنزل في الصورة تحول إلى متحف في العام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين. أمّا مايب بورلينغهام ، فقد انتحرت في منزل فرويد العام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين.

تميمة القبر

الربيع انعكاس الخريف ، فالشمس المؤرقة ، تحاصر الغيوم الإنكليزية الطراز ،
فيما تهب رياح ديبلوماسية من أجواء الحرب الباردة. بينما شبكات عنكب عملاقة نسجت
في الفراغ الفاصل بين المآذن وناطحات
السحاب.

كانت بشرة أوزان بلون البسكويت بالسهم ، مغطاة بالشمس. ومع حلول المساء
أمسكت بيده وأخذته إلى مركز الباوهاوس للتسوق. وبدل الألعاب قمنا بشراء ميزان مائي
ألماني الصنع ، متر معدني ، وملصقات حائط فوسفورية اللون.
لقد توليت مهمة الأبوة عن أخي.

مع صوت الرسالة التي وصلتني هاتفياً ، تشتت انتباهي ؛ إنها فوجير «كلانا لسنا
في المكان الذي لانحبّ أن نكون فيه»..

احتضنت أوزان قائلاً:

- أنت طفل جيد..

- وأنت أيضاً طفل جيد..

تمنيت أن أتمكن من النضوج مثله لاحقاً ، حيث أنه يبلغ السابعة ، فيما أبلغ
الثلاثين.

- حين كنت في عمرك ، كانت لديّ أمنيّتان - أوضحت له - أن أعزف لحن أغنية

(أبيع السمن ، أبيع العسل) على الناي ، وأن أطرح أحد مقاتلي الكونغ فو أرضاً. ولكنني لم أتمكن من تحقيق أي منهما.

- إن كنت لا تزال راغباً في عزف أغاني الأطفال على الناي ، فأنا أستطيع أن أعلمك. وبالمقابل أنت ستعلمني القتال.

أجبت بحبور:

- فكرة جيدة ، هناك من تريد أن تطيح به أرضاً؟

هزّ رأسه موافقاً:

- مصاصو الدماء.. هل قمت من قبل بالإمساك بأحدهم؟

- لها تسأل؟

أجابني بنبرة حزن صادقة:

- أظنهم من قتل أبي..

- كيف ذلك؟

اتقد وجهه كمدفأة أسي مشتعلة في إحدى المنمنمات ، وقد اختلطت فيها ألسنة البراءة بالغضب:

- كان أبي أحد صيادي مصاصي الدماء المتخرجين من وزارة الدفاع. وكانت مهمته سرية ، فقد كان يمكنه التعرف على هذه الوحوش اللعينة في الطائرات ، وعلى وجه الخصوص الفرق القادمة من أوروبا الشرقية لامتصاص الدماء. وكان القتال بينهم يبدأ بعد غروب الشمس. وللتخلص من أبي قاموا بتخريب إحدى طائرات إسطنبول وجعلوها تسقط في المطار. ولم ينجُ من الانفجار سوى شخص واحد ، مصاص دماء اسمه روجي مجرد ، وهو

لا يزال حياً ، لأنه سيحيا إلى الأبد. بلغ المائة من العمر ، فقد تم لعن مصاصي الدماء بالحياة الأبدية. وقد قاموا بعضي وأنا نائم ، وبفعلتهم تلك نقلوا المرض إلى دمي.

يخرج من الجيب الخلفي لبنطاله الجينز ورقة مطوية ويفردها. ويشير إلى صورة جدٍ يرتدي قبعة فرو ، قُصّت من إحدى الجرائد وهو يوضح:

- سأقوم باصطياده حين أكبر.

أشعر بحنو نحو هذا الهيكل العظمي - تميمة القبر :-

- أهذا العم هو روعي مجرد؟

يردد هامساً بعزم وكأنه يتلو يميناً مقدسة:

- أجل ، سأعزز رمحاً في وسط قلبه..

تحدي السنوات والهزيمة أمام الثواني

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «حشر أنفه فيما لا يعنيه» لقمتم بإيجادها.

طلبت الإذن من هاكي ل. بيرفين لاستخدام كمبيوتره الموضوع على الطاولة من أجل الاطلاع على الأبعاد الخاصة بالملاعب، وميادين السباق، المدرجات والبسط. جلست على الكرسي المخصص لمنصب المدير، ودخلت الإنترنت لأتصفح الأخبار المتعلقة بحادثة الطائرة التي وقعت في عنتاب. كان روعي مجرد قد تخطى الحادثة ونجا منها سالمًا، ومع تدوين اسم أخي، ظهرت صفحة القتلى. روعي مجرد هو آخر محاربي حرب الاستقلال، وكان أوزان محققًا، في ظنه بأنه مصاص دماء، فالرجل هو الوحيد الباقي على قيد الحياة من جيش تعداده خمسمائة ألف وثمانون جنديًا، وقد استرعى انتباهي وفترة عدد الفيديوهات المتعلقة به. فهو يلقي الخطابات في احتفالات الاستقلال، ويقوم الجنرالات، الولاة والوزراء بتقبيل يده بكل احترام، والطلبة يهدونه الورود باحتفاء، والمطربون يحيونه بفخر من على المسرح، فيما الجمهور يصفق في حماسة متقدة. يرتدي دوماً زيه الخاص، ووسام الاستقلال المعلق على صدره يشعّ بريقاً. ويحتفى بالمحارب الخالد في استقبالات في القصر الرئاسي، البرامج الوثائقية، الدواوين الشعرية، في النشرات الإخبارية. حينها أدركت أنني عثرت على السوبر موديل الذي حدثني عنه معصوم جيغي «رجل، متفرد في مجاله، لديه طراز خاص من الثياب، يقوم بدور أساسي في المناسبات الخاصة، يعرفه تسعون بالمائة من سكان البلاد شكلاً أو اسماً، يمتاز باحترام عريق وباق، كسب جوائز معينة، كما أنه يظهر في وسائل الإعلام العالمية، ويحتل موقع الخطيب في التجمعات الجماهيرية».

كادت الفرحة تطيح بعقلي، فدماغ روعي مجرد هو خارطة الكنز، وكنت سأجد سبيلاً للتسلل إلى حياته بأي طريقة. كنت أنوي استعمار آخر أيام حياته، امتهان كرامته

والتسلط على لسانه. سأغدو أكبر ابتلاءاته ، وأتلو على مسامعه سلسلة أكاذيب ، وأجعل من هذه الدمية الذابلة نجماً استعراضياً فاحراً. وسيقوم بطل الاستقلال الوطني بأخر بطولاته في مسألة شخصية ، ومع آخر أنفاسه في هذه الحياة ، سيتمنح حياة فنية تصارع الموت فرصة مواصلة التنفس. وفيما استطاع تحدي السنوات ، سيهزم أمام الثواني.

حين توجهي نحو مشفى الجامعة من أجل معرفة نتائج التحليل ، تلوت كل الأدعية التي أعرف. كانت المهرات البيضاء ، كأنفاق الرعب التي ابتكرها أحد فناني الأوربيغامي²⁸. ورائحة الفورمول تحرق حنجرتي ، وبدت الممرضات المثيرات واللعينات مستنسخات من طراز الممرضة راتشيد في فيلم (الطيران فوق عش الوقواق). ومن المؤكد أنه وفي إحدى الغرف الداخلية لا بد وأن يكون المدير (دولي) مكبلاً إلى أحد الأسرّة ، يرجوهم فكّ وثاقه.. وخلف الأبواب الموصدة ، كانت المثاقب والمشارط والمباضع تعمل ، فالآلات ذاتها تستعمل لشفاء الشخص أو موته. المفارقات محورية في مسائل الحياة - الموت. نبضي يتسارع ، وأخيراً سيكون للمدينة التي تعتبر محطة عطلة أبدية للبكتيريا - جسدي - احتمال تقديم خدمة للإنسانية. وإن ظهرت أي عقبة ، حينها سئطرح على البساط مسألة أن تقوم نازلي هلال بإنجاب طفل مني ، كزيجة مبادلة طبية²⁹. كنت أحاول أن أطرد الأفكار السوداوية المتناثرة على أجزاء فكري كرزاذ طبي ، فحتى المخاوف في هذه الحياة ، يجب أن تؤخذ وفق جرعات محددة.

حين نظر إليّ الطبيب ذو الشعر الأشهب ، من فوق نظارته ذات الإطار المعدني

قال:

- مبارك ، لقد تطابقت العينات ، وما علينا سوى تحديد موعد العملية.. - شعرت لأول مرة بأنه بات لحياتي معنى حقيقي. فحتى أكثر الأشخاص وضاعة ، يدرك بأنه يمكن أن يتجاوز وضاعته للحظة ، وهذا ما أدركته في تلك اللحظة. لم أكن مجرد حاوية قمامة تننفس.

ولا مرآة خلفية لدراجة هوائية ، أو معتوه سقط في حفرة المرحاض..

الإصابة من أول نظرة

«كل إنسان في عمر الموت».

(مواعظ من نادي الخاسرين)

في مدينة المتعجلين للحاق بالحياة المتأخرين عنها دوماً ، لم يكن روعي مجرد على عجلة من أمره. لا يمكن لرجل أن يسير بهذا البطء إلا إن كان قد استخلص شيئاً ما من مجمل أخطائه. رجل أدرك أنّ الحياة ستنزلق بسهولة عن سطح الأرض. وكأنني لا أنظر إليه بل إلى إحدى صورهِ. لقد كان الهدف الأمثل للقناصة.

كان يتوجه من يلدغيرمان نحو الرصيف البحري ، كنت وكأنني أراقب عقارب الساعة ، وبسبب السهولة المفرطة لعمليتي السرية ، ظهرت عقبة في طريقي ، وكان عليّ من أجل تعقبه الجلوس على الرصيف..

كانت الرياح تسقط أزهار الإجاص من الأشجار المحيطة بطرفي الشارع ، وتقودها معها في رحلتها من شجرة إلى أخرى. في الأيام التي كنت أنتزّه فيها مع سربيل سيلاحي بيدي يداً بيد في أحياء كادي كوي ، كنا نمرّ من هذا الشارع أيضاً ، في صيف امتد بنا ثلاث سنوات.

في نهايات الأسبوع كئا - أنا وأوكان - نبيع ، في حيّ موقتْ خانة ، إلى جانب الكتب ، الأفيشات ، أسطوانات ، أكواب القهوة البورسلان.. وفي تلك الحقبة كانت بطاقتي تحمل اسم (جيفان ؛ شقيق أوكان كازانوفا) وكانت الأكواب مزينة بطبعة من كتابات بخط كل من: ديفيد ليفين (1929-2009) ، جول فيرن ، دون ديليلو ، ميشال فوكو ، جورج

سيمون ، ميلان كونديرا ، جان بودريارد ، لويس فرديناند سيلين ، سوزان سونتاج ، جيمس جويس ، صامويل بيكيت ، تشاك بولانيك ، ديلان توماس.. وقد تمكن أخي من الحصول على هذه الأكواب الأمريكية الصنع بعد أن أطرى جيب الموظف الكثر الشارين في دائرة الجمارك حيث كان يعمل والدي.

وفي إحدى المرات ، وبينما كان شخصان يتفحصان الأكواب ، أخذنا يدققان في كوب يحمل صورة فلاديمير نابوكوف.

وقد قرّب الرجل الكوب من وجهه وسألنا عن رأينا:

- أحقاً يشبهني ؟

- كثيراً - علق أوكان - وإن شئت فاسأل ابنك..

فاحتد شبيهه نابوكوف وهو يجيب:

- إنه ليس ابني ، بل زوجي..

وقد بقينا نجسد هذا المشهد لسنوات ونحن نضحك.

كان أحد أيام الآحاد ، والمكان يعجّ بالزبائن ، وقد كنت واقفاً أمام إحدى البسطات التي وضعناها قبالة محل لتعبئة العطور. أشرب الشاي في كوب هنري ديفيد ثورو ، فيما تسلل أخي مع حبيبته نازلي هلال إلى الخلوات. كنت وحيدا ، وفجأة تناهى إلى مسمعيّ أصوات إطلاق نار ، وبدأ الناس يتدافعون صارخين. كان الاشتباك قد بدأ على عتبة بار (راباربا) الذي لا يبعد عني سوى عشرة أو خمسة عشر متراً. حيث قام اثنان من إحدى عصابات المافيا المنافسة ، بإطلاق النار على (طاهر تومور) [30](#) أحد أشهر زعماء المافيا ، وحين بدأ فيدائيو طاهر بالرد على النيران ، أخذت الدماء تجري جداول على الأرض. ومع

انضمام حراس البار للحفل ، اتخذ الأمر أبعاداً سينمائية ، وبدأت الأعيرة النارية تتطاير في الهواء ، حتى أنها أصابت بعضاً من المارين في الطريق وأطاحت بهم أرضاً وسط دمائهم. كانت المرأة التي أصيبت ووقعت أعلى الطريق ، تولول كمغنية أوبرا على وشك الولادة.. وحين أحالت إحدى الرصاصات الكوب الذي أحمله إلى مجرد ذرات غبار ، دخلت على وجه السرعة إلى مدخل البناء الذي يقع خلفي ، مستنداً إلى الحائط. هناك شاهدت سربيل سلاحلي يبيري لأول مرة ، وأدركت حينها أنني كنت مخطئاً في الحكم على البشر. ف فيما يتواصل النقاش المسلح ، كانت سربيل تركز للبحث عن مكان تلجأ إليه. على الفور تقدمت نحوها ، وأمسكت بها وسحبته نحوي ، كانت أنفاسها متقطعة وترتجف بشدة من الخوف ، فاحتضنتني بقوة. كان قلبها الذي أطاح الخوف بصوابه ، يلهث في صدري. وأما الوقت الذي كان يجري بسرعة البرق قبل قليل ، بات وكأنه على وشك التوقف.

تراخت يداها ونظرت إلى وجهي. وأظنها على الأغلب قد أعجبت بوحدة من عيني. تراجعت خطوة وانحنت فجأة واستفرغت على صورة محمد علي الذي على بلوزتي. أبعدت البلوزة عن جسدي قليلاً ، لأرى بطل الملاكمة يتسم بعذوبة.

عاد الهدوء ، وتناهدت إلى مسامعنا أصوات ثنائي الأمان والشفاء - سيارات الشرطة والإسعاف.

- أنا جيفان - قلت وأنا أشعر أنني كحلقة بوميرانغ 31 قذفها عزرائيل نحو إيروس.

- أنا سربيل - قالت وهي تمسح فمها بظاهر كفها. ومع تحرك ملامح وجهها ، كانت هناك ثلاث عشرة بقعة نمش فوق أنفها تضيء وتنطفئ. لم أخمن حينها أنّ عدد هذه النقاط الفوسفورية المدورة التي تمكنت من إحصائها ، سيكون نذير شؤم عليّ.

ما إن وضعت قدمي على الطريق ، حتى اخترقت رصاصة بطني. دوووف! فالبوميرانغ الذي اصطدم بإيروس ، عائد متجهاً إلى ملاك الموت ، كل ذلك بدأ وانتهى خلال ثوانٍ معدودة.

وارتفعت الأمواج في عيني سربيل التي بخضرة البحر بل بزرقه النهر.

وفيما تشهق تناثرت الحروف من بين الدموع:

- سر.. رت بلق.. ائك..

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «الإصابة من أول نظرة» لقمتم بإيجادها.

لا تستطيع أن تذيّل أقدارك المسطورة فوق الجبين بتوقيعك.

في اللحظة التي اخترق فيها سهم الحب قلبي ، أصابت رصاصة طائشة أحشائي ، لكن روحي أبت أن تفارق جسدي ، وإلا ما كان لي أن أروي لكم بقية الحكاية. مزقت الرصاصة أمعائي الدقيقة وخرجت من الطرف الآخر لتكمل طريقها ، وقبيل سقوطها قامت بحثاً إحدى صخور (أرنفوت كارلدم) القاطعة. ولحسن الحظ أو سوءه كانت الطريق التي اتبعتها الرصاصة في أحشائي قصيرة. كل ما هنالك أنها خرمت أمعائي في سلسلة ثقوب. وفي مشفى حيدر باشا قامت عصبة الأقمعة الخضراء ، أثناء العملية ، قاموا بإجراء تنظيف داخلي ، وقاموا بعملية تنظيف طبية داخل أحشائي ، ومن ثم أغلقوا الثقوب التي في بطني ، وخاطوا الأماكن الممزقة..

في الليل كنت أكثر ذعراً من شريد ألمت به عاصفة ، وأحلق فوق فراغ هائل ، وقد قامت قبيلة من آكلي لحوم البشر باختراق جسدي مثل ستفين هوكينغ وأخذ حصتها منه. كنت في انتظار قطار الانفلاق الذي سيأخذني إلى العالم الآخر. ولحسن الحظ تمكنت من تمزيق الكفن ، والخروج من القبر سليماً معافى..

فتحت عيني اليسرى ، أما الأخرى فقد كانت متورمة ومغلقة.

سألني أوكان:

- أنلعب البلياردو؟

- هل تتقن اللعب؟

- انضممت إلى فريق البلياردو حين كنت في المدرسة الابتدائية.

ولكنه توقف مع دخول العم الطبيب الذي جاء من أجل فحص أخير قبيل مغادرته المشفى. كان في قميصه المرقط بالأسود والأصفر أشبه بسيارة أجرة بدينة.

جلست في السرير ، وقام الطبيب من خلال الضوء الصغير بفحص بؤبؤي عيني.

ورفع سبابته:

- حاول أن تتابع حركة إصبعي دون تحريك رأسك.

أطعت الأمر.

- أتعلم لما أنت هنا؟

- ههههه... لا أتذكر.. لا..

- ما اسمك؟

- جيفان.

- ومن الشاب إلى جوارك؟

- أخي.

- ما هو آخر شيء تذكره؟

- كنت أحمل الأكواب في السيارة.

- أنت تعاني من فقدان ذاكرة مؤقت سيد جيفان.

- يعني؟

- لا داعي للقلق. لقد حوصرت وسط اشتباك مسلح ، وأصبت في بطنك ، فقمنا بإجراء عملية لك. ولأنّ رأسك ارتطم بالأرض أثناء سقوطك ، فأنت قد نسيت لحظة الحادثة وما قبلها بقليل. وهذا أمر شائع. وضعك مستقر وأنت تتماثل إلى الشفاء. عليك بتناول الأدوية المدونة في الوصفة ، وبعد فترة قصيرة ، ستعود إليك الذاكرة. حمدا لله على السلامة.

لا أعلم إن كنا وحدنا في الكون ، ولكننا كذلك في هذا العالم. وقد كنت أنا وغرفتي في المشفى نقوم بمحاصة الوحدة. كنت أقرأ نسخة قديمة من كتاب (المربية) لحسين رحمي (1864-1944) ، تركها أخي أوكان قبل أن يغادر:

«المربية أنجل تبدو لطيفة المظهر ، ولكنها كالزهرة التي تسبب الدوار لمن يقوم باستنشاق عبيرها. كانت في العشرين ؛ أوج ربيعها ، تفتح أنوثتها واكتمال حسنها. متوسطة القامة ، أنيقة الملبس ، [...] ولون بشرتها أبيض وردي. كانت أطراف حاجبيها البنين الرفيعين ، يميلان نحو الأسفل قليلاً ، أما فمها فيميل إلى الاتساع قليلاً ، ولكنّ صَفِيّ اللؤلؤ اللذين يظهران من بين شفثيها الرقيقتين اللتين نسجتا من حرير وردي حين تتحدث ، والأجمل حن تتبسم ، كفيلان بأنّ يجعلاك تغض الطرف عن كل قصور آخر. أما خداهما اللذان بنعومة الخوخ المخملية ، بيروزهما نزولاً حتى الخط الفاصل في ذقنها ، لو تمّ وصلها بخط وهمي ، فيشكل في مجمله مثلثاً متساوي الساقين رائع الأبعاد ، يمكن للنظر أن يجول إلى ما لا نهاية في الجمال القابع داخله.. أما العينان ، تلك العينان.. محاطتان برموش طويلة ، كنبعين بلون الكستناء ، تستطيع النهل منهما متى تشاء. ونظرة منهما كفيلة بإحياء قلب عليل ، والتحليق به في علياء يصعب معها أن يشعر بما دونهما. وطرّاز لباسها بالغ البساطة ، وهي تنعم بتلك الأناقة المخصصة للنساء الباريسيات في رفع شعرها الكستنائي

في قمة رأسها».

حين بدأت جراحي تتمللمل في ألم ، تشتت تركيزي ، وما إن أنزلت الكتاب حتى وقع نظري على صورة لاكتمال الحسن تتفوق على المربية المزيفة أنجل بألف مرة. وجهها الشبيه بالسموات المشرقة في لوحات عصر النهضة ، يبدو وكأنه قد بات تحت رحمة من وابل الأمطار المدونة في القوائد العثمانية. كانت رقتها تفيض حتى أبعد الآفاق.

- يبدو أنني لم أطرق الباب بالقوة الكافية سيد جيفان. أستمحك عذراً - فمها الذي انثنى خجلاً ، كان كزنبقة الربيع ، أما صوتها فخيوط نسجت من حرير الجنة.

- آه! - شعرت وأنا أنظر إليها بأنّ كل جراحي قد التأمّت ، وبدأت الدماء في عروقي تغلي وتفور لتجري في دورة عكسية.

- لقد أنقذت حياتي ، فجئت لأعبر لك عن شكري - لم يكن لدي أي فكرة على الإطلاق عما تتحدث ، ولكنها كانت تشع فيضاً وبريقاً ، حتى أنني كنت مستعداً على المراهنة بأنها تستخدم كقها كمرآة.

احتلت ابتسامه عريضة فمي ، وكأنه قد حشي بعلاقة ثياب.

- ما اسمك؟

- سربيل سيلاحلي بييري

سربيل سيلاحلي بييري ، سأدوّن هذا الاسم على كافة إحداثيات الكون.

- هل لك أن تقتربي قليلاً من فضلك؟ - كل خطوة على الأرض كانت تولّد سرباً من الفراشات ، وكأن المعجزات التي طالما تخيلتها بدأت تتحقق. أريد أن أكمل دربي نحو الأبدية مع هذه الفتاة. تنحيت جانباً ، لأفسح لها مكاناً بقربي على السرير. فقد كنت على أي حال عضواً طبيعياً في عصابة (الذين لا يفكرون في شيء آخر سوى الجنس) السرية التي

تسيّر شؤون العالم.

- عفواً؟

كان الاستفهام المعلق في جملتها هو الكلمة الوحيدة التي كانت كفيلاً بأن تفتح أمامي كافة دروب الجسارة ، وزاد فقداني النسبي للذاكرة من ارتفاع منسوب الجراءة لدي.

- لأنّ ذاكرتي وذهنني ، جسدي وقلبي قد عقدوا ضدي حلفاً صليبيّاً ، لا أستطيع تذكر أول لقاء لنا. هل أعلنت لك عن حبي حينها؟

- لا - أشرقت ابتسامة نقشت بعروق الكرز القانية على وجهها الذي بحلاوة القشطة ، والمؤطر بشعرها الذي بلون الكراميل.

- يا له من إهمال فادح. ولكنني سأتفادى هذه السهوة على الفور. - كنت أتكلم كضباط الروس ، في غرفة معزولة من الحرب العالمية الأولى ، وهم يعلنون عن أهم أسرار الدولة.

كان الترياق الأعظم ، والدواء الشافي والفرحة الأكمل قد امتزجت بهياتها السحرية ، واختلط بعبير أنفاسها وحرير بشرتها:

- أشكرك على المجاملة. ولكن الحقيقة أنني أدين لك بالكثير.. جرحك ، هل يؤلم؟

- أحياناً ، لا تكون الرصاصة مجرد رصاصة - وأمسكت يدها بهدوء. كنت على الحدود الرقيقة الفاصلة بين الملاطفة والتحرش - أيمن أن أخاطبك بعيداً عن الصيغة الرسمية؟³².

- كما تشاء - فتاة هيروغليفية ، تجعلني أشعر بنفسي داخل أحد المعابد.

في ثاني - أول لقاء بيننا ، وهبتها قلبي. ورغم ذلك شعرت بضرورة الضغط على

- فقط الكازوز - قلت لها - إنه الشيء الوحيد الذي بوسعي منحكِ إياه الآن..

دخلت ممرضة تحمل بيدها حقنة ، واقتربت مني وكأنها تتزليج على حلبة جديدة ، وغرزت الحقنة في الأنبوب البلاستيكي الرفيع المعلق إلى ذراعي ، وأظنها حقنتني بالديازيم . كنت أتجه نحو نوم عميق ، وقد ابتعدت يدي عن يد سربيل ، وأسدت بيننا ستارة كستارة الحمام لتفرقنا .

كانت سربيل بالنسبة إليّ طريقاً لا مناص منه . ومع تعرفي إليها ، كنت أمل أن أتمكن أخيراً من لعب دور البطولة في حياتي . ولكنني عدت بخفي حنين ، فالمعجزات لا يمكن لها تغيير الأقدار . حيث تركت الفتاة عرضي لمنحها زجاجة الكازوز دون ردّ ، يبدو أنني أخفتها . خرجت من المشفى ، والتأمت جراحي ، وامتألت الفراغات التي في ذاكرتي ، ولكن المشكلة أنني لم أتلق أي إشارة منها . لقد تبخرت الفتاة بكل ما تعنيه الكلمة . لم تكن لدي أي معلومات حولها ، لذا كان من المحال الوصول إلى أثر لها لأتعبه . وكأنّ الشيطان قد صمم هذا العالم - الذي سيّجه كمزرعةٍ خاصةٍ به - بطريقة تجعله يتقن إخفاءها عني . وكما قال أحد الشعراء ؛ كنت أتلوى وسط عذابات لا سبيل إلى وصفها . كانت سحنتي كمخدة رطبة ، وكأنّ خطّ فاي العالمي يخترق قلبي في مساره .

يسألني أخي:

- كيف تسير الأمور؟

- كسيارة نعش سقطت في قعر البحر .

- ما زلت تفكر في تلك الفتاة؟

- كان عليها أن تزورك من جديد.

- قوانين هذا العالم لا تنطبق على النساء الجميلات..

كان أخي محقاً ، فالمشاعر الجياشة التي تحيلك إلى الألم ، يمكن أن تسلبك العقل. لم أكن أعرف سربيل سيلاحي بييري ، ولكن ليس على الحب أن يكون غير منطقي ، لا يحفل بقيود الحسابات إلى هذا الحدّ. لم يكن هذا الفراغ ، الضياع والغموض فألاً حسناً على الإطلاق.. لو لم يكن هناك شيء اسمه الحب الأفلاطوني ، لقمتم باختراعه.

لشهور متواصلة كنت الأزم شارع موقتّ خانة ، أملاً في نشوب اشتباك جديد ، لأنقذ حياة سربيل مرة أخرى. لن أتركها هذه المرة.. ولكن ذلك بالطبع لم يفضِ إلى نتيجة. لقد ربطتني بها مصادفة مبهمّة ، واستبد بي ألمٌ خسارة ما لم أكن أملكه.

الإنسان يملأ الفراغات بالسخافات ، وهذا ما فعلته طوال سنتين. لقد ظننت سربيل غيبية ، مذنبّة ، سائحة ، متزوجة ، ميتة ، وربما اعتبرتها كل ذلك في آن واحد.

كنت في السنة الثالثة لكلية التربية البدنية. وكنت أملاً حوض السباحة الأولمبي بدموعي. كنت أعاني دون طائل من أمر أعجز عن وصفه.

خرجت إلى حرم جامعة أناضول حيصاري ، كانت عتمة المساء قد أقفرت المكان. فيما الأرض أشبه بقوام كعكة عطنة ، وأوراق الدلب تتساقط على شكل أوراق نقدية من فئة الخمسين. جلست على حافة صخرة على الطريق الأسفلتي المطلّ على البحر. وأنا أشعر بما تشعر به سيارة حالت إلى خردة في مرآب مهجور. وبدأت أتسلى بعدّ الأمواج ، كنت وكأني مستنسخ ؛ مجرد نسخة آلية حية لبطل ميت. أمنتج في ذاكرتي كافة صور سربيل سيلاحي بييري ، ودماعي - كمطبعة في ذروة العمل تقوم بطبع جريدة يوم القيامة - على وشك الانفجار. وأنا أقوم بجولات مكوكية في الممر القصير الفاصل بين الجنة والجحيم.

عاجلاً أم آجلاً كان لي أن ألتقي سربيل سيلاحي بييري في جنازة حوت أو مصعد

مشفى للأمراض العقلية أو على حطام سفينة محترقة..

علّق أحد ما بالقرب مني:

- الحياة! ليست تلك الأشياء التي نفهمها فقط.

- وهذا ما يكسبها قيمتها - علّقت. وحين التفت ورأيت سربيل أمامي ، تقطعت

أنفاسي من هول المفاجأة.

وأخيرا انتهت الحقبة الفاصلة بين اكتشاف النار واختراع البارود.

الشركة التي يخضع فيها

الشیطان لدورة تدريبية

مع موت سربيل.. اكتسحني اليأس وبثُّ متسللاً وجودياً. وبات بإمكان قلبي - الذي تحول إلى مجرد شظايا من الملح والجلید - عبور خرم إبرة. لقد أحرقت أقداري بوليصة التأمين ، وبات عمري يضيق على حياتي ، وفقدت القدرة على التواصل مع حقيقة وجودي ، واختفت العلاقة التي تحدد ماهية وعيي. لم أعد كائناً حياً ، بل مجرد تفاهة من العظام يكسوها اللحم. لذا كانت محاولاتي لإنقاذ حياة أوزان ، في نقل المياه من طاحونة الدسائس للمعتوه الأصلع لاحتلال دماغ متعفن لعجوز عاش قرناً ، أمراً مقبولاً بالنسبة لي.

إنه نيسان ، اعتمرت قبعة البيسبول ووضعت نظارتي الشمسية ، وبدأت أتعقب روعي مجرد. ليس له أحد ، من الجامع إلى البيت ومن البيت إلى الجامع ، يقوم بإطعام الطيور في شرفة منزله المكون من ثلاث طبقات. أراقبه من سطح مهدم لأحد الأبنية المهجورة. وألتقط له عدة صور بواسطة آلة نيكون (دي70). كان يخاطب الحمام البري الذي ابتلي بالغازات السامة على وقع سيمفونية كرنفال الحيوانات الأليفة لكاميه سان سانز (1835-1921) ، يسقي النباتات الذابلة في علب الصفيح الملتوية. من الصعب التصديق بأن هذا الرجل قام - في وقت ما - بغرز حرابه في أعناق الجنود الفرنسيين.

طار نحو الشرق للمشاركة في احتفالات الاستقلال في كل من أورفا هكاري وآغري. واختفى لمدة أسبوعين متواليين.

في (باكت) حدثت معصوم جيغي عن روحي مجرد.

- أولاً هو رجل ، ثانياً متفرد في مجاله ؛ فهون المحارب الوحيد الباقي من حروب الاستقلال ، ثالثاً يرتدي زياً خاصاً به ، وهو بدلة المحارب ، رابعاً في المناسبات الخاصة يقوم بدور رئيسي ؛ فهو ضيف الشرف في احتفالات الاستقلال ، خامساً تسعون بالمائة من سكان البلاد يعرفونه شكلاً أو اسماً ، سادساً يتّسم بمكانة باقية وأصيلة ، فحتى أن رئيس الجمهورية يقوم بتقبيل يده أمام الكاميرات ، سابعاً حاز على الأوسمة ، فهو صاحب وسام الاستقلال ، ثامناً تتابع الصحف العالمية أخباره ، تاسعاً يقوم بإلقاء الخطب في التجمعات الجماهيرية - ووضعت صورته على طاولتها.

كان معصوم جيغي يعرف روحي مجرد من خلال محطات التلفزة.

- كيف لم أفكر في أمره - قالها وهو يصافح يدي بابتسامة تحدها آمال عارمة.

شرحت له خطتي:

- سيشارك فريق مدرستنا الرياضي في احتفالات عيد الطفولة التي ستقام في الثالث والعشرين من نيسان في ملعب فنار باهتشي (شوكرو سراج أوغلو). هناك سأقوم بالتعرف إليه. الرجل في المائة من العمر ، لذا لا أظنّ أنه سيوافق على فكرة ثقب جمجمته ، لذلك..

- لدينا بناء عائد لشركة باكت في منطقة كادي كوي. يمكننا تأثيث أحد طوابقه على شكل مشفى. لسنا غير قادرين على جعل السيد روحي يخضع لفحص أطبائنا ، ولكنه أمر سهل ، فالبغل أشبه بجثة أسقف ترقص على أنغام موسيقى جنائزية. وما أن يقع في قبضتنا حتى نضع الرقاقة الذهبية في رأسه العجوز بلمح البصر. كما سنقوم بتركيب أجهزة مراقبة وتنصت في منزله ، وسنخصص إحدى عميلاتنا لتقوم على خدمته ، وبذلك سنتمكن من التحكم في ما يتناوله العجوز من طعام وشراب وما سنعطيه من أدوية والتي ستزيد من نشاطه ، وتجعله يلقي الخطابات في حماسة أكبر. ستجعله الأكاسير يتقد نشاطاً ، والأدوية

يستكين هادئاً.. سنقوم بإعادة تدوير آخر محاربي الاستقلال ، وسيحارب حتى آخر نقطة دماء لديه من أجلنا.

بلعت ريقى ، لا بد وأنّ الشيطان يتلقى تدريبه في هذه الشركة ، لاكتساب خبرات مهنية. تخيلتُ أنّ الشيطان سيحضر لنا كأسين من حمم نهر الجحيم ، وسيقبّل يد معصوم جيحي مخاطباً إياه بالأستاذ قبل أن ينصرف منحنيّاً.

الطيران حتى قعر البحر

«لكمة قوية ، أسرع طريقة للتعلم».

(بربارة باربارو ، 1799-1888 ، كازانوفا المزيّف)

«منذ اختراع الهاتف ، وأنا أنتظر منك مكالمة» ما إن وصلتني هذه الرسالة القصيرة من فوجير ، حتى ضغطت زرّ الاتصال.

- أهلاً أيها الوسيم - لم تكن تكتفي بسلب لبّي ، بل تسلبني كل قدراتي الدفاعية أيضاً.

- أهلاً فوجير.

- هل سنلتقي؟

- أممم.. لا أعلم..

- سأفترض ذلك يعني الموافقة..

كانت مقاومتها دون طائل أو فائدة ، وهروبي من فيض التستسترون سيودي نحو الأندروفين ، وهو بديل معقول.

اصطحبت فوجير إلى نادٍ للروك يدعى (جوندابور) بالغ الاتساع ، من السقف الزجاجي كان البدر يطل علينا. على المدخل اصطفت السيارات الرياضية الفخمة ، وسيارات المحطات التلفزيونية. وفي الداخل كان المراسلون الصحفيون (البابارازي) يتنقلون كحيوانات اجتاحتها الجنون أثناء خروجها إلى الصيّد ، وهم يحملون كاميراتهم في الأرجاء

والميكروفونات تلوح في أيديهم. كانت موسيقى أغنية (صعود سدوم وعامورة) لثيرون تدك الجدران وتجعلها ترتج. وجدنا نفسينا وسط عرس للهاقي ميتال يحاكي مسابقة للتعرق. كان العريس الذي يرقص كوحيدات الخلية ، يرتدي زي الفايكينغ ، وقرن خوذته تلمع بسخرية مشؤومة. أما العروس بشعرها الدخاني اللون ، وفستانها المنسوج من الجلد ، فقد كان مكياجها أقرب للتمويه منه للتجميل. تضع إكليلاً من البلاستيك الشفاف على رأسها ، وخنجرأ يرتج على جيدها. وعلى الأرض والأثاث كانت الصراصير تبتهج راقصة. وبحسب ما شرحته فوجير ، فالصراصير تستخدم كجزء من الأساليب التي تزيد الأجواء إثارة. وقد كان الحضور بالفعل ، كصراصير مرت بهراحل وجيزة التطور ، بل كانوا مجرد متحذلقين لا يتقنون سوى حفنة من أساليب رخيصة لتصنع الحب.

تحت وهج أضواء الديجيتال ، وعلى وقع تمايل الحسناوات غوثيات الطراز اللواتي خطفن انتباهي ، بدأت أنساءل ببراءة:

- ألسنَ سوى صراصير متعلمة مأجورة ؟

- في بعض الأمسيات تقام هنا مسابقات ملكات الجمال. وتقوم آخر عشر فتيات من المؤهلات ، بابتلاع الصراصير من أجل الحصول على لقب الملكة ، والقادرة على ابتلاع أكبر كمية منها ، تحصل على التاج. وفي الصباح بعد إغلاق المكان ، يدخل فريق مكافحة الحشرات ، ومهمته ليست القضاء الكلي على هذه المفصليات ، بقدر ما هي التحكم بتكاثرها في هذا المكان.

طلبنا زجاجتي بيرة.

- هل أنتِ طبيبة اختصاصية ، أم عامة ؟

أوضحتُ وهي تضع أمامي زجاجة البيرة الأرجنتينية:

- أنا طبيبة مسالك بولية.

بدت لي الزجاجة غريبة ، رشفت منها جرعة ، فانتابني شعور بأني هنا لإجراء تحليل للبول.

- من يشرب الكارلسبيرغ ، لا ينطق إلا بأسرار ينطقها شاربو الكارلسبيرغ ، أكنت تعلم ذلك؟ - سألت.

- هممم!! ماذا تعنين؟

- مثلاً السوبرمان لا يتقن السباحة ، فهو يطير داخل الماء أيضاً.

- حسناً.. لما نحن هنا؟

- ألم تتعرف إلى العروس؟

لم أتابع التلفاز منذ سبع سنين ، وحتى أنني لم أقرأ الجرائد ؛ فكان كل المشاهير في عالمي مجهولين:

- للأسف.

- زيلدا زولا.

- يعني؟

- نجمة الروك الشهيرة. والعريس هو المخرج السينمائي الشهير: سامي بيكينباي.

- من الواضح أنهما لا يحفلان كثيراً بالشكليات..

تنبأت فوجير - جارية المنجم - بهدوء:

- لن يطول زواجهما أكثر من العرس نفسه.

لم أفهم ما قالته ، فنظرت من فوق كتفي خلفاً ، حيث أحد الضيوف يقبل العروس

من تحت خمارها ، ليرتجّ الحضور مستنكراً:

- أوووووو!!!

وما كان من العريس إلا أن امتشق سلاحه ، وتدخل فوراً لمحو القبلة التي وسمت زوجته ، أما الضيف الغريب فقد اختفى في لمح البصر. فاستدار الفايكنيغ نحو الحضور وصرخ بصوت غريب:

- زيلداووووووو..

ليضح المكان بضحكة موحشة ، كبوق سيارة غارقة تحت الماء ، ويمكن لكم زجّ أحد المستذئبين حبساً داخل هذه السيارة.

- سامييييي! - ردت عليه العروس على الفور وهي تمتشق سيفها ، وقفزت فوق طوابير الناس ، لتقلّب ساقبها في الهواء قبل أن تستقر على الأرض. وقد انعكست ضحكتها على البدر الذي يستمد نوره من الشمس.

تحلّق الضيوف ، فاستحضروا في ذهني جماهير ال. (بوم فايت)، وأخذت الكاميرات توثق مشادات العروسين ، وقد توقفت أصوات الموسيقى وانحسبت الأنفاس ، وبدأ فلاشات الكاميرات تومض في تواتر ، ومع كل ضربة من سيفيهما المسننين ، كان الشرر يتطاير. وقد فتني سحر هذا العراك الذي لم أفهم سببه على وجه الدقة. تمكنت زيلدا من قطع القرن الأيمن للعريس في ضربة سريعة من سيفها. ومع تراكض الصراصير يميناً وشمالاً في الساحة ، بدا وكأن الأرض تتحرك تحت وهج الأضواء. وفي حركة رشيقة قام العريس باقتلاع الاكليل عن رأس عروسه ، فبدا ظهرها العاري وكأنه أحد بروشورات الوشوم. تراجعت العروس بضع خطوات إلى الخلف ، واستخدمت سيفها كسكين لتقطع بها طرف ثوبها المتدلي وتلفه على يدها اليمنى ، وفيما الزوج يراوغ لهجومه الجديد ، سددت لكمة موفقة إلى فكّه.

تدفقت الدماء من فمه ، فأخذ يقهقه في صفاقة وهو يقول :

- تضرين كالفتيات. - واستدار المليونير الذي يبدو أنه لم يختبر الألم الذي يسببه طبيب الأسنان ، حول نفسه بسرعة خاطفة ، واقترب من الفتاة لينطحها بضربة رأسية.

ومع عطستها ، تضاعفت الدماء المتفجرة من أنفها:

- سأقتلع أسنانك وأصنع منها طوقاً لكلبي.

يبدو أنّ التخلف العقلي ، لم يكفٍ لانحدارهم نحو الجنون المطبق.

كان المصورون يتحركون في كافة الاتجاهات لالتقاط الزاوية الأنسب للتصوير ، ويوثقون العرس التاريخي وقد غدا ساحة وغي حقيقية.

- مجئنا لهذا المكان أضع منا رأس الخيط ، وبقاؤنا فيه أضع علينا طريق القافلة ، وعدم هروبنا منه كفيل بخسارة كل ما لدينا..

أمسكتُ يد فوجير يا حكام.

- مشاهدة سعادة الآخرين تثير شجوني.

كنا نتقدم مخترقين الحشود ، فيما فوجير تلتفت بين الحين والآخر لتشاهد السيف الذي كاد يخترق عنق العريس.

تمتتم العروس بصوتها الذي أبهج الأسماع ، وبنبرة مجرم مرتاح الضمير:

- ما رأيك يا عريسي المستقبل ، أن أحشو جسدك بمالح البحر بعد قطع رأسك ؟

فاحتدّ الزوج الفايكنيغي:

- لا فائدة من محاولتي إثبات أنني أفضل رجل في العالم.

من الواضح أنّ الزوجين الشهيرين سيقضيان أولى لياليهما منفصلين.

مع الخروج وتنشق الهواء الطلق ، أحسست بقدمي في البراد **33** تعلوان عن الأرض خفة. فتأبطت فوجير ذراعي هامسة في أذني:

- دعنا نمارس الحب حتى ترتج أدمغتنا.

أخذت أحدق في هذا الفم الذي يتقن صناعة الكلمات ، ككعكة كراميلًا أهمّ بالتهامها.

الجنس الممنوع

«التقولات لا تهمني فحضر

الحبيب مسكني».

(أغنية مجرية)

اليوم هو يوم سعدي!

كانت كافة إشارات المرور على الطريق الموصل إلى السرير خضراء ، حيث البورتش تسير بأقصى سرعتها. قصة الحب هذه التي بدأت منذ اللحظة التي فتحت فيها باب هذه السيارة الجبارة ، ستنتقل أخيراً إلى المرحلة التالية. كانت فتحة صدرها - الذي تستخدمه كسلاح بيولوجي - تثير خيالي. تجولت أصابعي برفق فوق عظمة ذقنها ، فأنت في تمرين مسبق على بلوغ النشوة ، وعلقت ساخرة:

- كنت أظنك متمكناً من ضبط نشوتك سيد جيفان!

- معك حق ، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- قتل الحيوان القابع داخلنا يعتبر انتحاراً.

- ولكنك لا تعرف عني شيئاً.

- أليس هذا هو المعتاد؟

وفيما نجتاز الحديقة ومن ثم السلالم بسرعة ، كانت أقدامنا بالكاد تلامس الأرض ، وكأننا مقننعان بأننا ما لم نمارس شيئاً هذه الليلة ، ستغور المياه من جسدينا. ذاب جليدنا ، وفيما نسيل وصلنا إلى الشقة. كنت أخمن بأنّ رغبتني العارمة ستعيق إطالة المتعة ، فالجنس لا دين له.

لا تعذلوني أرجوكم ، فمن الطبيعي للبؤساء الرخص وراء الملذات .

خلعت عنها سترتها القصيرة ، وتتالى الباقي كخيطة صوف انسلّ من نسيجه .

كانت فوجير أكثر تطوراً بكثير من مجرد جسد حسي ، خفيفة كضوء القمر ، وخصرها في لدونة السكر المذاب. وقد فاضت عيناها بلألئ لامعة ، في غرفة نومها التي بلون خصوبة أرض استوائية في أوج الربيع على ضوء الشفق. وإن استثنيا لوحة الهيكل العظمي لشرطي سلخ عنه جلده المعلقة على الجدار المقابل ، فقد كانت المرأة الشابة تمتلك وسائل لسلطة جنسية مطلقة الحكم ، وتعمل وفق مبادئ الهندسة الجنسية في موسوعة كاما سوترا³⁴ ، مع خبرة واسعة في تتبع إشارات الشهوة والإثارة. على السرير كان يخيم هدوء ما قبل العاصفة. وحين اقتربت بأناملها من بطني ، لامست الجرح الذي ظلّ هناك منذ اليوم الذي تعرفت فيه على سربيل سيلاحلي بييري.

دووووف!

كان صوت إطلاق النار ، هو رنة الرسائل على هاتفني النقال. تناولت يدي نحو

الهاتف:

«نهنتكم وكل الأمة الإسلامية بحلول ليلة المعراج ، ونتمنى لكم ليلة ملؤها الدعاء

والحبور والبركة»..

عقب ذلك لم يتسنّ لي الوقت لقراءة تعليمات الغسل على لباسها الداخلي الرفيع.

فقد أصابت قلبي صاعقة ، وأخذ خيط رفيع من الدخان يتصاعد من عضوي.

العقول والقلوب المتشحة بالسواد

«بفأس من لون الكرز

أشتهي الموت اشتهاً

أقطع أناملي أولاً ،

لأمتطي حرّاً الهواء».

(أوليكو تامر ، تحت ظلال الحشائش الباردة)

إن كنت رجلاً فقدرك أن تستيقظ نادماً ، إن أمضيت ليلتك وحيداً ، وإلا فما عليك أن تندم.

كانت الخامسة صباحاً. بعد نومي القصير تمكنت من لهلملة طاقتي بعض الشيء. كانت أصوات العصافير تنتشر في أجواء المعمورة ، وما زالت نازلي هلال وأوزان نائمين. حطمت رقمي القياسي في سرعة الاستحمام ، أخرجت بدلة الرياضة السوداء من الخزانة ، وارتديتها في هدوء ، وتسللت من المنزل. وبينما كنت أنحدر نحو المرفأ ، أرسلت رسالة نصية من جوالي إلى فوجير: «فلننسّ ليلة البارحة. لا تزعلي مني. قبلاتي». ذلك أنني تركتها وحيداً وغادرت.

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «رمي كوكتيل الملو توف في ساحة الجحيم» لقمتم بإيجادها.

ركضت ما يقارب الميّلين ، وأنا أسمع عبر سماعات الآيباد دون فاردون (الأرض

الهندية). وأنا أصعد من ساحل كادي كوي نحو موزا ، كنت ألمح من بعيد أطلطنا - فرس الخالة فينيما. كانت ترعى هناك ، فصعدت المنحدر. ملتفاً حول تمثال خلدون تانير لأعود أدرجي. كان الساحل مقفراً، ولم تبال أطلطنا، التي مشطت عزفها استعداداً لحمل المشردين ، بظهوري. تطلعت حولي ، فلم أرَ أحداً ، دون أن أولي اعتباراً بطبيعة الحال لشراذم المشردين الذين تماهت ملامحهم مع لون الطرقات والأتربة. وضعت قدمي في الركاب الصدي وأنا أمسك بلجام الحيوان الضخم واعتليت ظهره. على الصخور التي تشبه قلوباً وأدمغة اتشحت بالسواد ، كانت أطلنطا تسير خبياً ، وعلى ظهرها المصبوغ بالسواد كنت مرتدياً بيجامة أخي السوداء التي تكبرني بمقاسين ، كنت أشبه بتتاري يحمل معه أبناء شوم ، ولم ينقصني عنه سوى المشمل. توجهنا صوب ميناء موزا على وقع الحوافر. على الساحل تناثرت زجاجات الشراب الفارغة ، الواقيات الذكورية المستعملة ، والحقن. فيما انتصبت الخالة فينيما على رصيف الميناء وهي تراقبنا. كانت من أولئك المجانين الذين يوحون إليك بثقة فريدة. أما أسرار الحكمة فمخبأة في مكان ما من تضاريس وجهها العتيق. كانت حفيدة قبيلة الشيروكي 35 الذين تم نفيهم العام ألف وثمانمائة وثمانية وثلاثين على (طريق الدموع) ، سليلة أولئك الذين ماتوا بالآلاف على الطريق دون قبر أو إشارة تدلّ عليهم ، وعشرات الآلاف الذين شردوا عن أرضهم. رفعت يدها اليمنى ، فقامت أطلنطا بضغط المكابح في توقف فجائي ، كاد أن يوقع بي من على ظهرها. ترجلت دون حوادث وأزحت القبعة عن رأسي ، فاعترتها الدهشة لدى رؤيتي. كانت تظني ميتا. لو لم يسبقني أحدهم إلى كلمة (النشور) لقمتم بإيجادها.

- كولومبو! - كاد وجهها الرمادي الذي بدا أقرب إلى أفنعة الموت لدى القبائل البدائية ، أن يتفنت في أي لحظة ليصبح مجرد غبار منشور.
- مرحباً فينيما.
- خذ أمانتك. - قالت ومدت نحوي (القناع الأحمر).

أخذت رواية الرسوم المتحركة وأدخلتها في حجري ورفعت سحاب سترتي الرياضية حتى العتق.

- إن علموا أنني لا زلت على قيد الحياة ، فسيدفنونني حياً. - قلت.

أملت رأسها قليلاً ، وعقدت حاجبيها وبدأت تتفحص وجهي:

- من سيقوم بدفنك ؟

- بدري دوبارا ، منظمو مباريات ال. (بوم فايب).. لقد أضاعوا جسدي ، ولكنهم يأملون الحصول عليّ حياً.

أمسكت بيدي اليسرى ، وأخذت تتفحص كفي:

- أنت ميت أكثر مما يرغبون فيه..

- ماذا؟

- خط الحياة لديك كولومبو ، أقصر من عمرك.

لقد ماتت أمي ، ونفق والدي ، وكان أخي ضحية حادث مميت ، وأحالت الأنقاض حبيبتي إلى جثة هامدة ، ومات داخل أحشائها طفلنا.. وهذا لا يماثل إلا الوقوف وسط الملعب مع فريق منقوص العدد. ورغم ذلك حاولت الاستيضاح منها أكثر:

- أتعقدين بأنني لست سوى شبح؟

- لا ، فمعظم الناس لا يعيشون كولومبو ، حتى أنا لا أعيش. القلب ينبض ، والفم ينطق واليد تتحرك ، ولكن الروح خامدة ، دون أن يعلم أحد. ودون أن تفهم ذلك..

استلت خنجراً من نطاقها ، وقام هذا الهيكل المغضن الذي يرتدي قفازاً ، بغرز الخنجر بين قدمي ، وأطالت القوس الذي رسمته أسفل إبهامي بضع سنتيمترات:

- هذا سيكسبك بعض الوقت.

- لأي شيء؟

- لقد جهز الموت كافة إجراءاته قبلاً، في انتظار اندمال جرحك وقيامك بإنهاء كافة الترتيبات لإنقاذ حياة أخرى..

- وما الذي يعنيه إطالة العمر من خلال القوس؟ أهو طقس هندي؟

- لا، لقد قرأتها في رواية (الهمس على المشنقة) لإيمراه سيربيس.

ألقيت نظرة أخيرة على أطلنطا التي انحنت على المرج الصقيعي.

- أهى مزحة؟

- الإنسان، لا يفعل في هذه الحياة شيئاً سوى المزاح..

الحمقى والمبتذلون هم مالكو

هذا العالم الفعليين

«الموت مقارنة بالشيخوخة ، كشرب عصير

الليمون بعد وجبة فاصولياء مسمومة».

(غريغوري غورين ، 1940-2000 ، الجاسوس العاشق العطوف)

بدأت تعقب روحي مجرد بخطوات سرطان يرقد في قدر الماء المغلي لمطعم إيطالي لتحضير (زوبا دي غرانشي) ، وأخيراً تعرفت إلى آخر المحاربين في ملعب فنار باهتشي - الذي ارتدناه أنا وأوزان لأسابيع متواصلة - في احتفالات الثالث والعشرين من نيسان. وقبلت يده التي تستحضر للذهن حساء المومياء ، وتنشقت عطر عزرائيل الذي وسمه. كان قد تجاوز العتبة التي يتحول فيها العمر المديد لعنةً منذ زمن طويل.

لا ، ليس إلى هذا الحد ، فهو لم يكن أحفورية زومبية على أي حال .. كان فقط في المائة من العمر ، الأمر الذي تعرفه كل البلاد. وكان الملايين يرمقونه بنظرات تقول:

- لقد انتهت المهلة الممنوحة لك ..

من الصعب التخمين كيف يبدو عجوز بلغ قرناً من الزمن ، فروحي مجرد كان زاخراً بالحيوية ، وبدا وكأنّ عمره يتغير من يوم إلى آخر. ففي أحد الأيام قد يبدو في الثانية والثمانين ، وفي آخر في السابعة والخمسين .. وبعد أن تترسخ علاقتنا ونتمكن من تبادل حديث ودي ، سيعترف لي:

- صحيح أنني بلغت المائة ، ولكنني أبدو كما وأني في الخمسين ، وأشعر كما وأني في الخامسة والعشرين.

وقد أحالت السنوات هذا السحلية صاحبة الأوسمة ، إلى شخصية حاضرة البديهة وساخرة ، رغم أنّ ما يخفيه تحت مظهر القاطور العتيق هذا ، دهشة لا تقل عن دهشة صوص فقتست عنه البيضة للتو. ككل العجائز كان متذمراً ، مغروراً ، كما أنّ الحرص الشديد على الذات قد تملّك روحه .

كنا نتقدم أنا وأوزان يداً بيد وسط الحشود لنقترب من روحي مجرد ، فنظر إلى أوزان مبتسماً. سألته في لطف مصطنع:

- كيف حالك سيدي ؟

- هذا سر .

وعلى الفور لجأت إلى الأكاذيب المكرورة:

- كنت أرغب في التعرف إليك منذ زمن طويل ..

- أووو! إذا هذا أنت ؟

وفي انفعال مصطنع:

- أكاد لا أصدق .. حضرتك .. روحي مجرد!

- إيه ، هذا ما أنا عليه لعدة أيام إضافية ..

يثير الشبان السذج الحمقى والبسطاء فرحة العجائز. وكان روحي مجرد يكرر بأن الحمقى والمبتذلون هم مالكو هذا العالم الحقيقيون. ولم أكن في نظره سوى مجرد أبله

آخر.. ولكن لا أبالي ، فمن يعاملك على أنك أحمق يسهل عليك مهمة تقمص الدور ، وما كان عليّ سوى ارتداء غلاف مسبق الصنع. وبذلك سيعتبرني الاستثمار - المحارب العجوز - شخصاً مطيعاً ، أهلاً للثقة بي كشمّاس معتبر.

في (باكت) وبالتنسيق مع معصوم جيحي ، قمنا بوضع كافة تفاصيل العملية. سندسّ عميلة في منزل روحي مجرد ، من خلال تبديل المواقع ، وستقدم نفسها باسم (فيغان نيغاتيف) مدبرة المنزل ، موهمة العجوز بأنها تقوم بخدمته المنزلية منذ أعوام طويلة ، وقد عادت من عطلتها مؤخراً.. وفيغان نيغاتيف ليست إلا أقل بقليل من أكثر المشعوذات سوءاً ، حيث ستعمل على خفض ضغط العجوز بسمومها ، ما سيقوده إلى اختصاصي علم الخراء ، الذي سيزرع الرقاقة في دماغه.

أوضحت لمعصوم الأصلع:

- أسبوع ، ومن ثم ستزرعون الرقاقة في رأس العجوز..

- سينضم إلى احتفالات الشباب والرياضة المقامة في التاسع عشر من أيار ، ولكنه سيقضي بقية الأيام في المنزل. لذا ستمتد العملية حتى احتفالات التاسع عشر من أيار. فكما تعلم ، فنحن لن ندفع نقوداً لهم منعزل يهذي في أحلامه بعبارات إعلانية..

- كل ما أطلبه ، مائتان وخمسون ألف ليرة.

- النقود قد حوّلت لحسابك منذ الآن..

- حقاً؟

إذاً ، سأتمكن من معالجة أوزان ، سيشفى ابن أخي! اصطدمت في أحشائي شاحنة بصل ، بحائط صلد. فتجرعت الدموع وهي تسيل على وجنتي مدراراً.

بعد محاولات معدودة من روحي مجرد لصدّي ، أرخى أشرعته مستسلما .

- إنك لطيف كمن توارى في هيئة حمل وديع أيها الشاب .

في البداية لم أكن بالنسبة إليه سوى قنبلة موقوتة مخبأة في علبة الهدايا ، يمكن لها أن تودي به في أي لحظة . فالتكتكات ، كانت توحى له بالكثير . في زيارتي الأولى إلى منزله ، مع باقة الأقحوان في يدي ، علق :

- إنّ لها شذاً رائعاً ، إن متّ قبل ذبولها ، أرجو منك أن تضعها فوق قبوري .

كنا شخصين يقطنان المنطقة ذاتها ، وينتميان إلى عالمين مختلفين ، لا تجمعنا أي نقاط مشتركة . فكيف لنا أن نقضي الوقت معا ؟ كان عليّ مواءمة خطواتي مع سلحفاة معمرة تسير على سطح القمر .

بدأنا نتوجه سوية إلى الجامع ، نستمتع إلى سمفونيات من أقراص الفونوغراف ، وكنت على الدوام أقوم بإعداد الطعام . نترنح بين الدعاء والموسيقى والطعام ، من هذه الجهة إلى تلك في مثلث كانيزا .

في الفترة الأولى كنت أخشى من ثلة الجامع ، كانت هياكل المعبد البالية تبدو كمحكومين بالإعدام اجتروا آخر وجبة في حياتهم ، وهم يحدقون في فراغ مطبق . في أحد الأيام كان عجوز أزرق العينين يجرجر قدميه نحو المرحاض ، وقد هتف حين رأنا :

- أشعر بأنّ مئائتي ممتلئة ، حتى أنّ ما فيها يكفي لإطفاء حريق يشعل إسطنبول برمتها . - كان ذلك عوني واو ، الصديق المقرّب لروحي مجرد .

كنا جالسين على أحد المقاعد بانتظار آذان الظهر ، حين مرّ أمامنا عجوز ، ملتج يشبه فريدي كروغر ، وأخذ يحدق فيّ يامعان ، كان مظهره أسوأ من قاتل متسلسل سقط في جزيرة معزولة .

- أليس مظهره مروعاً؟ - قالها فجأة عوني واو الذي انتصب فوق رأسينا ، وهو ينزل أكمام قميصه ويزررها - كان يعبد النار قبلا ، ولم يمض على تغييره دينه وقت طويل .

سألته مستغرباً:

- أحقاً ما تقول؟

ضحك ساخراً.

- من أين لك بهذا الغرّ الخام يا سيد روجي؟

- تعارفنا في الحفلة التنكرية في مخيم العراة..

- أدعى جيفان - قلتها وأنا أمدّ يدي مصافحاً.

تصافحنا.

- عوني واو ، الكتاكت يسهونني واو! أكتب روايات بوليسية ، وقد أتيت إلى هنا بهدف المراقبة ، أنت تفهم ما أعنيه..

- أها! وما هو موضوع كتابك سيد عوني؟

- حكاية دبّ - دمية نجا من سقوط مروحية للشرطة في إحدى الغابات ، وتمّ إنقاذه وتربيته من قبل القروء..

- يا لها من قصة غريبة.. أعني مثيرة للاهتمام..

- ترهات.. - علّق روجي مجرد - إنها محض أكاذيب يختلقها. إنّه لا يكتب أي كتاب..

حبست أنفاسي وطويت شفطي داخل فمي ، حتى لا أتقوه بما يسيء إلى عوني واو.

- لو أنّ السيد رُوحى لا يتوهم أننا جميعاً أقران بُعْدِ زمني واحد ، لما استطاع بلوغ ما بلغه من العمر.. ولكن دع المزاح جانبا ، هل تريد حقاً معرفة موضوع الرواية ؟

- بالطبع..

ضاقت عيناه قليلاً حين بدأ بسرد قصته:

- العام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين ، موافقان ؟ حروب الشوارع ، اغتيالات سياسية ، فترة الاضطهاد والتعسف. في أجزاء مختلفة من إسطنبول يتم العثور على أجساد إنكشاريي الكاراكولوكجو36، ولكن من أين يظهر هؤلاء المحاربون الوسماء ، وقد تمّ حلّ الإنكشارية العام ألف وثمانمائة وستة وعشرين ؟ الشرطة تعتقد بأنّ اليساريين يقومون بالباس قوميي اليمين هذا الزي العثماني بعد قتلهم. فقبل كل شيء اليساريون يحبون المسرح ، ولديهم هذا النوع من الأزياء. وبذلك تتداخل مشاهد تاريخية في حفلات التعذيب التي يتعرض لها اليساريون على أيدي رجال الشرطة. ولكن شريف شيبومي أحد أفراد الشرطة المخضرمين ، تنتابه الشكوك حين يلاحظ أنّ ما من أحد يسأل عن هذه الأجساد ، كما أنّ معظم هؤلاء الإنكشاريين لا يظهر عليهم أي جرح ؛ لا طعنة سكين ، أو إصابة طلق ناري. يلتقي شريف شيبومي بميكي هامر في إحدى حانات غالاتا ، هل أنت معي ؟ حسناً.. جاء الأخير في العام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين إلى إسطنبول بدعوة من حزب الشعب الجمهوري ، وتمكن من الكشف عن ملابسات محاولة اغتيال كانت تستهدف رئيس الحزب آنذاك إجيفيت ، فقام القوميون المتطرفون باغتيال خطيبة ميكي. وبالمقابل قتل دزينة من الفاشيين ولكن ذلك لم يُهدئ روحه المضطربة ، لكن الفوضى والإرهاب اللذين كانا يسودان إسطنبول ساهما في تشتيت عذاباته ، ما جعله يبقي المرساة على شواطئها. وقد حكى له شريف شيبومي قصة الجثث الإنكشارية ، طالباً منه المدد. ولكن ميكي كان ساهياً في عالم آخر ؛ في حداد لا ينتهي على حبيبته المقتولة. وقد ترك نفسه للشرب ، وبدأت النقود بالاضمحلال.. يقدم شريف لميكي كيساً ورقياً مليئاً بأوراق نقدية مئوية. يخرج ميكي ورقة وينظر إلى صورة أتاتورك المطبوعة عليها ويهتف في حبور:

- أنا أحبّ هذا الرجل.

وبذلك ينغمس المحقق بكليته في الحادثة مبحراً فيها من الأعماق وحتى الشيطان ، ولأخذ الدعم اللازم ، قام بالاستعانة ببروفيسور متخصص في التاريخ العثماني ، ليكتشف أنّ زيّ هؤلاء الإنكشاريين بالغ الأصاله من الرأس حتى القدمين ، بدءاً من النقوش التي تزين الصداري ، الأهداب المتدلّية من السُتر ، إلى جلود النعال ونقوش الخناجر.. كلها بحذافيرها المتنوعة أصلية ، بما فيها أوراق أدعية الجوشن المحفوظة في تهائم معلقة على صدورهم ، بخطوطها والحبر المستخدم في كتابتها ، كلها عثمانية المصدر. تختلط الأمور أكثر على ميكي هامر ، فيتجه نحو (توييتاك) 37 ، ليتعرف في مختبر المؤسسة على الفيزيائية تيسلا لوتوس ، والتي كانت نوعاً من النساء لم يعرفه أو يختبره سابقاً ، وقد استحوذت على اهتمامه. وبذلك غدت أجساد الإنكشاريين الجسر الذي أوصل ميكي إلى الليدي لوتوس. وأما بعد ذلك.. تقوم لوتوس بأخذ ميكي في أحد الأيام إلى قبو أحد المخابر ، تمام؟ وهناك تريبه آلة زمن تمّ بناؤها في العام ألف وسبعمائة وسبعين ، ما يعني أنه لم يكن هناك أي جرائم قتل ، وقد كان العلماء العثمانيون يقومون بتجريب الآلة ، ولكن المؤسف أنّ هؤلاء الجنود يغدون شهداء للعلم. كما تحدّثه لوتوس عن قيام (توييتاك) بالعمل على إنشاء نسخة محدثة من هذه الآلة ، والمشكلة أنّها لا تعمل إلا في اتجاه واحد ، فترسلك إلى الماضي دون القدرة على العودة مجدداً. لا يحاول ميكي مصارحة لوتوس بحقيقة مشاعره ، ذلك أنّها متزوجة ، ولكنه يكشف عن كافة ملابسات القضية للمحقق شريف شيبومي. وفي إحدى الليالي التي يبالح الشرب فيها ، يدخل آلة الزمن سراً لتعود به إلى العام ألف وسبعمائة وتسعة وسبعين. وفيما يتلف حوله في أحياء إسطنبول القديمة ، يكتشف رسالة في جيب سترته ، تعترف فيها لوتوس بحبها ، وانفصالها عن زوجها وأنه بات بمقدورهما التقرب أكثر إن كان راغباً في الأمر. يا للرجل المسكين! لقد بات بعيداً عن حبيبته مائتي سنة ، بقلب جريح وفي بلاد غريبة.

لا يجد أمامه سوى كتابة رسالة حب مشقّرة لها ، ويعثر على مخترع آلة الزمن

دَهَشَتْ أفار شاطر بيك ، ليحمل الرسالة أحد أفراد طائفة الكاراكولوكجو المسافرين عبر الآلة المميّنة. والمؤسف أنّ الرسالة لن تبلغ صاحبها ما لم يمّت الرسول. فيبكي ميكي للمرة الأولى في حياته.

ودون وجود ساعة في معصم روجي مجرد ، يطرق معصمه الأيسر بإبهامه مشيراً إلى حلول الوقت ، لننهض جماعة. وفيما كنا نسير نحو الباب الداخلي للجامع ، سألته:

- وما الذي يحصل بعدها؟

- أتعلم؟ - قال عوني واو - لو أنه قام بإيصال الرسالة بدل إعطائها للجندي ، لكان موقفه أكثر شهامة.

- حسناً ، ولكنه سيموت حينها.

- فكر بالأمر.. ما الذي ستفعله تيسلا لتوس بعد أن تكتشف الرسالة في جيب الإنكشاري؟

- لا أعلم..

- ستقفز في آلة الزمن وتعود مائتي سنة إلى الماضي ، لتلاقي حبيبها.

- رائع! المحقق الأمريكي والعالمة التركية ، سيدآن حياة جديدة في عهد عبد الحميد الأول.

أمسك روجي مجرد بساعدي وهو يقول:

- بر بر بر.. لقد استطاعت خردة العظام هذه أن تستحوذ عليك أيضاً!

فاستخدم السيد عوني حقه في الدفاع:

- الحكايات الفانية تمنح الحياة ، والحكايات المسمومة تغذيها.

كانت جماعة المصلين تحتفي بروحي مجرد احتفاءً بالغاً:

- السلام عليكم أيها الأب الغازي.. تقبّل الله منكم شيخنا.. أهنأك ما تحتاجه

سيدي؟..

قبل الوقوف في صفوف الصلاة ، همست سائلاً عوني واو:

- أتكتب رواياتك على دفتر؟

- لاااا.. استخدم آلة كاتبة. لها تسأل؟

- لقد سمعت أن أفضل الكتب دُوّنت على (دليل)..

وقبيل أداء الصلاة وفيما نحن مصطفون ، انحنى عوني واو نحوي متسائلاً:

- وما هو ال.(الدليل)؟ أهو كمبيوتر؟

- أجل ، وإصداره (XPS) المحمول رائع بالفعل. فوحي الإلهام يسكن داخل

تلك الآلة.

بدأ الإمام بلحظة تركيز كلاعب كاراتيه يهّم بكسر القرמיד المصفوف أمامه ، فيما

يوبخنا روعي مجرد بنبرة تفيض خشوعاً:

- لقد جئت إلى هنا للتحدث مع الله ، لا لسماع القيل والقال..

وعندها دخل الإمام في صلب الموضوع مباشرة:

- الله أكبر!

سأحيي حبيبتك ، ولكن بشرط

«ونعشي المسجى أرضاً ينبعث

كروح مجردة».

(محمد عاكف إرسوي ، مارش الاستقلال)

بعد موت سربيل سيلاحي بييري ، هل لزلتُ كما كنت ، أم أصبحت غريباً عني ؟

أهي فوجير من تربطي بالحياة ، أم الحياة نفسها ؟

هل أوزان هو سبيلي إلى السمو الروحي ، أم أنه يهدئ أناي ؟

هل سيتركني روحي مجرد جوهرة أم مجرد حفنة رماد ؟

هل يشتري معصوم جيحي مني قوة عملي أم روحي ؟

كانت أنصاف دوائر إشارات الإستفهام الملتوية تتشابك بعضها ببعض في رأسي ، وأنا أسير في دروب مقبرة زينجيرلي كوي ، خاضعا لقوانين الطبيعة المغلقة على عقلي. في جيبي مجلة رسوم أطفال ، وفي يدي وردة حمراء ، وتحت إبطي رغيغ. أطلق الليل سهام الظلمات التي حلت فجأة ، فيما الخفافيش تطير حول أفلاك السرو الحزينة. مع حلول الليل كانت الغابة الآخروية تبدو أكثر اتساعاً ، وأنا أراقبها بترقب يفيض آمالاً كما طرزان ، حين انتظار جين قادمة من بين القبور.. هيهات! قرفصت قرب قبر سربيل سيلاحي بييري ، وقبلتُ شاهدة القبر ، وغرزت الوردة في التربة الحمراء التي تستحضر كعكة الشوكولا. وأسندت الخبز إلى الحجر ، ونظراتي تتعقب كلباً يعدو وهو يحدث نفسه. تمددت بجوار

القبر ، ووضعت مجلة رسوم الأطفال (القناع الأحمر) التي أخرجتها من جيب ، تحت رأسي كوسادة. وبدأت أضم حفناً من التراب ، وأراقبها تنفلت من بين أصابعي .

- سربيل! كان ليّ أن أضع في فمي فوهة المسدس ، وأتلقى رصاصة بدل حبة مسكن الألم.. أعلم أنّ الانتحار ذنب غير مغفور ، ولكنني أحيا كشرح لم يتمكن من تجاوز مشاكله النفسية. لقد عاش حبنا أطول منك ، وأخشى أن يعيش فراقنا أطول مني .

تنسكب دموعي على التراب ، فتشكل بقعة طين لزجة ، ويلتصق الطين بوجهي وثيابي ، أعلق في انجراف دماغي ، وسيل المشاعر ووادي الموت ، فأشعر بأنني سأنسكب إلى داخل سرير حبيبتني. سأقوم بجولة سياحية في مركز عالمي الخاص ، بميزانية منخفضة التكاليف..

- العذابات القسرية ، تغدو عند حدّ معين غير شرعية يا سربيل. ربما ما كان عليّ الخوض في معمعة الحب ومناهة المشاعر. غدوت شريداً ، في منتهى الضياع ، ورغم ذلك لا زلت أطيّر عكس اتجاه الريح ، وكأنّ حياتي مجرد حركات وأفعال دون أي مغزى. أطوف مسالك الخطر ، مناطق الإرهاب وضواحي الجنون دون هدى. وأجزم أنّ الجدية الراسخة التي تطبع الكون ، لا تنبع سوى من العبث الذي يلف كل شيء. فموازين الفناء الدقيقة ، ليس بوسعها أن تزن الأبد. لا أعلم.. أغلب الظن أنّ أناي لا تفعل شيئاً سوى محاكاة صوت وجداني. سربيل سيلاحلي بيّري ، كل مرة نظرت إليك فيها ، شعرت بأنني موعود بجنة تماثل أجمل أحلامي ، وتضاهي كل ما أصبو إليه. وحتى قبل التعرف عليك ، كنت أحس بأنّ أقدارنا ستتصادم معاً في إحدى مسارات الكون. ولكنني الآن وحيد ، أسير على درب غير واثق من وجوده ، للوصول إلى مكان غير موجود. وأعيد في لعنة مكرورة (لو أنّ.. إن كان.. لما حدث..) كمجذوب يهذي بترهاته.. صحيح كدت أن أنسى..

نهضت متكئاً على مرفقي ، وبدأ مطر رقيق كخيوط الصنابير بالهطول. فانهمكت في البحث مقلّباً صفحات مجلة (القناع الأحمر) للبحث عن فصل بعنوان (غريب لكنه

حقيقي)، وأنا أحاول أن أشرح الموقف لسربيل:

- لقد عثرت عليها في إحدى حاويات القمامة. لما أقدم أحدهم على رمي مجموعة متكاملة من اثنين وعشرين مجلداً؟ من المحال فهم ذلك. كان أخي أوكان يهوى جمع الروايات المصورة، وقد استطاع جمع كافة أعداد سلسلة (القناع الأحمر) و(ماندراكي) التي نشرتها دار تاي، والتي كان يقرأها بشغف حين كان طفلاً. ولكن زوجة أبي قامت بإحراقها جميعاً.. ها! ها هو؛ دعاء استحضار الموتى لعبد الله الحظرد من كتاب العزيز. أعلم أنها قد تكون مجرد تخرصات، ولكن لا سبيل أمامي سوى التجربة. فحين سألت فينيما أجابتنني: "أول شروط السحر، أن يؤمن به الساحر"، فلا تسخري مني لأنني عقدت الآمال على تعاليم هزلية، عثرت عليها في رواية مصورة خيالية.

تأبطت رغيف الخبز - الذي بحسب ما ورد في التعويذة - عليّ أن أقدمه لسربيل حين تستيقظ، بإحكام شديد، وبذلك كنت مستعداً للخوض في عملية الاستحضار السحرية.

ألقيت نظرة على التوضيحات الواردة في المقدمة: إنَّ دعاء استحضار الموتى الذي تتم قراءته تحت ضوء القمر، هو في الوقت ذاته ميثاق بينك وبين أمير الظلمات، وإعلاناً عن تسليم روحك إلى برائته القوية. ومع طقوس القسم الذي يعزز عهدك، ستغدو مملوكاً له إلى الأبد. لذا عليك أن تكون واثقاً من رغبتك في الانضمام إلى هذا العرض الراقص الذي يرعاه إبليس. وإن تراجعت فأعلم أنّ جميع ما ستتمناه في الباقي من عمرك، سيتحقق بشكل معكوس. فمن المحتمل أن تتسبب في هزّ ذيل لوسيفير الذي ظلّ محافظاً على مبادئه منذ القدم في خوض معركة لا هوادة فيها داخل العالم المادي، وبذلك سيستحيل عليك الخروج ولو خطوة واحدة عن حدود الجحيم. الخلاصة: سيلحق بك الأذى.

سحبت نفساً عميقاً، وبدأت بقراءة الدعاء المكتوب بلغة إينوجين: [38](#):

„Oxiayala holado, od zodirome O coraxo das zodiladare raasyo“

!Od vabezodire cameliaxa od bahala: NIISO! salamanu telocahe

!Casaremanu hoel-qo, od ti ta zod cahisa soba coremefa i ga. NIISA

bagile aberameji nonuçape. Micaoli beranusaji perejela napeta

,ialapore

das barinu efafaje Pe vaunupeho olani obezoda Zodiacare

eca od Zodameranu! odo cicale Qaa! Zodoreje, lape zodiredo Noco

!Mada, hoathahe Saitan

(ستتحطم أركان المعبد المقدس ، وتظهر أربعة بروق في الشرق كبرهان. ويتدفق النداء من الفم: عودوا من جغرافيا الآخرة ، من أحشاء العالم ، فليجتمع الهاربون إلى أرض المحشر ، ليُكافئهم سموه. أناديكم أيتها الأرواح الشقية ، يا أكثر الخلق عذاباً! يا خيالة الأعاصير ، تعالوا.. لقد أعددت لكم المائدة ، تحركوا ، وتعجلوا.. رويداً رويداً أزيحوا الحجب عن وجودكم ، تعالوا إليّ مطيعين ، فأنا سيدكم الحقيقي. وحارس ذخائر الأزل).

وحتى قبل أن أنهى الدعاء ، بدأت زوابع رياح بادرة منتفضة العمل ، وارتسمت فوق زجاج الظلمة المنيعة على الرصاص ، تعاريج البروق. وأخذ زعيق الطيور والخفافيش والظلال الصاخب يختلط. وكأنّ زلزالاً ضرب الجحيم - مركز الكون ، فشعرت به كائنات هذه العالم ، وعلا نباح كلاب خفية ، وكأنها تكيل شتائم قذرة. فرميت مجلد (القناع الأحمر) مضطرباً ، ولكن المجلة التي حملتها الرياح التقطتها عظام يد خرجت من قبر سربيل. فتجمد الدم في عروقي. وبدأت كافة القبور على مدّ البصر ترتجّ متململة ، وبدت المقبرة وكأنها غرفة الولادات. كانت الهياكل العظمية ، مستندة إلى يديها ، تنبعث من الأرض واثقة من نفسها. هذا المشهد التسونامي الظلامي ، دبّ الذعر في روحي ، فالتجربة الهذيانية التي خضتها محاولاً استعادة حبيبتي ، أيقظت كافة ساكني (زينجيرلي كوي) ، ولم يخطر لي ولو

للحظة الحصول على نتائج مثمرة إلى هذا الحد. كانت الأرض مليئة الأحشاء تتقيأ دون توقف. وهكذا وجدت نفسي أمام إحدى مقالب الشيطان الجهنمية. ولكنني لم أستطع أن أبعد ناظري عن قبر حبيبتي الغالية ، والتي لم يتبق منها سوى هيكل من العظام العارية. وباستثناء جثة أو اثنتين بداتا جديدتين بعض الشيء مقارنة بالآخرين ، رغم جمجمتهما الصلعاء ، عضلاتهما الضامرة ، وجلديهما المنكمش ، فقد كان بقية الحشد الذي يتجه صوبي بخطوات متثاقلة ، مجرد عظام عارية.

جرجرت نفساً منسحباً ، وأنا أرمي سربيل برغيف الخبز ، رغم أنّ أقصى ما كنت أتمناه قبل قليل هو احتضانها. فالتقط هيكل حبيبتي الرغيف ، وقضم طرفه بقوة.

- سربيل! أهذا أنتِ يا عزيزتي؟ - كان صوتي أكثر ارتعاشاً من صوت باباي.

لم تكن لفتات الخبز المتناثرة من بين عظام فكها ، أن تمحو الابتسامة اللاإرادية التي تغطي فمها. ورغم افتقادها للسانٍ أو شفاهٍ وحبالٍ صوتية ، فقد كانت تتكلم:

- أنا لك وحدك بكل ما فيك إلى الأبد يا حبيبي..

جريت هارباً نحو باب المقبرة محاولاً إنقاذ روحي ، فخطوات الزومبي المتعثرة كانت في صالحني. اجتزت الشارع ، ووقفت أمام المنصّف. حركة المرور كانت خفيفة ، وفجأة ظهرت سربيل أمام الباب ويدها رغيف الخبز. ومن الأعلى كانت سيارة أجرة تقترب بسرعة كبيرة ، وصوت أغنية (سيقتلونني) لتولاي أوزير ينبعث عالياً من داخلها. وعندما انحنى السائق بشكل آلي ليخفض صوت المذياع حين المرور من أمام المقبرة ، ارتطم بعظام سربيل دون أن تتاح له فرصة الضغط على المكابح. وفيما العظام تتناثر على الإسفلت ، طارت الجمجمة نحوي ، وفي ردّ فعل انعكاسي وجدت نفسي ألتقطها. وكروبوت آلي خرج صوتها معدنياً وهي تخاطبني:

- قتلني يا حبيبي!

كدت أفقد صوابي ، فيما جسدي يرتعش رعباً. ورغم ذلك وبدفع من نيران الحب التي ما زالت تتقد في قلبي ، تأملت المحجرين الفارغين ، اللذين كانا يحتويان فيما ما مضى عيني حبيبتي. فخرجت من صدري آنة قهر وذهول.

- آآآه!

- ما بك عزيزي؟ قبّلي!

كنت أرتعد ، ورغم ذلك تمكنتُ من رمي الجمجمة نحو المرح المقابل. في حين تجمد السائق دون حراك وهو يرى حشد الهياكل المجتمع على باب المقبرة.

قفزت إلى المقعد الخلفي للسيارة.

- انطلق!

- ماذا؟ ها؟

- انطلق بسرعة!

وعلى وقع هتافات القادمين من العالم الآخر:

- أتينا للموت ، للموت للموت طالبين ، أتينا بالثأر بالثأر بالثأر مطالبين..

لذا بالفرار.

ضم الموتى إلى المجتمع

«إنك تخلط ما بين النوم والموت يا

صديقي العزيز».

(أحد أصدقاء ريتشارد بروتيجان)

- دعنا نحارب.

- ماذا؟

- أرجوك!

حين فتحت عيني ، كان أوزان قد صفّ الجنود ، وجهاز ميدان القتال. رؤية وجه طفل بعد إحدى الكوايبس ، ينعش الروح. نهضت من على الأريكة ، وأدخلت قدمي في الخف المنزلي:

- إنّ جيشاً فارغ البطن ، لقمة مستساغة. دعنا نأكل شيئاً أولاً.

- حسناً.

كانت جملة ذات الكلمة الواحدة ، كانعكاس لواقع يُثممه ، تذيب شغاف قلبي ألماً. تركنا الجنود المستعدين لأمر القتال ، وانطلقنا نحو المطبخ. كانت نازلي هلال وقبل ذهابها إلى العمل ، قد أعدت الشاي.

وضعت بيضتين في الركوة ، ووضعتها على النار ، ومن ثم أدخلت شرائح الخبز المقطع في المحمصه . لفتت انتباهي الجملة المدونة أسفل لائحة المشتريات المعلقة على باب البراد بقطعة مغناطيس: «تواريخ الموت المدونة على شواهد القبور، ترينا عدد السنوات التي يقضيها الموتى في انتظارنا». وضعت مربى السفرجل ، الزيتون ، الجبنة البيضاء ، كريما الشوكولا بالفندق ، على مائدة المطبخ. لم تكن غيوم مزاجي قد انقشعت بعد ، فلجأت إلى شاشة (جي في سي) ذات السبع وثلاثين بوصة المعلقة على الحائط. وقبل تناول الفطور ، طالعتنا إعلانات عن فوط الأطفال ، مساحيق تنظيف المراحيض ومناديلها. ملأت كأس الشاي لنفسي ، والحليب لأوزان ، وقذفت حبة زيتون إلى فمي. وأول خبر في النشرة الإخبارية كان: «تمّ تخريب مقبرة زينجيرلي كوي مساء البارحة على يد مجهولين ، وقد بدأ التحقيق مع حارس المقبرة أوكيش كورشيبك الذي كان في مقر عمله أثناء الحادث ، وقد أدى نثر عظام بعض الجثث إلى غضب عارم. كما أدان رئيس البلدية هذا الحادث المشين متأسفاً ، وقد بدأت الشرطة بالعمل للقبض على من قام بهذا الاعتداء»..

يا للهول ، لم يكن حلماً إذاً! طارت بذرة الزيتون من بين أسناني كرصاصة لتفجر كأس الشاي.

فغطت وجه أوزان ابتسامة إعجاب. وفيما أجمع شظايا الزجاج المتناثر على الغطاء المشمّع ، وأمسح الشاي المسكوب عليه ، بدأت خلايا ذاكرتي تنشط ؛ لقد قمت البارحة مساءً بزيارة قبر سربيل وقرأت التعويذة الموجودة في (القناع الأحمر) ، والتي جعلت الهياكل العظمية المنتمية إلى مختلف الطبقات الاجتماعية ، تُبعث من أجدانها.

- عمي!

- ها ، ما الأمر أوزان ؟

- المرثي .

رمى القماشة الساخنة المبللة ، التي تحوي الزجاج المنثور في القمامة ، وقمت

بدهن قطع الخبز المحمص بالمرّي وقدمتها لابن أخي.

- تفضل عزيزي.

- شكراً.

كان ضابط الأمن ذو الأنف الضخم ، ينتصب أمام الكاميرات كما لو أنه يودّ تأكيد مدى أهمية ضخامة الأنف ، فوق الشارب الكثّ ، يرتدي معطفاً سميكاً ، وهو يلقي بياناً للصحافة:

- ما أرجوه منكم حالياً ، أن تكونوا مطمئنين.. فنعوش كل من أورهان كمال ، روجي سو ، أحمد عدنان سايفون ، صدري الشكّ ، توركان صايلان ، أيهان إشك ، ساكيب صابنجي ، كمال صونال وعبد الحميد تارهان³⁹.. لم يتمّ سرقتها..

لقد قضي عليّ الآن ، فالكذب على الشعب في مناسبات كهذه ، هو جزء لا يتجزأ من وظيفة الشرطة المقدّسة. ولكنني بالمقابل ساهمت في ضمّ الأموات - الأحياء إلى المجتمع من جديد. وأظن أنّ الشيء الوحيد الذي يحميني من الجنون حالياً ، هو حماقتي المزمّنة. لم أكن أختلف في شيء عن القرد الذي يرمي سقف كنيسة السيستين بخرائه. وكانت روجي تننّ كطائر جريح مزقه سهم ، يحاول مواصلة الطيران.

- لقد شبعنا - يقول أوزان وهو ينهض عن الطاولة ويمشي في اختيال قائد يتوجه لقيادة جنوده البلاستيكيين.

- بالعافية.. - قلت.

كانت قوة من وحدات الشرطة تقوم بحراسة المقبرة التي أحيطت بالشريط الأصفر والأسود ، فشعرت أنني مدين لهم.

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «لا تنم بين القبور كي لا ترى كوايبس» لقمّت

إن صُنّت ضميرك لن تفقد عقلك

«في الانجرار وراء وهم عاطفي بتحويل البشر

إلى ما يسمى (أشخاصاً طبيين) حطمت نفسي».

(فلاس فامبيلوف ، 1901-1977 ، طاقم المشردين)

على الطرف الآخر من المكالمة ، توضح لي جاسوسة (باكت) فيغان نيغاتيف ،
المتسللة إلى منزل روحي مجرد:

- لا تقلق ، لن تواجهنا أي عقبات.

- هل رآك ؟

- ليس بعد - تتحدث بصوت تمساح تم تدجينه في القصور.

- وماذا إن لاحظ ؟

- أنا ممثلة أقدم حتى من تراب المسرح سيد جيفان ، وإن شئت أستطيع التحول

إلى أمّ روحي مجرد..

- حسنا! إن كان هذا ما تقولينه.. هل أعطيته الدواء ؟

- سأمزجه مع وجبة البروكولي تاورولين..

- وما هو الناورولين ؟

- وجبة خاصة تستخدم لغسل وتنظيف الأمعاء ، في حالة الإصابة بالتهاب الصفاق..

- ها ؟

- وحتى لو تغير مذاق الطعام عليه ، فلا أظن العجوز سيلاحظ الفرق كثيراً..

- حسناً ، وهل أستطيع التحدث إليه ؟

- بالطبع. وبذلك سأبشّره بوجودي..

كل هذه الأكاذيب ستودي برأسي ، إنها تماماً كقيام نيو بابتلاع الحبتين الزرقاء والحمراء معا في فيلم الماتريكس ، حين خيّر مورفيوس بينهما.

سأقول لروحي مجرد: «أريد القدوم لزيارتك إن كان ذلك ممكناً» ، وفيما أضع الجملة على رأس لساني ، يتجه عقلي إلى مكان آخر ، ماذا لو مات بسببي ؟ سأقضي بذلك على آخر المحاربين ، قبيل قدوم أجله..

- ألو ، جيفان! - يأتيني صوته قلقاً..

- تفضل سيدي - أجيبه.

- علي الخروج على الفور - يطلب خائفاً.

- ما الذي تعنيه بالخروج ؟ - أسأل في حيرة.

- دعنا نذهب إلى أي مكان - يقول متردداً.

- بالطبع ، ولكن إلى أين ؟ - أسأل في فضول.

- مدينة الملاهي - يجيب مضطرباً.

استقليت برفقة أوزان سيارة أجرة من أجي باديم ، وجلسنا متجاورين في المقعد الخلفي. وفيما نحن متجهان نحو يلدغيرمان ، بدأ السائق الكلام عن حادثة مقبرة زينجيرلي كوي:

- هناك فيديو للواقعة على الإنترنت ، قاموا بإطلاق وابل من الرصاص على الهياكل ، فقد ارتعدت فرائص رجال الشرطة هلعاً. وأنا أؤكد لك أنها من علامات اقتراب الساعة ، وعليه أوقع. - وبدا وكأنه يخط شيئاً على العدّاد الذي تغيرت أرقامه الحمراء - ولن أستغرب إن بدأ أموات (كاراجا أحمد) عما قريب بالخروج من قبورهم أيضاً.

فأخذ أوزان يحدّق فيّ بعينين ملوّهما التساؤل. لا بدّ وأنه أخذ يعتقد بإمكانية عودة والده إلى المنزل. فبادلته النظر وأنا أجيب السائق:

- لقد مات أكثر من مائة وعشر مليارات إنسان.

- ماذا؟ إنك مخطئ يا رجل ، فسكان العالم لا يتجاوز تعدادهم السبع مليارات.

- صحيح ، ولكن أعداد من عاشوا وماتوا عبر التاريخ يناهز المائة وعشر مليارات..

- يا للهول! إذاً فالزحام يطغى على سطح الأرض وباطنها على السواء.

- وما الذي يعنيه هذا برأيك؟

- وما أدراني؟

- أنّ الفصل الأكبر من القيامة قد بدأ بالفعل..

أحمل المحارب العجوز على كتفي ماراً بين ناطحات السحاب والسوبر ماركات والسيارات الرياضية. تخيلوا اللقطة مقتطعة من كتب التاريخ ، وقد تجسدت في مكان

تمكنت من إيصال أوزان إلى البيت على عجل ، ومن ثم توجهت بالعجوز حائز وسام الاستقلال ، غازي مدينة الملاهي ، إلى المشفى المزيف الذي حدثني عنه معصوم جيحي في (كادي كوي).

فتح الطبيب ثقباً في شفق روحي مجرد بواسطة مثقب للمجوهرات. كنت أراقب العملية من الستائر الحديدية التي تغطي الحجرة الطبية المزيفة. وقام بإدخال الرقاقة التي كان يمسكها بملقط رفيع ، على ضوء البروجيكتور إلى دماغ العجوز. إذأ ، فقد خضعت لذات الخطوات أيضاً. أخذت أفرك شذقي دون إرادة ، فيما الممرضة تمسح الدم المناسب على خد المجاهد المخدّر. وفي نهاية العملية ، تم إغلاق الثقب بضوء بلون الحلوى الوردية.

قضيت ساعات على كرسي (فينيليكس) الدوار. كان وجه روحي مجرد المتطاوّل يبدو كقلب منتصب.

على باب مدينة الملاهي ، قال لي الشاهد الوحيد على الحرب بشكل مفاجئ:

- الإنسان عاجز عن تخيل ارتكاب الآخرين لإساءة يأنف هو من ارتكابها.

وكان يشير إليّ فيما كلانا نلوح لأوزان وهو يمتطي الحصان حين ظهوره بين دورة وأخرى:

- أحياناً ما نعتقده ذكاءً ، ما هو إلا صيغة من الغباء عدّلت مظهرها.

وقبيل أن يتركنا من أجل الصعود في الدولاب الدوّار ، خاطبني بالقول:

- عزيزي جيفان ، نحن لا نحسب اللحظة التي نعيشها جزءاً من الحياة ، وبالتالي نفقد كل ما لدينا.

كانت صرخات ضهييري المرعدة قد أصابتنني بالصمم ، وقد ألقيت في ظلام من

أحدث طراز. وحين يفرق المرء في تلك الحفرة المعتمة ، يمتلك الكثير من الوقت ليفكر فيه عزيزي القارئ.

لقد قلبت المقبرة رأساً على عقب ، وحين أيقظت هيكل توأم روحي ، رميت جمجمتها على قارعة الطريق .

وكان قيامي بوضع دماغ المحارب المئوي على طاولة القمار لم يكف ، لأقوم ببيع روحي أيضاً إلى الشيطان .

ولكن ملاك الطيبة داخل أعماقي ، ظلّ يهمس إليّ بالمحاولة من أجل شفاء أوزان. فيما الحيوان الذي اتخذ جسدي مسكناً ، كان يحثني على نسيان سربيل ، والعدو نحو ألوان الشفق المثيرة في غرفة فوجير. أما عفريت الرأسالية القابع في دماغي ، فقد كان يأمرني ببث عواصف الدعاية في كل مكان. وأخيراً الشيطان الذي بعته روحي ، كان الوحيد الذي يحاول تهدئتي في هذه الظروف ، لقد غدا إبليس معالجي النفسي .

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «الحياكة بأسلاك الكهرباء» لسبقته إليها.

الممنوعات التي بات انتهاكها قانوناً

اشترت دفتر (مولسكين) مخططاً صغيراً للجيب ، بالإضافة إلى سيارة صوبارو - فوريستر مستعملة. كانت السيارة طحلبية اللون ، توحى بوعد إيصالك إلى أي مكان تريده فيما لو لوحث لها على طريق ما.

قمت بتسجيل السيارة باسم نازلي هلال ، فأنا في عداد الموتى بحسب الأوراق الرسمية. ولا يمكن للبحث امتلاك سيارات.

أما الدفتر فسأدون فيه جمل روجي مجرد التي تززع ثقتي بالأشياء التي كنت متيقناً من صحتها فيما مضى. لذا قمت بتدوين كلماته هذه قبل أن تضيع في ثنايا ذاكرتي: «من لا مثيل له ، ليس واحداً متاً بأي حال.

الكسل يحرك المشاعر.

الحمقى يلاحقونك بأخطائك التي تخليت عنها منذ زمن طويل ، أما الأذكياء فيتهمونك بفقدان الرسوخ.

قبل أن تتمكن الحشرة من أكل لسانك ، قم بابتلاعها.

الأنانية ؛ أكثر السبل التي يطرقها الحمقى لإلحاق الأذى بأنفسهم.

إن تمكنت من قول أشكرك ، بدل أغرب عن وجهي ، فذلك قمة التهذيب.»

كان أوزان ممدداً على الأريكة يُلوّن رجال الفضاء الغزاة الذين قام برسمهم ، فنهضتُ أبحث عن نازلي هلال. وجدتها تدخن في شرفة المطبخ المطلة على الحديقة

الخلفية. فتوجهت بهدوء نحوها.

- نستطيع إجراء العملية لأوزان.

- ماذا قلت؟ - أنزلت قدمها من سور الشرفة ، وحدقت في وجهي.

- لقد حصلت على النقود. فلنتحدث مع الأطباء لتحديد موعد العملية.

- حصلت عليها؟ كيف؟

- هل تعرفين روجي مجرد؟

ضيّقت عينها:

- الرجل الذي نجا من حادثة الطائرة التي أودت بحياة أوكان؟

- أجل ، ومحارب حرب الاستقلال ذو المائة عام.

- لما يرتدي الزيّ العسكري على الدوام؟ يتوجب على أحد إخباره بأنّ الحرب

انتهت.

- هل أنت حانقة عليه؟

- لا ، فلا علاقة له بوقوع الحادث..

- تعارفنا بالصدفة في احتفالات الثالث والعشرين من نيسان. ولكنني لم أكن

أعلم بوجوده على متن الطائرة ذاتها. المسكين ليس له أحد ، لذا بدأت أزوره باستمرار ،
وعرض عليّ أن يتكفل بقيمة العملية.

- لا يمكنني قبول هبة كهذه جيفان. - وسحقت عقب سيجارتها في المنفضة

الصغيرة التي تحملها.

- لها؟

- هبة من شخص لا نعرفه.. - كان صوتها يرتعش ، واغرورقت عينها. فقد بنى
كبرياؤها سداً بين الأمل واليأس..

- هل ستردين لفتة كريمة ستنقذ حياة ابنك ، من رجل مائوي حارب في سبيل
حريتنا جميعاً؟ أظنه تصرفاً ينافي اللباقة.

- ولماذا يريد منحنا مائتي ألف ليرة؟

- لقد سألته السؤال ذاته.

- وبها أجابك؟

- بأنه التوقيت المناسب الآن لكي يموت معدماً..

بدأت دموعها تنهمر على فمها المبتسم. وقد همّت باحتضاني وهي تقول:

- ماذا كنت سأفعل ، لو لم تكن إلى جانبي؟

اقتحم سرب من النمل عيني ، ووقعت تحت تأثير أكاذيبي التي أضفت معنى
حقيقياً على الحياة. كنت أستخدم القوانين كممسحة للأرض ، ومع كل خطوة جديدة ،
أنتهك أحد القواعد لأواصل دربي.

انفتح فمي:

- كولغيت ، لابتسامة أكثر إشراقاً - نطقتُ.

بدا وكأن نبض نازلي هلال التي لم تفهم ما الذي عنينه على وجه التحديد ، قد
تباطأ فجأة.

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «إشعال النار بقذح قطعتي جليد» لقمتم بإيجادها.

المواجهة مع بينوكيو أنفأ لأنف

كنا سعيدين داخل الصوبارو كدويدات داخل رأس الملفوف. في الحقيقة لم نكن ، فهناك ما يقلق روعي مجرد.

- أتعرف أحداً يُدعى معصوم جيغي؟

- معصوم جيغي؟ - انتفضت. أكان عليّ الاعتراف بأنه ذلك الأصلع المشؤوم الذي مكنته من زرع رقاقة في راسك ، مقابل المال؟ - لا سيدي ، من يكون؟ - أجبتة سائلاً.

- لا أعلم على وجه التحديد ، كل ما أعرفه أنني مدين له..

هل من صلة بين روعي مجرد ومعصوم جيغي؟ محال. وإلا ما الذي سيدفع الأخير ليقحميني في الأمر ، ويدفع لي مبلغاً لا يستهان به؟

- لم أفهم.

- لقد تذكرته بسبب زيارته لي في الحلم. أنا مدين له بألفي ليرة ، وكما تعلم ، فالدين هو أحد المساوي التي ابتكرها الشيطان بنفسه وتبناها الإنسان.. لذا عليّ العثور عليه في أقرب وقت ممكن ، وأحتاج إلى مساعدتك في ذلك..

- من الذي تعنيه؟

- ليس الشيطان بالطبع ، بل معصوم جيغي. فالشيطان ليس بعيداً على كل

حال.

كنت في مواجهة بينوكيو المستذئب أنفأ لأنف.

- أهنأك معلوماء أخرى تتعلق بمعصوم جيبي آلا الألفي ليرة التي تدين بها له ؟
- أخبرتك بأنني لا أعلم ، ألق نظرة على الفيسبوك ، فقد تتمكن من العثور على خيط يساعذك..
- معقول.. حسناً ، سأعثر على معصوم جيبي . - وسأسأله إن كان قد تعرف من قبل على روعي مجرد أم لا.
- الفيس بوك - أردف - إنه كخيمة الهلال الأحمر ، حين يجتاح التسونامي عواطفنا.
- كانت الكلمات تنساب من فم المحارب القديم ، دون أن يكون لها وجود مسبق في ذاكرته. وأنا السبب في هذه التناقض الغريب.
- ألدك حساب على الفيس بوك ؟
- لا ، أنا لا أستخدم شبكة الإنترنت ، وهذه المرة الأولى التي أسمع فيها بكلمة الفيسبوك..
- تاهت الكلمات عني ، تنهدت وأنا أشيخ بنظراتي عنه نحو الطريق. الأمور تزداد تعقيداً.
- أعاني من تشتت في ذهني هذه الفترة يا جيفان.. - اعترف - أشعر بنفسي كقروي يحمل باقة ورد ويقف مشدوهاً على عتبة أحد بيوت الدعارة..
- إن سلبتني الندم ، والقلق والرعب يا عزيزي القارئ ، فلن يتبقى مني أي أثر.

قراءة شفاه الأشباح

«الحب ، هو منح سلطة القضاء عليك لشخص

آخر والوثوق بأنه لن يستخدم هذه السلطة».

(أنطوان كوينتين ، 1888-1977 ، مَقْتَلَة حالت دون مَقْتَلَة)

صباحاً ، في إحدى المقاهي المنتشرة على ساحل بيبيك ، نأكل السميت الساخن المدهون بالجبنة السائلة والمربي التي أخرجناها من العلب الصغيرة ، مع رشقات من الشاي الخمير. هذا اللقاء هو لمنحي فرصة جديدة من قبل فوجير فوجي. سنسدل ستارة على الماضي ، ونبدأ من الصفر. من حولنا كانت الطاولات التي جثم عليها مجترّو الطبقة المخملية ، يرمقوننا بنظرات خاطفة ، مقدّرين الفرق بين مظهر فوجير الرأسمالي المغوي مقارنة ببؤسي ، محاولين تخمين الأمر الخفي الذي يملأ هذا الفراغ. لو تمكنت من سماع ما يدور من تقولات هامسة حول أطروحاتهم الرومانسية ، فلربما استطعت الإدلاء بدلوي ، واقترح فكرة أو اثنتين..

على التلفاز كانت نجاة الصغيرة تغني (أنا بعشق البحر) ، وكل من استمع إلى هذه الأغنية ، لا بدّ وأنه تذوق الرومانسية لمدة خمس دقائق متواصلة.

- أنا طبيبة ، وتستطيع أن تصارحني - تقول وهي تلامس يدي.

- حسناً.. حين وصلتنني رسالة التهنئة بمناسبة ليلة المعراج.. لا أدري ، ولكن في

ليلة مقدسة كتلك ، أعتقد بأنني لن أتمكن من البقاء دون اكتراث..

بدأت تفهقه في حيرة:

- ها؟ هاهاهاها؟ لااااا؟ هاهاها.. ههههه.. ها؟

- أرجو ألا تسيئي فهمي يا فوجير ، فأنت دون شك أجمل فتاة في الكون برمته ، وكل ما يخصك يثيرني بالتأكيد..

- هل أنت متدين؟.. وتعتقد بأننا الآن نرتكب إثماً يا جيفان؟ باعتقادك أنني فتاة سيئة؟

- على رسلك على رسلك لو سمحت. كنت في العاشرة من عمري ولم يكن قد مضى على وفاة أمي وقت طويل حين أمسك زوج أمي مثلي الجنس بيدي ، وأخذني إلى الجامع ليلة المعراج. أقمنا الصلاة ، ومن ثم قاموا بتلاوة القرآن ، وترنموا بالتواشيح الدينية ، ومن ثم وزعوا الحلوى والشراب. في تلك اللحظات أيقنت أنّ أمي تواصل العيش في عالم آخر ، وابتهلت بالدعاء من أجلها. أنفهمين ما أعنيه؟

مسحة الشفقة التي علت وجهها ، أضفت على جمالها بعداً آخر:

- أعتذر ، لم أكن أنوي استجوابك أو تقييمك أو محاولة اتهامك. في الحقيقة كل ما فكرت فيه هو أنني لم أنل إعجابك..

فيما كانت أغنية نجاة الصغيرة تسحبني نحو الماضي: «أنا بعشق الطريق لأنو فيه لقانا وفرحنا وشقاننا/ أصحابنا وشبابنا/ وفيه ضحكت دموعنا وفيه بكيت شموعنا وفيه ضاع الصديق / أنا بعشق الطريق / أنا بعشق البحر وبعشق السما وبعشق الطريق لأنهم حياة وأنت يا حبيبي / أنت كل الحياة..».

- مستحيل! هذا غير معقول.. فوجير.. أنا بالطبع..

- أنا أحاول الوقوع في حبك ، وإن حاولت مساعدتي سأكون ممتنة لك. إلى ما

تنظر؟ - التفت فوجير خلفها ، فوراء الجدار الزجاجي وفي موقف السيارات ، كان رجل في متوسط العمر ذو شارب خفيف وبوشم منجل فوق حاجبه الأيسر يسير إلى جوار شابة في خطوات سريعة.

- من هؤلاء؟

ودون أن أنطق بحرف واحد نهضت ، ورميت بنفسي إلى الخارج:

- سربيل!

كانت هي! تلاقت نظراتنا لمجرد ثانية ، كانت كفيلة بأن يضيع كل منا في الآخر. على شفيتها قرأت حروف اسمي: «جي - فان! ولكن الرجل أمسك بها من ساعدها وسحبها إلى السيارة. قفزت على الفور نحو سيارة المرسيدس الزرقاء موديل الثمانينات ، كنت ألتف بين السيارات كلاعبي التزلج في التفافهم بين الحواجز ، وحين بلوغي الساحة الفارغة ، وجدت نفسي في مواجهة المرسيدس ، وبدخلها سربيل سيلاجلي بيدي. قفزت كما في مارثون الحواجز بقفزات طويلة نحو المرسيدس التي تنقهقر خلفاً ، فيما أخرج السائق الحليق مسدسه من نافذة السيارة وبدأ الإطلاق. كشطت الرصاصة ساعدي الأيمن ، على وقع كلمات (أنا بعشق البحر) التي تتردد في ذهني. كانت الدموع الصمغية القوام ، المسفوحة من عيني تلتصق بخدي ، فيما أحاول يائساً للحاق بالمرسيدس التي التفت حول المنصف ومن ثم اختفت عن الأنظار. كان قلبي على وشك الانفجار. ترنحت والتوتُ قدمي فهويت على الرصيف. حبيبتي التي واصلتُ حدادي عليها لسبع سنوات.. كانت حية ترزق.

تشيكويتا نيكيوتا40

«بلوغ سنّ الشباب ، يتطلب وقتاً طويلاً».

(بابلو بيكاسو)

فتحت عيني في بورتش فوجير فوجي ، مستغرباً كفأر استخدم في تجربة فاشلة .
كنا نتجه غرباً على طول ساحل بيشيكتاش ، وأنا أشعر بنفسي محاصراً في إطار غليظ ضيق
الحدود . قبيصي الأبيض كان مبللاً بالدماء ، فيما شفتا فوجير المتقدتان تضمان سيجارة
رفيعة .

- هل أنت بخير ؟ - تقول عاقدة الحاجبين وهي تراقب الأرجاء بحذر .

أجيبها بصوت واهن :

- أعتقد ذلك .. إلى أين نحن ذاهبان ؟

- لا أعلم .. - تنظر خلفاً من مرآة السيارة الجانبية - سيجارة ؟

- لدي علبة - أقولها وأنا أتفقد جيوبي .

- العلبة في درج السيارة ، لقد تركت علبتك على الطاولة . - قالت .

ترتعث يداي وأنا أفتح الدرج ، لتقع عيناي على مسدس (غلوك 23 سي) إلى جوار
علبة الجمل .

- ما هذا ؟

- من كانت تلك الفتاة ؟ - لا استثناء ، يبدو أنّ كل النساء يرغبن في الاستثناء .
وإن استمرت الأمور على ما هي عليه ، ستلزمي فوجير بضرائب عاطفية .

تناولتُ المسدس بعد أن أشعلتُ سيجارة بيدي اليسرى :

- لم أكن أعلم أنك تقتنين سلاحاً .

- لماذا أطلق عليك الرجل النار ؟

كانت الرصاصة أثناء مرورها قد مزقت عضلة ساعدي.

- أمن الطبيعي أن تنزف هكذا؟

أبطأت من سرعة البورتش:

- هل يتوجب عليك قتل الفتاة؟

تجاوزتنا المرسيدس الزرقاء كوشاح أزرق وانعطفت بعد بضع مئات من الأمتار

يميناً.

- أتتعبينهم؟

- أريد أن أعرف على وجه التحديد ما علينا فعله. هلا أخبرتي من هؤلاء الناس؟

- هل كانوا خلفنا؟ من الذي يتعقب الآخر؟

- تخطيهم بهدف المراقبة يقلل من الشكوك. والآن أخبرني: من هذان اللذان في

السيارة؟

- الفتاة اسمها سربيل سيلاجلي بييري ، توفيت في الزلزال الذي وقع قبل سبع

سنوات.

- ولكنها تبدو كثيرة الحركة مقارنة بجثة.

- كنا مخطوبين. كانت في السنة الأخيرة لقسم العمارة في جامعة إسطنبول

التقنية. وقد قمت بنبش جثتها من بين الأنقاض بيدي.

- إذاً فقد أقمت الحداد على جثة أخرى.. - قادها تفكيرها السريع نحو نهاية

القصة.

- ولسنوات طويلة..

- ما باليد حيلة ، فسوق العرض العاطفي يختلف عن سوق الطلب - توقفت المرسيدس الزرقاء أمام إحدى الفلل على اليمين. تراجلت سربيل والرجل من السيارة ، واجتازا باب الحديقة ، ليختفيا بين الأشجار. فيما توجهنا نحو نهاية الشارع. التفتت نحو فوجير وأخذت تحدثني رويداً رويداً وكأنني طفل أو سائح أجنبي ، أو كلاهما معاً:

- جيفان ، سأدخل ذلك المكان وأقتل المأفون الذي أطلق عليك النار ، وبوسعك أن ترافقني. وإن كان الأمر يعينك في شيء ، فسأبقي الفتاة على قيد الحياة ، بل سأعيدها إليك إن كنت راعباً في ذلك.. هل تعي ما أقول ؟

- على رسلك ، اهديني. فأنا لا أعرف الرجل..

- احمل المسدس وتعال معي - وأخرجت من حقيبتها مسدس (سميث أند ويسون - 500 ماغنوم). تراجلنا من السيارة ، وبصقت السيجارة. فيما نيكيينا فوجير توجه فوهة المسدس نحو الأسفل. اختلطت الأمور في ذهني ، وفقدت السيطرة على الأحداث وعلى أفكارني ومشاعري أيضاً وأنا أتبعها. ضغطت على الجرس.

سألته هامساً:

- في الأوقات التي لا تنقذين فيها حياة أحدهم ، هل تقومين بحصد الأرواح ؟

- استخدم الرصاصة بدل الوصفة الطبية وكبسولة الدواء..

- ما يعني ؟

- ما يعني أنّ الطبيب يمكن أن يقسو ، فيما القاتل قد يضيي الرحمة على عمله

أحياناً..

فتح الباب ، وحين اجتزنا الدرج القصير المؤدي إلى الحديقة ، ظهرت امرأة محجبة

- تفضلوا ، من تريدون ؟

وحين رفعت فوجير المسدس في وجهها ، جحظت عيناها من الدهشة. رفعت
(Femme fatale - المرأة القاتلة) سبابتها إلى شفيتها هامة:

- ههششش! - رفعت المرأة يديها في الهواء ، وقد أخرسها الهلع ، فيما كنت
أحاول فهم سبب تحول الدكتور فوجير الشقراء إلى ملاك انتقام. وفك أَلغاز هذه الوشوم
الغامضة التي ترسمها الطلقات النارية. من ذاك الرجل الذي أطلق علي النار؟ ولما تحاول
سربيل الهرب؟

تعقبت فوجير إلى الممر ، وفي الردهة الواسعة يساراً ، كانت سربيل وامرأة
خمسينية والرجل الذي أطلق النار عليّ يشربون القهوة.

دوووووف!

أطلقت فوجير النار على المزهريّة التي تنتصب في الزاوية ، فتناثرت شظايا
البورسلان الأزرق في الأرجاء.

ورغم أنّ المأفون حاول امتشاق سلاحه ، لكنه وقف عاجزاً وهو يرى فوهتين
مصوبتين نحوه. وقد بدا الوشم على وجهه وكأنه حاجب امرأة اقتطع من وجهها.

- هل من أحد في الداخل؟ - سألته فوجير بحدة.

فرد الكهل:

- لا أحد. سيدتي أظن أنّ هناك سوء تفاهم. أرجو أن تهدأي.

فيما سربيل تحدد فينا بنظرة عصية على الفهم.

- ما الذي يحصل هنا سربيل ؟

استغرب الرجل: - سربيل ؟ - وبدأ يحرك شاربيه وكأنه يحاول التخلص من حكة - أنا رجل شرطة ، وهذه السيدة تخضع للحماية الأمنية. أنزلوا أسلحتكم ولتحدث.

- سننقذك يا سربيل.

- اسمي جافيدان. لا بدّ وأنت تخلط بيني وبين آخر..

نظرت فوجير نحوي وكأنها تسالني: «هل أنت متأكد؟».

فأومأت برأسي مؤكداً.

- جافيدان أم سربيل ، لا فرق ، ستأتين معنا. - أمرتها.

فتدخلت المرأة:

- توقفوا ، لن أسمح لكم بأخذ ابنتي.

لكن فوجير كانت تثير الإعجاب:

- سنفعل ما نريده.

فاقتربت منا سربيل رغماً عنها. والتفت من فوق كتفها:

- لا تقلقوا ، سأعود.

كنت أشعر بنفسي في منتهى القوة ، وأنا أرعد في الغوريلا الذي يدّعي بأنه شرطي:

- ضع مسدسك بهدوء على الطاولة.

فأطاعني.

أخذت فوجير المسدس ، وأطلقت النار على ساعد الوغد الأيسر. دووووف! في هدف تعادل مع الإصابة التي في ساعدي.

لذنا بالفرار ، فيما المرأة التي فتحت الباب بقيت رابضة في مكانها دون حراك ، وظلت عيناها على اتساعهما.

أمسكت بيد سربيل ، فشبكت أصابعها بأصابعي ، كما كانت تفعل سابقاً. فيما الدماء المنسابة من ساعدي تملأ راحتينا.

هرولت فوجير مسرعة لتشغل السيارة ، ولحقنا بها. وقد تلاصقنا أنا وسربيل في مقعد البورتش التي انطلقت بنا. في مرآة السيارة الجانبية كانت صورة الشرطي والمراثين الذين يراقبوننا تتقلص بسرعة فائقة.

الاستشاشة فضولاً أثناء الطيران فرحاً

«الثنائي ، مكون من ثلاث أشخاص».

(آدم فيليبس)

الصدق لا يطوّق الحقيقة.

كنت جالساً بين فوجير فوجي - المرأة التي تملك جمالاً يكفي لإفقاد أي رجل في الكون عقله ، وبين سربيل سيلاحي بيدي ؛ المرأة الوحيدة التي تمنيت قضاء عمري معها. وأفكر.. لست متناسق القسمات ، وعينايتا متغايرتا اللون ، وكأنني مزج بين اثنين مختلفين ، أنا فرانكشتاين منذ الولادة. كتوأم سيامي ، أو تجميع قطع من مختلف الرجال الذين أحببتهم سربيل وفوجير..

دخلنا طريق جسر بوازيجي. وكانت سربيل أكثر بياضاً من كل الثلوج التي هطلت حتى اليوم ، لا تتفوه بكلمة واحدة. وأظن أنّ كلاً منا نحن الثلاث كان ينتظر الاستماع إلى حكاية الآخر.

فما كان يشغل ذهني حقاً هو لها تحمل فوجير سلاحاً ، وأين كانت سربيل طوال هذه السنوات ؟

أما ما يثير فضول فوجير فهو من تكون هذه السربيل سيلاحي بيدي ، ولما أطلق علي صاحب الوشم النار ؟

وأسئلة سربيل: كيف ظهرت فجأة ؟ وما الذي يربطني بفوجير ؟

كنا ثلاثة قمامة مغلقة يا حكام نتقدم بأقصى سرعة. بدأ مقبض الغلوك المنغرز في خاصرتي يؤلمني ، وقد أحطت ذراعي بخصر سربيل القابعة في حضني. فيما بركان من الأدرينالين قد انفجر في أحشائي ، وكنت على وشك التحول إلى مجرد غبار حبوراً.

- طوال هذه السنوات.. كنت أظنك ميتة سربيل..

- وأنا ظننتك ميتاً.. - ما هذا؟ إنها تبكي.

- أوضحوا بسرعة.. يجب عليّ معرفة ما يجري..

- من أين تعلمت استخدام السلاح فوجير؟

- أنتما من سيتحدث أولاً. أنا لدي أسبابي المنطقية. لا تقلق.

التفتت سربيل نحوي ، وأخذت تجول بأناملها وهي تلمم خدي برفق. فيما الحلقة المعدنية الهائلة في بنصرها لا تغيب عن ناظري. وأجفانها الأشبه بمرواح مينياتورية ترتعش ، مع دموعها المنهمة على وجهي. وشفتها دافئتان:

- جيفان..

- سربيل.. - وبدأت أقبلها بدوري.

وضعت فوجير يدها على فمها وكأنها كانت تحاول حبس تقيؤها:

- هيي! يا شباب! لن تبدأوا حفلتكم الغرامية هنا بالذات ، أليس كذلك؟ - وأشعلت الراديو الذي يبث أغنية (خمرة الصيف). ابتعدنا أنا وسربيل قليلاً وبدأنا نمعن النظر في بعضنا. فقد كانت هذه أغنيتنا. كانت تبتسم من خلال الدموع ، فتعانقنا بقوة ، فيما البورتش تتجه بنا من بيلا ريبه ، جينكيل كوي ، كوليلي حتى رابية كانديلي ، لنصل إلى قصر فوجير فوجي. ثلاثتنا مضطربون ، ويحدونا الأمل ، وثلاثتنا نكاد نستشيط فضولاً. أو أنّ هذا ما كان يُخيل إليّ.

العاشقان اللذان ظنّ

كل منها الآخر ميتاً

«الحب ، هو قدرنا الحقيقي ، فلا يمكننا

إدراك مغزى الحياة دونه».

(توماس ميرتون ، 1968-1915)

الاعتدال مميت ، الاكتفاء ابتذال ، أما المجازفة لذة ، وقد مالت حظوظنا نحو

المجازفة..

الغموض داء ، والوضوح جرح ، الاحتمالات عطب ، أما اليقين ففرغرينا.

«حجز بطاقة تيتانك - ليس الفيلم بل السفينة - والذهاب لجزر الواقواق» ، لو لم

يسبقنا أحد إلى هذه المقولة لقمنا بإيجادها..

قامت فوجير بتضميد جرحي الذي عمقته بمطهر (باتيكون)، وقد بدلتُ ثيابي

بكنزة وبيجامة نظيفتين.

أما سربيل فقط أزالته المكياج الذي أفسدته الدموع ، ليُظهر وجهها حقيقة جمالها

المتفرد.

أخلّ وجودنا بأناقة الصالون ذي السقف العالي ، والمؤثث بطريقة بالغة الرهافة.

فقط اجتمعت علب السجائر على الطاولة المربعة الضخمة ، إلى جانب علب الماء

المعدنية ، الأسبريسو ، وجعة كارلسبيرغ إلفانت.

تناولت رشفة من الإسبريسو وأشعلت سيجارة.

- حسناً سربيل لما اختفيت؟ والقبر الذي يحمل اسمك من يرقد فيه؟ وأين كنت طوال هذه السنوات السبع؟ ومن الرجل الذي كان معك؟

تنهدت بعمق.

- سأخبرك بكل شيء.. أتذكر يوم تعارفنا حين وقوع الاشتباك المسلح أمام بار (راباربا)؟ حيث ساعدتني على الاختباء ومن ثم أصابتك رصاصة؟

- بالطبع أذكر.

- في الحقيقة ، كانوا يحاولون قتلي في ذلك اليوم.

- ماذا؟ من؟ ولما؟

- في هيئة التدريس التابعة لكليتنا كانت هناك بروفيسورة اسمها جاليدار جنغار ، خبيرة في الثقافة العمرانية. وقد حصلت المشاريع التي تقوم بتنفيذها على العديد من الجوائز المحلية والدولية. وكان أحد جدران مكتبها مليئاً بالجوائز والتصاميم والتمائيل. وكانت تدرسنا مادة التصميم العمراني. في إحدى الأمسيات توجهت إلى مكتبها وأنا أحمل بين يدي محاضرات المادة ، فوجدتها راقدة على الأرض وسط بركة دمائها. وقد انتصب فوق رأسها تيمور بن طاهر تومور ، وهو يحمل هيكل إحدى الجوائز والدماء تقطر منه ، تمكنت من الهرب قبل أن يراني ، لكنني أسقطت صفحة من محاضراتي في المكان. في اليوم التالي لم تظهر جاليدار جنغار ولكن تيمور تومور كان جالساً في المدرج. بعد عدة أيام تمّ العثور على جثتها في أجمة حديقة أميرجان. لم أطلع أحداً على الأمر ، لكنني كنت في حال يرثى لها ، تلازمي الكوايس وقد فقدت شهيتي ، وطوال الوقت كان الهلع ينتابني. الكل كان مطلعاً على صيت عائلته السيء ، فقد كان والده أحد زعماء المافيا. لم يتمّ العثور على قاتل جاليدار ، وبدوري قمت بتغيير خطي في الكتابة ، وهكذا مرّ شهران قبل أن يحدث أمر غير

متوقع ؛ فقد تمّ العثور على جثة زميلة لنا تدعى بيرفين بيرفانة ، لم تكن تواظب على الدوام كثيراً ، في حوض حديقة جامعة (تاشكشلا). حينها تذكرت أنّ الفتاة استعارت مني بعض المحاضرات ، لذا أخبرت والدي بكل ما حدث ، فتوجهنا معاً إلى الشرطة. وتمّ القبض على تيمور ، ولكن دون وجود أي دليل مادي يدينه. ومع تشريح الجثتين وتثبيت وقت وقوع الجريمة. استطاع الوغد أن يثبت بأنه وأثناء الجريمة الأولى كان في حفل عيد ميلاد أحد أصدقائه ، وخلفه اصطف جيش من شهود الزور. أما خلال حدوث الجريمة الثانية فقد ادّعى بأنه كان في نادي أوتيل ليتو. وهكذا أدركت عائلة تيمور - التي ظنت بأنها ومع قتل بيرفين سننتهي من القضية ، أنّ الهدف الحقيقي لا يزال على قيد الحياة. حينها تعقدت الأمور أكثر ، ذلك أنّ والدي صدم تيمور تومور بسيارته ولاذ بالفرار ، وقد أسفر الحادث عن إصابة تيمور بشلل تام في نصفه الأيسر وتضرر دماغه ، بحيث عجز عن المشي والكلام والقدرة على تناول الطعام. وقد أعلن طاهر تومور على التلفاز بأنه سينتقم ممن اعتدى على ابنه الوحيد ، ومن ثم توالى قتل فتيات أخريات من زميلاتنا. وبتدخل من الشرطة تمّ توزيع كافة الفتيات في سنتنا الدراسية على جامعات أخرى ، وبذلك انتقلت إلى جامعة يلدز التقنية. لم أعتد على الجامعة الجديدة ، فقد كنت الشاهد الخفي على سلسلة الجرائم ، الأمر الذي أثقل عليّ كثيراً. وفي اليوم الذي تعارفنا فيه كان رجال طاهر تومور ينتظرونني في بار (راباربا). لا أعلم على وجه التحديد إن كانوا قد نجحوا في العثور عليّ ، أم أنني كنت مجرد اسم آخر على اللائحة السوداء. وكان من أطلق النار على طاهر تومور هم أفراد الشرطة المدنية. عقب هذه الحادثة بدا وكأنّ الأمور هدأت لفترة ، وكما تعلم فقد كنا سوية ، واستطعت العودة إلى جامعة إسطنبول التقنية ، والتي تخرجت منها. وبدأت أعتقد بأنني نجوت. في هذه الأثناء كان تيمور قد سافر إلى أمريكا وخضع لسلسلة من العمليات الجراحية ، واستعاد عافيته ، وأعلن عائداً بأنه سيثأر لوالده. وخلال فترة خطبتنا ، جاء تيمور وبعض من رجاله إلى مكان عملي ، وحين لم يعثروا عليّ ، غادروا. شاهدت تسجيل كاميرات المراقبة ، وحين رأيت وجه تيمور ، ارتعدت فرائصي. فقامت الشرطة بضمي إلى برنامج حماية الشهود. وكما تذكر فقد ذهبت حينها إلى غولجوك إلى منزل جدتي ، ووقع الزلزال الذي دمر المنزل ذي الطابقين ،

وقد قذف بي مع سريري إلى حديقة المنزل. تحدثت مع والدي ، فاقترحت الشرطة بأنّ فوضى الزلزال هي فرصة مناسبة ، حيث سيظهرونني من ضمن الضحايا ، ويمنحونني هوية جديدة. لم أصارحك بشيء ، لأنني أردت إبعادك عن هذه المعمة. فإن كنا متزوجين ، كان سيتوجب علينا حينها أن نختبئ معاً. لكنني حاولت التواصل معك بعد ذلك ، فاتصلت بأخيك وأخبرته بأنني “صديقة” ، لكنه قال لي بأنك انتحرت. وبقيت في حداد استمر سنوات طويلة ، ينهشني فيها الخوف وتأنيب الضمير. أما باقي القصة فقد اطلعت عليها ، فأنا استخدم اسم جافيدان ، وأعيش مع خالي وزوجته في جزيرة (بيوك أدا). وقد جئت لزيارة عائلتي. والرجل الذي أطلق النار عليك من الشرطة السرية ، ومهمته مرافقتي أثناء تنقلاتي.

- جافيدان ؟ - كانت الأحداث خليطاً من نظرية الفوضى وتأثير الدومينو.

- لم أتزوج قط ، وهذا الخاتم هو خاتم خطوبتنا.

تجرعت فوجير رشفة من البيرة:

- يا لها من رومانسية! حسناً لنر إن كنت قد فهمت القصة كما يجب: لقد قمت

باستخراج جثتها من بين الأنقاض ، وشاركت في دفنها ، أليس كذلك ؟

- تماماً..

- ألم تتمكن من التعرف عليها ؟

- كان رأسها قد تحطم ، وبترت إحدى ساقيها.

التفت نحو سربيل:

- وأنت كنت تظنينه قد انتحر ؟

- صحيح.

- العاشقان اللذان ظنّ كل منهما الآخر ميتاً.. أخطاء بهذه الجسامة لا يتقنها سوى تحالف قوي برعاية الزمن. برأيي عليكم بيع حقوق تحويل هذه الحكاية إلى فيلم إلى (وانر بروس) وليقم كل من براد بيت وإنجيلينا جولي بتمثيل دوريكما..

- كَفّي عن السخري.. - قلت.

- وماذا عنك؟ - سألت سربيل.

- حسناً، سؤال أخير.. حين قمنا بدفنك في مقبرة زينجيرلي كوي، أخبرتني إحدى صديقاتك أنك كنت حبلى..

- أجل..

- إذأ؟

- لدينا ابنة ستذهب هذا العام إلى المدرسة.

انحبس الهواء فجأة، فلم أكن أملك القوة لتحمل كل هذه المفاجآت. وأخذت الكلمات تخرج متلعثمة مجزأة من فمي:

- ابنتنا؟ أتعنين أن لدي ابنة؟ أين هي؟ وما اسمها؟

- صحارى..

تدخلت فوجير:

- أهذا اسمها، أم المكان الذين تقيم فيه؟

- اسمها صحارى..

بلعت ريقى، وكان قلبي ككرة طاولة تتقاذف في كل الأرجاء. وبدأت أحسّ بنبضي

حتى في لساني ، وأنا أردد هامساً: «صحارى.. صحارى.. صحارى..» وبدا وكأنّ صمغاً يابانياً قد انساب إلى عيني.

سألني سربيل: - وأنت؟.. ما الذي فعلته؟

مذهولاً من فكرة أنّ سربيل كانت حية طوال هذه السنوات السبع ، مع ابنتي التي تكبر خلالها ، انسابت الكلمات من فمي: - قمت في الأسبوع المنصرم بمحاولة بعثك من القبر في مقبرة زينجيرلي كوي. لا بدّ وأنك تابعت الخبر ، لقد وثب كل الموتى من قبورهم..

هتفت الاثنتان بفم واحد: - ماذا؟..

علقت فوجير مهتاجة: - لقد انهارت كافة شواهد القبور كأحجار الدومينو ، وقامت الشرطة بإطلاق النار على كافة الموتى..

- لقد أمضيت سبع سنين في الشوارع ، في الخرائب ، رفاقي كانوا من يطلب الدفء حول علب الصفيح المتقدة. وفي آخر أربع سنوات كنت أقضي كل ليلة في مباريات قتال الشوارع ، حتى تمّ طعني قبل شهرين ، فاضطرت إلى الانخراط في الحياة العادية مجدداً. هل تذكرين أخي أوكان؟

- أجل؟

- لقد سقطت طائرة عليه في عنتاب. وقد علمت بالأمر حديثاً ، وابنه مصاب بسرطان الدم ، يحتاج إلى عملية تكلف مائتين وخمسين ألف ليرة. استطعت تأمين النقود ، ولكن..

- لكن ماذا؟

- لاااا.. لا شيء..

- ألا تحب إحداهن؟

- الغيتو الذي كنت أعيش فيه ، كانت صحة كل رجل تلغي رجلين آخرين..

- أنتما.. - قالت وهي تنظر إلى فوجير..

- لا شيء بيننا - أوضحت فوجير - لقد ظهرت في المكان المناسب بتوقيت سويسري - تريثت قليلاً قبل أن تردف بهدوء - أنا جراحة أعصاب.

فلم أتمالك نفسي أكثر: - وما شأنك بالمسدسات ؟

- وهل انتهت قصتك جيفان ؟ - ردّت عليّ تسأل بلهجة ملغزة ، وأردفت بعد برهة صمت قصيرة - ألن تحدثنا عن روحي مجرد ؟

- وما علاقتك بروحي مجرد ؟.. بالطبع! فأنت أيضاً من عصابة معصوم جيغي ، كان عليّ تخمين ذلك. وحين قمتِ بإصالي ذلك اليوم كنت مطلعة على كل شيء.

- حتى لو أدرتُ ذلك ، لا أستطيع أن أكون مثلكم على سجيتي..

سألني سربيل بشرود وإعياء باديين: - روحي مجرد؟.. أليس محارب الاستقلال العجوز؟

- بذاته.. - ردّت عليها فوجير.

عادت سربيل لتوجه إليّ السؤال: - ما الذي حدث له ؟

فتلقت الردّ من فوجير مرة أخرى: - هناك مافون يدعى معصوم جيغي ، يتزأس شركة باسم (باكت) يقوم بإدخال رقاقات إلى أدمغة البشر ، تدفعهم إلى النطق بعبارات دعائية.

- إيه ؟..

- جيفان أيضاً يحمل في رأسه رقاقة دعائية. كما أنه ساعد موظفي (باكت) من

أجل دسّ هذه الرقاقة في رأس روجي مجرد. ومقابل ذلك حصل على نصف مليون دولار أو ربما مليون.

- أضحى هذا الكلام يا جيفان؟

- كما أخبرتك ، فابن أخي بحاجة للعملية..

- ثم؟..

- ثم ستعود الأمور إلى سابق عهدها بعد التاسع عشر من أيار.. - بدا صوتي كبطبطة بطة تزعق في أجمة كثيفة..

- هذا ما تظنه أنت.. - علقت فوجير - برأيي لا تهّم يا حصاء الصيوان قبل أن يفسس عنها البيض.

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة: «خداع الذات في محاولة يائسة للنجاة من الخطر».. لقمتم بإيجادها..

اسم جديد على اللائحة السوداء

حياتي سلسلة احتمالات من الفرضيات المبنية على محض تكهنات ، وكأنني أهيمن في حقل من الماريجوانا الملقومة.

ارتدت فوجير باروكة سوداء ، وبدا جمالها متكاملأ كالفضائيين الذين نراهم في سفن الفضاء ، في أفلام الخيال العلمي. أما سربيل فقط غطت رأسها بوشاح قطني. كنا مجموعة من المنتحلين نلاحق آثام البشر.

- هل يمكن للمسدس أن يظل معي ؟ - سألت.

- لقد أحضرته من أجلك. - ردّت فوجير.

- تيمور تومور.. يا له من اسم غريب..

- سيشعرك بالسكينة فقط لو قرأته على شاهدة قبر.

خلف المقود ، كانت فوجير تتقدم بالصوبارو في شارع بغداد. وقد أحالت الأضواء الكهربائية ليل المدينة إلى نسخة مزيفة عن السماء. فيما سربيل في المقعد الخلفي تحضر الخطه ، كان بوسعي سماع مسننات التفكير وهي تعمل داخل دماغها. كانت ستلتقي في الفيلا التي في بيشيكتاش ، بالعميل حبيب حوبو. وكان العملاء باستثناء العمليات الخاصة ، لا يحضرون اللقاءات في مواعيدها المحددة أبدا ، فهم إما يتأخرون أو يصلون مبكرين ، وأظنّ السبب يعود إلى تغلغل الريبة من الملاحقات والاعتيالات والاشتباكات المسلحة إلى أعماقهم.

صحارى ، ابنتنا كانت عند والديّ سربيل في (كيزيل توبراك) ، المنطقة التي كنت

أقيم فيها مع كاموران ، قبيل انتقالي للتشرد.

وفي إحدى مفارقات القدر الجنونية ، كنت أنا وسربيل نرقد في قبرين .

- هل قمت بزيارة قبري ؟

كان الوشاح الأزرق المحيط بوجهها الثلجيّ البياض ، وبعينيها الغائمتين ، يزيدها

جمالاً:

- باستمرار ، كنت أصطحب معي صحارى ، وندعو لروحك أن ترقد بسلام.

هل ستتمكن من إخبار عائلتها بكل ما حصل ، وما الذي ستفعله صحارى حين

تراني ؟

- هل تلاحقنا الشرطة ؟ - سألتُ.

- لا أعلم .. - أجابت سربيل.

- فعلقت فوجير في ثقة: - سأهتم بالأمر.

- لقد أطلقت النار على شرطي ، وتظنين أنك ستنجين ، أليس كذلك ؟

كان سحرها المغوي ، يضيء كمالاً على كل ما حولها ، وكأنها خرجت للتو من

تقويم بيريلي ، إلى تقويمنا نحن البشر العاديين .

تبدو حياتي برمته ، مجرد رغوة صابون تغسل دماغي وتحرق عيني ليس إلا ، ولا

يبدو أنني سأتمكن من بلوغ ضفاف مصيري . فما أشعر به وأفكر فيه ، لا علاقة له على

الإطلاق بما أعيشه . لقد بقيت خارج ما يسمى بلعبة الحياة . ولا يسعني سوى الاكتفاء

بخلاصة السنوات التي لم أتمكن من عيشها . وفي الوقت الذي ظننت فيه أنّ ما من شيء

يستحق أن أحيأ من أجله ، باتت هذه الأشياء من الكثرة الآن ، بحيث أخذت تحاصرني . لقد

حوصرت في بوتقة خلّاط من الدماء والدموع.

- هنا؟ - سألت فوجير.

- أجل. - ردت سربيل.

أبطأت فوجير من سرعة السيارة - أي طابق؟

سربيل: - الرابع ، الشقة رقم ثلاثة عشر.

- من المرجح أنّ الشرطة تحيط بالمكان ، كما أنها الآن داخل البيت أيضاً. -

علّقت فوجير - وليس لدينا سوى خيارين. الأول هو أن أدخل وأحضر الطفلة ، ونحظى بفرصة النجاة. أما الثاني: أن تعود جافيدان إلى بيتها ، وتنتظر أن تهدأ الأوضاع.

- حسناً ، وما الذي سأقوله لهم؟

- ستقولين بأنك لا تعرفين أي مَنّا. وبما أنّ رجال الشرطة عملاءها مرتابون ،

سيجدون أحداً لاتهامه ، وحاولي أن توجهي شكوكهم نحو رجال تيمور تومور. ما اسم العميل الذي ستلتقين به؟

- حبيب حوبو.

- ها! سيظنون بأننا كنا نلاحقه ، وعندما تصفين لهم شكل جيفان ، لا تخبريهم

عن عينيه المتغايرتي اللون - وأضافت في ابتسامة لذيذة - وإن لم يعرفوا الشبه بيني وبين كلاوديا شيفر سيكون ذلك جيداً.. لا تذهبي إلى البيت فوراً ، اشربي فنجاناً من القهوة في تلك الكافيتريا ، وأخبريهم أنك عدت من (كادي كوي) إلى هنا بسيارة أجرة.

احتضنت سربيل بقوة ، ورغم ذلك شعرت بثقل الزمن يتسلسل بيننا.

- هل ستعودين إلى (بيوك أدا)؟

- سأمكنث عدة أيام هنا.

سألتُ فوجير عن رقم هاتفني ، فتلته غيباً ، لأدونه على قصاصة وأعطيه لسربيل.

- إن اتصلت من هاتف عام ، ربما سيكون ذلك أفضل.

- حسناً.

- أتحرق شوقاً للتعرف إلى صحارى.

- ما الذي سنفعله جيفان ؟

- كما تشائين ، أهنالك شخص آخر في حياتك ؟

- أجل..

تتجسد أمامي ناظري سحنة راعٍ ماعزيّ الوجه ، وأنا ألكمه على صدره حتى تحطيم أضلعه ، حتى سحقه بين يدي.

- شخص آخر يتوجب عليّ قتله.

- لم أكن أعلم أنك لا تزال على قيد الحياة.. كنت وحيدة..

- هذا ما كنت أريد إخبارك به أنا أيضاً..

ولأنّ الكيل الذي تكيل به ، به تُكال!!!.. لم أعقب:

- حسناً.. اتركيه ولنغادر سووية إلى إيطاليا ، ونتسكع في نابولي ما بقي لنا من

عمر. ما رأيك ؟

- اتفقنا..- كان من المحال التغافل عن التردد والخجل الذي وسم صوتها.

قبلتها ، قبلة تقشف لا تُفسد حمية زاهد.

- لا أريد أن أفقدك مرة أخرى.

- وأنا أيضاً.

ترجلت من السيارة ، وأومأت بيدها مودعة.

- في أمان الله..

- مع السلامة سربيل.

وفيما هي تسير كنت أراقب خطواتها ، لم تتغير سربيل سيلاحي بيدي علي الإطلاق. لقد كان الجمال كختم إلهي ، دليلاً إعجازياً وسمها إلى الأبد.

ومن السيارة كانت أغنية (يوم الفراق) لنيشة كرابوجيك تعلو وتهدر كسيل جارف..

دخلنا أنا وفوجير فوجي إلى مكان مليء بالكمبيوترات.

- ما هذا المكان ؟

- مقهى للإنترنت..

يبدو أنّ الجيل الناشئ قد استحوذت عليه سباقات السيارات والحروب.

جلست فوجير قبالة جهاز كمبيوتر ، ودونت اسم تيمور تومور في غوغل ، لتطالعنا عشرات الصور للرجل.

قامت بفتح أحداها وطبعتها ، وأعطتني الصورة:

- إن صدف والتقيت به في مكان ما ، لن تهدر وقتك في محاولة التعرف عليه.

طويت الصورة ووضعتها في جيبى. لو لم يسبقني أحدهم إلى مقولة «رمي المنشار الكهربائي في الهواء والتقاطه» لقيمت بإيجادها.

- وماذا عنك ، أَلن تصارحيني من تكونين؟

- لست سوى شخص يريد مراقبة من يمرّون داخل فرّامة معصوم جيّجى.

صمت السكين المثلومة في قعر البئر

كنا عائدئين ، أنا وروحي مجرد ، من التبضع. وقد علا صخب آلات الحفر في الشارع.

- وكأنهم يقومون بحلاقة عانة جمل.. - احتج روحي مجرد ، لتهدأ فجأة ضوضاء ورشة العمل ، ويرين صمت سكين مثلومة وقعت في قعر بئر.

- لا تتحدث كثيراً عن ذكرياتك في الجيش..

- ما هو هام فيها ، دونته كتب التاريخ.. - وأضاف - الذكريات لا تتقاطع مع ما عشناه بالفعل ، والمرويات لا تتقاطع مع الذكريات..

كانت فيغان نيغاتيف تقوم بالتحرك بخفة وهي تفرغ أكياس (بيم) من محتوياتها على طاولة المطبخ وترتبها في الرفوف والبراد. بسكويت الأطفال ، سمك الحدوق المثلج النرويحي ، كعكة الزبيب.. كلها من أجل العجوز ، ذلك أنه كان يعاني إن حاول طحن شيء قاسي بطقم أسنانه.

يمسك بيده أسطوانة وهو ينتصب فوق رأسي كعادته في مراقبتي:

- أتردد على (بيم) كثيراً. عليم أن يمنحوني رتبة بيم باشي.41- وأردفها بقهقهة صاحبة.

- أنت من أقدم الشخصيات في تركيا..

فزززززززززز.. فزززززززز

بدأت ذبابة سوداء كبيرة تحوم حول روجي مجرد ، فأخذ يلوح بالأسطوانة في

الهواء:

- هذه الذبابة تريد أن.... نا..

تتسع عينا فيغان نيغاتيف إعجاباً ، وتثني شفتها في تقدير. ربما يمكن لهذه
المسكينة أن تعتبر من الجميلات في كوكب آخر ، ولكن ليس هنا..

أقوم بتغيير الموضوع: - ما الذي تودّ سماعه ؟

فيما تتقافز الذبابة على السقف ، ننتقل أنا وروحي مجرد إلى الردهة.

- كونشيرتو البيانو الثالث لسيرجي بروكوفيف ، حيث القسم الثالث (قليل من
البهجة - allegro ma non troppo) يشكل تحدياً للكمال لدى عازفي
البيانو.

تنطحتُ بسؤال تفه ، لا يدل سوى على جهالتي المطبقة:

- هذه الموسيقى.. ما الذي توحيه لك..

- إنها تؤكد لي أنّ الحياة التي بقيتُ على هامشها دوماً ، ما هي إلا نسيج من روعة
المفاجآت.

- أتودّ الذهاب إلى حقل الرماية ؟

- وأي شيء سنفعله هناك ؟

- سنطلق النار على مجسمات من الورق على شكل رجال..

- أولاً دعنا نأكل الحلوى التي على شكل رجال. حتى لا تخيّب بطوننا الخاوية
أهدافنا.

كانت الذبابة من الضخامة بحيث أنها حين غادرت المطبخ أطفأت الضوء ،
وأغلقت الباب خلفها.

هجر الدنيا ، والتعلق بالحياة

«فلتومض الفلاشات ، لأننا نجوم فتية».

(آخر كلمات النائب الأمريكي

جيمس ماكلين الذي قتلته الشرطة ، 1970)

بعد العملية التي أجريت لروحي مجرد ، بات وافر النشاط بشكل ملحوظ ، فقد كانت فيغان نيغاتيف تعطيه الجينسينغ مرتين في اليوم ، من سلسلة (الكنز - Treasure) التي يتناولها أصحاب المليارات ، الديكتاتوريون ، نجوم هوليوود وأبطال الرياضة.

في حقل الرماية كان العجوز ، لا يضيّع إصابة سدى.

ولم أكن بالغ السوء بدوري.

بعد الرماية عدنا إلى منزل صديقي العجوز ، وقد استبدّ بنا الجوع. فطلبنا البيتزا ، والتهمناها جالسين على الشرفة ، وقد علق روعي مجرد:

- الشيء الذي لن يقتلك ، يصيبك بالبدانة..

مع حلول المساء هطل وابل من المطر ، فهربنا نحو الداخل. وقد علق ورقة الأهداف التي أخذناها من حقل الرماية إلى جوار البندقية القديمة.

كنت أفكر في فوجير فوجي ، سربيل سيلاحي بييري ، تيمور تومور ، نازلي هلال وأوزان ، وشعرت وكأنّ الذكاء يخونني. وأخشى أن أسأل روعي مجرد شيئاً حول معصوم جيحي. لم يكن أي من مشاعري يسير في سوية معتادة ، فكل شيء ينوء تحت ثقل أن

يكون مسألة حياة أو موت.

خاطبني روعي مجرد: - جيفان ، أنت شخص جيد.

- أرجو أن أكون كذلك. - علقت.

- برأيك لما لا أقدم على الانتحار؟

- لم أفهم..

- معظم المنتحرين هم ممن تجاوزت أعمارهم الخامسة والسبعين. وأظنّ بأنه

حان لي أن أموت. أليس كذلك؟

- لا قدر الله سيد روعي ، فليمنحك الله طول العمر..

- بل فليقدر يا جيفان. أنا في المائة ، ومن المعيب للمرء العيش أطول من

ذلك..

- أحقاً تشعر بنفسك في المائة؟

- طبعاً لا. لاحظ أننا حين نتحدث عن الدنيا ، نستخدم ألفاظ أبدية ، فنقول

(دنيا الفناء) مثلاً ، كما أنّ (منزل الدنيا) تحمل معنى منفياً. ولكن الحال ليس مماثلاً مع

كلمة (الحياة) ، فنحن نسبغها على كل ما حولنا ، فنقول (يفيض بالحياة). علينا التمسك

بالحياة ، دون التعلق بالدنيا..

- يعني.. أنك لهذا السبب لا تقدم على الانتحار ، أليس كذلك؟

- لقد أصبت.. ولكن لا تحسبنّ أنني زاهد في الموت.

- رغم رغبتك في الموت ، ولكنك لا تقدم على الانتحار.. - ما إن خرجت الكلمات

من فمي ، حتى انتبهت أنني اختصرت ما عشته في سنوات التيه..

- أحسنت أيها الشاب. لا يمكننا فهم الموت إلا بتقنية تنبع من الحياة ذاتها.
- كيف؟
- لا فكرة لدي..
- ماذا؟ بدوت وكأنك تعرف..
- هيهات! وهل تعتقد أننا قادرون على التحكم فيما نحياه؟
- لا أعتقد..
- ما يعني أننا لا نستطيع إدارة الزمن أو الأحداث ، وبالتالي لا سلطة لنا على الحياة ، حتى أننا لا نستطيع الحؤول دون تردي أجسادنا. فالزمن يجرفنا.
- جرفاً لا رحمة فيه.
- وبعد مرحلة معينة ، يدرك الإنسان أنه لن يحصل على الحقيقة في هذا العالم.
- أنت متأكد من ذلك؟
- هذا العالم لا يناسب سوى البحث ، ولا نستطيع فيه الحصول سوى على إشارات ، دلائل ورموز ليس إلا..
- وضع تراجيدي..
- أهذا ما تعتقده؟ الأشخاص الكاملون لا يبلغون مزيداً من الكمال..
- أتؤمن حقاً بالآخرة؟ الجنة ، الجحيم؟
- هل طرحت سؤالاً بالغ الجرأة؟ أم أنّ الأمر بدا لي كذلك؟
- العفو ، يبدو أنني تجاوزت حدودي.

- أودّ أن أجيبك: أجل أنا أوّمن بالجنة والجحيم ، فكلاهما موجودان في هذا العالم.

- غريب..

- أجل. لذا سأدون على شاهدة قبري “الحياة تستمر”.

- لديك حس فكاهة..

- على العكس ، أنا عابث. العبث هو اقتراب من الحقيقة ، أما الفكاهة فهي طريق الهرب منها.

- ما أخبار معصوم جيّجي ؟ - لم أكن أتوقع هذا السؤال.

- صحيح ، عليّ أن أبشرك.. - بدأت بمقدمة كاذبة.

قاطعني:

- هل عثرت على أثر له ؟

- بالطبع..

- أنت رائع يا جيفان! أين هذا الملعون ؟

- ها ؟

- أين يقيم صديقنا معصوم جيّجي ؟

- لا فكرة لدي..

- كفّ عن العبث. ألم تقل إنك عثرت عليه الآن؟

حاولت كسب الوقت:

- عثرت على مستخدم واحد في الفيس بوك باسم معصوم جيحي..

- ثم؟

- أرسلت له رسالة..

- وماذا كان ردّه؟

- تمكّن من تذكرك.

- جيفان! كل من يتابع التلفاز لا بدّ أن يتذكرني..

- أعني أنه تذكر النقود التي أقرضك إياها..

- إيببيه؟!

- ولكن فلتطب نفساً سيدي ، لقد حوّلت له النقود ، وسددت الدين.. - قلت على

عجالة.

- ماذا؟!!

- لا تشغل بالك بالأمر بعد الآن سيدي ، لقد حوّلت النقود لمعصوم جيحي.

ووفيت بالدين. - أعتقد بأنّ الرقاقة المدسوسة في رأسه تلبّل أفكاره. ربما يظن أنه يعرف معصوم جيحي بسبب ملف محفوظ على الرقاقة. فالعلاقة بين ما يجول في ذهنينا من أفكار ، وما ينساب على شفّتيننا من كلمات ، تعاني من خلل فظيع..

توجهت إلى المشفى ، وقد اشترت من الصيدلية إبرة نخاع العظم. وإلى جانب المحقنة كانت في العلبة إبرة صغيرة. طلب مني الدكتور أن اضطلع على بطني ، وغرز الإبرة في عظم القص دون تخدير ، ومن ثم سحب النخاع بواسطة الحقنة ، ووضعه في أنابيب رقيقة ، وأرسلها إلى المختبر.

إنه الثالث عشر من أيار ، ونازلي هلال تجهز حقيبتها في المنزل ، فيما أقرأ ما بين سطور صمتها ، كان أوزان في المشفى ، حيث ستجرى له العملية في اليوم التالي. لم أخبرها بأن سربيل على قيد الحياة ، ربما أنها كانت تعلم بالأمر. فالنساء مبرمجات على استشفاف الأحداث وتوقعها..

- أنت بخير؟
- بخير. لكنني مضطربة قليلاً.
- لا تخشي شيئاً ، سيتعافى أوزان.
- والفضل يعود إليك.
- متى موعد العملية؟
- التاسعة صباحاً. إن لم يحدث طارئ.
- سأطلب إجازة من المدرسة. هل ستنامين في المستشفى الليلة؟
- بالطبع.
- سأكون هناك في الصباح.

- حسناً.

خرجت من البيت ، وركبت السيارة متجها نحو مكتبة ما ، حين رنّ هاتفي الجوال.
كانت سربيل.

- جيفان؟

- مرحبا. أين أنت سربيل؟ هل كل شيء على ما يرام؟

- الأمور بخير.

- متى سنلتقي؟ ما الذي تفعله صحارى؟

- تلعب. نستطيع أن نلتقي السبت. سأحضر صحارى أيضاً معي.

كنت سأبقى وحيداً في بيت (أجي باديم) - ما رأيك أن نلتقي في البيت؟

- حسناً. سأتصل بك لاحقاً ، عليّ أن أنهي المكالمة الآن.

هل ستمكن أنا وسربيل من تخليص حبنا من كل ما جرى؟ كانت إشارة استفهام
ضخمة ترتفع في رأسي كبخار الماء المتصاعد من إبريق يغلي. ولكن ما العمل؟ وبين أن
تعلن المرأة قرارها وأن يفهمه الرجل ، ينتهي العمر.

استدعاني حقي ل. بيرفين إلى مكتبه ، فدخلت محيياً:

- مرحباً حضرة المدير. لقد طلبت لقائي.

نظر إليّ وكأنه يحاول أن يضبط تصرفي:

- تفضل عزيزي جيفان ، اجلس. - وأشار إلى الكرسيين أمام طاولته.

تستمد السلطة طاقتها الحيوية من تفاهة تراتبية الروتين. جلست على الكرسي الأيمن ، وأبدت نصف ابتسامة:

- أشكرك.

- الأيام تمضي كميّاه (إريكلي) دون عودة ، وتنساب الأسابيع كملح (بلور) من بين أصابعنا ، فيما الأشهر تنسكب كزيت زيتون (كوميلي) ، أما السنين فتتناثر كقاذورات راقصة تتغذى على لبن (أكتيفيا بروبيوتيك)..

- عفوا؟..- هل قام المدير أيضاً بتأجير دماغه لـ.(باكت)؟

- كما تعلم فأنا أعرج ، بالأحرى أنا معاق.. أو كما درج مؤخراً ، فأنا من ذوي الاحتياجات الخاصة..

- أنا أسمعك ، أكمل..

- لو كنتُ أحد طلبتك ، أكنت ستجبر جسدي على التمرين ؟ فقد بلغني أنكٍ ترغم الطلبة المعاقين ممن لديهم تقارير طبية تعفيهم من دروس الرياضة البدنية ، على حضور حصصك الدراسية.

- صحيح - لم أكن في وضع يسمح لي بالمغامرة في خفض نسبة المستمعين إليّ خلال اليوم ، كان عليّ إيصال المقولات الدعائية إلى أكبر عدد ممكن من الأشخاص. ولكنني بطبيعة الحال لم أستطع شرح ذلك للمدير.

- محاولات تصعيب الحياة ، لا تبدو سوى نجاح أحقق. لما تجبر الطلبة المعاقين على حضور دروسك ؟

- كما تعلمون فالتربية الرياضية لا تعتمد على التمارين فقط ، بل على أسس نظرية أيضاً ، ولا يمكن الفصل بين الجانبين: تماماً كأصابع البطايا المقلية من

(ماكدونالدز) وكتشاب (كالف). التقارير الطبية تطلعنا على مشاكلهم الصحية ، وقدراتهم البدنية ، ولكن لا نجد ما يمنعهم من الانضمام إلى الحصص الدراسية كمشاهدين ومستمعين. بل هو أمر مفيد لهم..

- هل تود شرب الشاي ؟ - انتبه لهذه الجملة جيداً عزيزي القارئ ، فحين تطرح فكرة معينة ، يقابلها المستمع بدعوتك لشرب الشاي ، فذلك يعني بأنه لا يوافقك الرأي.

- (ليبتون)؟

- (شاي كور).. - قالها وتجمّد كل شيء ، كزرق حمامة تجمدت في الهواء.

الخلود الزائف

«إن وثقت بالنساء ستغدو صعلوكاً ،

وإن وثقت بالرجال ستغدو رجلاً»..

(وفاء وزّاني ، الوجود النموذجي)

تأجلت عملية أوزان إلى الخامسة من بعد الظهر. وقد التقيت نازلي هلال في مستشفى جامعة مرمرة للأبحاث والتعليم.

أخذت إجازة من المدرسة ، وقبل أذان الظهر توجهت إلى الجامع ، لم يكن روحي مجرد قد وصل حينها. فجلست على أحد المقاعد ، وحييت عوني واو بإيماءة من رأسي مبتسماً.

- وأخيراً تسنى لنا البقاء منفردين.. - قالها وهو يجلس إلى جواري.

- كيف حالك سيدي؟ - حاولت أن أبدي اللطف.

فردّ عليّ بسؤال آخر: - ما هو أحب لون لديك؟

- أحمر الفيراري.

- حسناً ، وطعامك المفضل؟

- دومينوس مكسيكانو بيتزا..

- ما هي المتعة برأيك؟

- أن أملاً عربة التسوق من العروض التشجيعية والتخفيضات في أقسام متاجر (كارفور)..

- الحب؟

- تقاسم الـ (الأغيدا).

- مع من؟

- مع أدريانا ليما التي تظهر في إعلانات جينز (مافي)..

- المغامرة؟

- أن أتجه على متن طائرة (لوفتهانزا) إلى (ديزني لاند) فيما أتصفح (النيويورك)

بواسطة (سامسونغ غالاكسي).

- اثنان في اثنان؟

- (ديرت) [42](#)..

- يعني؟

- المسلسل الذي يتم بثه على (إف. إكس).

- تنساب كلماتك كالأنشعار ، وأكاذيبك الوردية المذنبة تداعب روحي . - وأخرج

من جيب سترته دفتر ملاحظات وقلماً ، وسجل عليها ملحوظة ورفعها في وجهي: (سيقومون بقتلك).

- عن أي شيء تتحدث؟

وضع سبابته على شفثيه يشير عليّ بالصمت:

- ههشش!

وسجل ملحوظة أخرى: توقف عن الكلام ، وأومئ برأسك فقط.

- لها؟

عاد للكتابة: لوجود رفاقة في رأسك. هل كنت تعلم؟

- أجل أعلم. - أجبت.

«تعال معي» كتبها ونهض واقفا ، فتبعته. فتح أحد الخزائن الخشبية في مبنى الموضوع. وحين شاهد القباقيب الخشبية أعاد إغلاقها ، وفتح أخرى وأخذ من بين المناشف المطوية فوق بعضها البعض ، المنشفة التي في الأعلى ، وبعد أن وضعها تحت صنوبر المياه حتى تبللت بالكامل ، مدها نحوي ، ورفع الملحوظة التي دونها على الدفتر أمام ناظري: لفّ المنشفة حول رأسك.

نفذت ما طلبه مني ، وأدرت وجهي عن انعكاس وجهي الذي بدا كوجه فقير هندي على المرأة الممتدة على طول الحائط فوق صناير الموضوع.

- ما الذي يجري سيد عوني؟

وأخيراً حلّت عقدة لسانه ، وبدأ التكلم بسرعة فائقة: - هذا ما يجب أن أسألك عنه. فقد بدأ روحي مجرد مؤخراً بالتفوه بترهات تضمّ جملاً دعائية ، وبدأ يحدث ثلة الجامع عن لباس البحر (كوم) ، آلات التصوير (نيكون) ، دراجات (هوندا) النارية ، وبيوض المفاجآت من (كيندر سوربريز) ، وأنت أيضاً مثله. ما كان لي أن ألحظ الأمر ، لولا أنّ جميع الأخبار على التلفاز من أخبار الجرائم ، الانتحار ، اختطاف الناس ، القبض على شبكات الدعارة ، التفجيرات وسواها من الأخبار معظمها تحمل إعلانات لمنتجات معينة. وقد بدأ كل شيء مع اصطدام قطار الكوكا كولا بسفينة البيسي. هناك عصبة تقوم بالتحكم بأذهان الناس ، وقد بحثت في الأمر ، واتضح أنهم يتحكمون بكلامهم المنطوق عن طريق رقاقت

إلكترونية. كنت أظن أموراً مماثلة ، لا تحدث إلا في الروايات التي أُلّفها. والآن أخبرني ؛ من أين أتت الرقاقة الدعائية التي في رأسك؟ وكيف تورط السيد روجي في هذا الأمر؟ ومن المسؤول عن كل هذا الجنون؟

كان يمسك بذراعي ، وبدأنا نسير بضع خطوات لنجلس على المقاعد تحت عريشة العنب.

- معصوم جيغي - قلت - يدير شركة تدعى (باكت) ، والتي بناها تحت الأرض في (مشروعية كويو) في منطقة شيله ، داخل حديقة من البالونيا. وقد أخبرني بأنّ أكثر وسائل الدعاية تأثيراً هو الإنسان ، لذا فقد قام بتأسيس برنامج يعتمد على تضمين المحادثات اليومية بالرسائل الدعائية.. كنت بحاجة إلى النقود من أجل إجراء العملية لابن أخي..

بدأ يدمدم مع نفسه وقد صوّب نظراته نحو موضع قدميه:

- وأنت ساعدتهم في استغلال دماغ السيد روجي؟

- ظننت أنّ الأمر لن يضرّ أحداً..

عقد حاجبيه:

- في أي عالم تعيش؟

- أنا.. بقيت طوال سبع سنوات شريداً في الأزقة..

- كيف؟ أي هراء كنت تفعله في الأزقة..

- هل سمعت شيئاً عن مباريات (بوم فايت)؟

- هل تعني الجولات الشنيعة التي يخوضها المشردون؟

- أجل ، أنا اللاعب المسمى (كولومبو)..

- ولكن إحدى عينيه مغطاة.. إذأ ، فهم يفضلون أمثالك ممن تحولت أدمغتهم إلى ماء الجبن العفن ، إثر الضربات التي كنت تتلقاها طول تلك السنين ؟ وبالطبع ذاكرة روحي مجرد لا فرق بينها وبين الغربال. المسكين يظنّ المرأة التي ظهرت فجأة في منزله ، خادمته منذ خمسة عشر عاماً..

- أتحدث عن فيغان نيغاتيف ؟

- أهي أيضاً من (باكت)؟

- أجل ، ولكن مهمتها الحفاظ على صحة السيد روحي ، أكثر من أي شيء آخر.

- اسمعني جيداً يا بني! هذه الآفة المزروعة في رؤوسكم ، ليست فقط للتحكم بما تنطقه ألسنتكم ، بل مهمتها الاطلاع على كافة أسراركم ، ومراقبتكم طوال الأربع والعشرين ساعة ومعرفة كل ما تفعلونه. أتذكر حادثة ارتطام قطار الكوكا كولا مع سفينة البيبسي التي راح ضحيتها سبعة وسبعون شخصاً؟

- رأيت الحادث حين كنت واقفاً على ساحل (موزا) ، لكنني لست مطلعاً على تفاصيل الأمر.

- الحقيقة أنّ هذا الوغد يقوم بإنفاق البشر كعملات معدنية بخسة ، ففي يوم الحادث كانت زهرة ظريف أوغلو تلطم رأسها وهي تصرخ: الكوكا كولا شراب المنتصرين. ومن الواضح أنهم قد زرعوا رقاقة في رأسها أيضاً. وقد أطلعني روحي مجرد منذ فترة قصيرة ، بأنّ المسكينة قد انتحرت. فتحرّيت عن الأمر ، واكتشفت أنها رمت بنفسها من فوق بناء المحطة. أي أنهم قادرون على دفعك إلى الموت في الوقت الذي يشاؤون. ومن يعلم أي نوع من الشرور سيلحقون بروحي مجرد.

- السلام عليكم!

- أووو! وعليكم السلام سيد روحي ، كنا للتو نتحدث عنك ، أهلاً بك. - تغيير مزاج

عوني واو على الفور.

أمسكت بطرف المنشفة ، وحللت عقدتها عن رأسي:

- في إحدى المرات ، قمت باستخدام صابونة (حاجي شاكر) كقطعة خشبية للنحت.

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «ارتكاب كافة الأخطاء الممكنة ، دون الاتعاض من أي منها» لقيمت بإيجادها.

كان روحي مجرد الذي يسحب أنفاساً عميقة من سجائر الجمل ، ينفث الدخان كمدخنة إحدى المحارق. فيما أغنية أورهان كينجباي (لعبة الأقدار) المناسبة من جهاز الصوبارو تجول وتصل في دماننا: «لا أحبة لي ، ولا من يسأل عني ، أنا غارق في الوحدة.. لا يوم دون هموم ، وإن سألت عن المشاكل فما أكثرها ، أنا غارق في الحزن..» كانت القوافي تملأ القلب بالبارود ، والموسيقى تحرقه بالشرر. ورغم ذلك فقد استغربت استغراق روحي مجرد في التفكير.

شوارع (سوعادية) الراقية تنوء تحت غبار الدمار ، وخمول الضواحي ، ودخان الأنقاض..

كنت أنتظر رسالة سربيل ، ففرحة اللقاء بابنتي كانت تبهرني. كما كان عليّ إيجاد حل جذري لمشكلة تيمور تومور. ولكنني بالطبع لم أكن أستبعد نظرية المؤامرة التي طرحها عوني واو ، حول قيام معصوم جيغي بالتخلص مني أنا وروحي مجرد بكبسة زر.

أمامي أربع ساعات على موعد عملية أوزان ، لذا يتوجب عليّ إيصال السيد روحي إلى منزله بسرعة ، والتوجه إلى المشفى.

رَنّ هاتفي ، كانت نازلي هلال على الطرف الآخر:

- جيفان - هي أيضاً مثل أوزان كانت تقطّع جملها ، وقبل أن تكمل ، كانت كلماتها تعبر ذهني على شكل شريط: “أين أنت؟ كان من المفترض أن تأتي إلى المشفى منذ الصباح. أنا بانتظارك ، فكما تعرف ليس لي أحد سواك ، لما لم تتصل وتخبرني بأنك ستتأخر..”.

- أنا في طريقي إليك ، أحتاج لحوالي ربع ساعة للوصول. - قلت.

وأخبرت روعي مجرد بأننا نقلنا أوزان إلى المستشفى.

- وأخوك؟ أين هو؟ - سألني.

- انتقل إلى رحمة الله.. لقد توفي قبل عدة سنوات في حادث مروري. - قلت. فلم

أجد فائدة من التصريح للعجوز بأن: أخي مات في حادثة الطائرة التي نجوت منها حياً..

- في أي مستشفى؟

- مستشفى مرمرة الجامعي.

- إنه قريب ، فلتسرع!

- هل تريد المجيء؟

- بالطبع. فأوزان صديقي..

اشتباك مسلح في المصعد المتجه

إلى الطابق العلوي من الجنة

«الطفل ؛ حادث مروري في نفق الحب».

(ليونارد لويس ليفينسون ، 1904-1974 ، الدمية الثرثرة)

كانت العملية ناجحة ، وقد شعرت بالارتياح لأنني تمكنت من تأمين الوسائل البيولوجية والمادية لعلاج أوزان.

نازلي هلال تنام في المستشفى منذ يومين لترعى ابنها ، الذي يتوجب له البقاء فيها لفترة أخرى ، ليكون تحت مراقبة الأطباء.

استيقظت صباح السبت في الساعة التاسعة والنصف ، كانت إسطنبول تتوهج تحت الشمس ، تماماً كصورها المطبوعة على أغلفة الكتيبات الملونة المعدة للسواح.

اتصلت سربيل: - مرحباً جيفان. سنذهب أنا وصحاري في الثانية عشرة ظهراً إلى حديقة (أوزغورلوك) 43 ، هل تستطيع المجيء؟

- سأكون هناك.

كنت كجنين يشاهد أحلام والدته.

وأخيراً سأتمكن من لقاء ابنتي التي بقيت يتيمة طوال ستة أعوام. ارتديت ثيابي على عجل بعد حمام سريع. واتجهت صوب (Toys R Us) ، لأشتري باندا محشواً لصحاري ، كان حزيناً بقدر وسامته.

في الحادية عشرة والنصف وصلت الحديقة ، وقد بدا المشهد من حولي كصور
التقاويم السنوية لشهر آب. المكان مكتظ ؛ الكافيتريا ، محل المثلجات وحوض السباحة
وأماكن اللعب. كنت سعيداً وكأنني في المصعد الذي يعلو بي نحو طوابق الجنة العلوية.

لكن نظراتي توجهت إلى رجل يرتدي ثياباً سوداء كالانتحاريين ، كان من الواضح
أنه يبحث عن أحد ما. وعلى قمة المرج كان هناك آخر بثياب سوداء ، وآخر أمام محل
المثلجات ، وبالقرب من ساحة التسلق.. أخفيت وجهي خلف الباندا ووقفت خلف أحدهم.
كان المسدس المحشو في حزام بنطاله ، يسبب انتفاخاً واضحاً في سترته من الخلف.
تمعنت في صورة تيمور تومور التي أخرجتها من جيب بنطالي الخلفي ، لم يكن يماثل هذا
الوغد في شيء. وضع إبهامه الأيمن على أذنه ، من الواضح أنه تلقى تعليمات معينة بواسطة
السماعة القابعة في أذنه.

- أمرك تيمور بيك - قالها وتوجه مسرعاً نحو مدخل الحديقة. أجلس الباندا على
غصن شجرة صنوبر ، وتبع الرجل المتشح بالسواد. كانت تفصلنا مسافة خمسة أمتار ،
حين شاهدت سربيل سيلاحي بيبي وصحاري تدخلان الحديقة يدا بيد من الباب الشرقي.
كانت إحدى عيني ابنتي زرقاء ، والأخرى بنية! هذه الصفة التي لا تعجبني ، أضفت جمالاً
رائعاً على صحاري. أعاد الفدائي وضع إبهامه على أذنه ، ليخبر باقي أفراد عصبته. وما كان لي
أن أمنحه الفرصة. ارتيمت عليه في قفزة واحدة ، ونزعت السماعة عن أذنه. وأنزلت لكلمات
متتالية على سحنه الدهشة ، حتى سقط مغشياً عليه. نزعت المسدس من خصره ، فيما
تراقب سربيل الأرجاء بهلع ، وكانت صحاري على وشك البكاء. وعلى الفور أخذت صحاري
في حضني ، وأمسكت يد سربيل:

- لا تخافي ، أنا هنا.

وفيما نسير ، استعدت الباندا من الشجرة ، وقدمتها لصحاري:

- هذا لك. - وأرفعت هديتي بقبلة.

- هل أنت أبي؟ - سألتني. كان العالم كله يتلألأ في عينيها حين تبتسم.

- أجل بنيتي. - وطبعت قبلة أخرى على وجنتها. كنت أشعر بنفسي بهلواناً يسير على يديه فوق الحبل. لقد أصبح لدي طفلة في السادسة تزن عشرين كيلوغراماً. طفلة جديدة ، غيرت كل ما قبلها. ولكن المفارقة أنّ البشائر تصلني برفقة الكوارث. ورغم خطر الموت المتربص بي ، كانت جوانحي تضحّ سعادة. فأنا مدرك لوجود من هم في ظروف أسوأ مني ، ولا أريد أن أكون في مكانهم.

كانت سربيل تسير على يساري ، وقد حاولنا التسلل وسط الحشد دون لفت الانتباه ، للوصول إلى الباب الغربي. ربما نواجه مصيبة أخرى تنتظرنا هناك ، ولكن إن تمكنا من الوصول إلى السيارة ، فستنحل المشكلة.

- أهنأك آخرون؟ - سألتني سربيل.

- لا أظن ، أرجوك تمالكي نفسك. - كانت محقّة في شكوكها ، وكنتُ محقّقاً في أكلدوبيتي.

- ألم ترافقك حماية؟ - سألتها.

- لقد وضعت حبة منوم في كأس الشاي الذي شرهه المرافق. - أوضحت.

وضعت صحارى على ذراعي سربيل ، فلم أكن أريد لابنتي أن تشاهد الجريمة التي سأرتكبها بعد برهة ، وقلقاً من تعرفها عليّ بطريقة خاطئة. ولكن من أنا حقيقة؟ هل أمتلك الجدارة المناسبة لأصبح أباً؟ لا أظن. ربما سَطِر في لوح أقداري أن تعترني الدهشة لقائي الأول بابنتي وهي تراني أمسك مسدساً. يا للغرابة! كان تعارفي على سربيل أيضاً ، على وقع أصوات السلاح والأجساد المتناثرة.

أمام الباب الغربي لم يكن هناك واحد بل اثنان ، وقد توجهت أنظارهم نحونا ، وكان أحدهما يتكلم عبر سماعته في هياج واضح ، من المرجح بأنه يخبر بقية زملائه بأنهم

عثروا علينا. لجأ كلاهما إلى مسدسيهما على الفور ، فقفزت أمام سربيل وبدأت بإطلاق النار. تمكنت رصاصة من جرح أذني اليمنى: فننننن! ترددت في رأسي أصوات أجراس كاتدرائية ، وبدوري تمكنت من إصابة أحد الرجلين في رأسه ، والآخر في صدره. عمّ الصمت من حولي ، كان الناس يهربون ، ولكن صرخاتهم لم تكن تصلني ، حتى أنني لم أكن أسمع صوت بكاء صحارى التي غسلت دموعها وجهها. كانت الفوضى هادئة كحروب الأسماك. أخذت الطفلة من سربيل ، وبدأنا نركض بأقصى سرعتنا. وصلنا إلى الصوبارو التي اقتحمناها وانطلقنا مسرعين. كانت صحارى في المقعد الخلفي لا تزال تواصل بكاء مكتوماً وقد احتضنت الباندا ، الذي لم يكن يبدو أقل حزناً منها.

- اهدهني يا حبيبتي ، لقد انتهى الأمر. سنذهب الآن إلى (بيرغر كينغ) حيث يهدون لعبة شريك مع وجبة الأطفال ، وأراهن أنك تحبين الأميرة فيونا. ومن ثم سنختار لك ثياباً من (فينيس) وإن شئت سنشتري قصصاً رائعة من منشورات (توديم)..

اعترضت سربيل التي كانت تمسك صحارى بإحدى يديها ، فيما تمسد وجهها بيدها الأخرى ، بصوت أشبه بأسطوانة تالفة: - ما الذي تحدث عنه جيفان؟ من الممكن للشرطة أن تعثر علينا في أي لحظة ، فقد قمت بقتل الرجلين أمام ناظري المئات من الناس ، كما أنهم شاهدونا نستقل السيارة ، ولا بدّ أنّ أحدهم قام بتدوين رقمها..

من المرأة الجانية كانت تظهر سيارة أودي سوداء تقترب منا بأقصى سرعتها. سحبت نفساً عميقاً وضغطت على البنزين ، مجتازاً الطريق العام نحو الشمال. فالأزمات المرورية تكون نافعة حين يقوم أحد بملاحقتك. كانت الأودي تناور بين السيارات ، كصاروخ موجه عن بعد. اخترقت الطريق المتفرع عن جسر (السلطان محمد الفاتح) متجهاً صوب المجهول. ظهر تيمور تومور جالساً إلى جوار سائق الأودي. فقد كان من بالقرب بما يكفي لتمييز رأسه الأشبه بكرة رغبي فرغت من الهواء. الحمقى حين يغضبون ، يبتهجون لحصولهم على فرصة إظهار قدراتهم. أخرج جذعه من نافذة السيارة وبدأ يمطرنا بوابل الرصاص.

- انحنى! - هل سأتمكن من حماية سربيل وصحاري؟. لقد قضيت سنوات في مباريات مهمّية ، ولكنني لا أتذكر أنني أصبت بهذا الهلع من قبل.

أحال الرصاص زجاج النافذة الخلفي إلى ملح منثور.

اجتازنا مباني الشركات ، والأحياء الفقيرة والشجيرات المتناثرة حتى بلغنا منطقة مهجورة. وكنت أحاول عدم ترك فراغ على اليسار تستطيع الأودي أن تعبر منه. كانت سربيل أيضاً تبكي مع صحاري. ناولتها المسدس ، فتمكنت من إطلاق بضع رصاصات طائشة. وأخرجت غلوك فوجير من درج السيارة الأمامي ، دون أن أحدد على وجه التحديد ما يتحتم عليّ فعله. في صدري تضحّ ضربات قلب جيش كامل حكم عليه بالهزيمة ، وخاصة بعد أن انفجرت إحدى العجلات الخلفية ، وبدأت أشعر بجنط السيارة يلامس الإسفلت. عبرت مجسم عامل يحمل بيده تحذير (قف) ، وبعثرت الحواجز العامودية ، وبدأنا ندخل إحدى الوديان. فيما الأودي تصدم صندوق السيارة الخلفي كل لحظة ، وأنا أحاول السيطرة عليها حتى لا تغور بنا أسفل الوادي. كانت السيارة على وشك التحطم ، حين ضغطت على المكابح ، حيث مجموعة من المدنيين المتأنقين يصوبون أسلحتهم الأتوماتيكية نحونا خلف الحاجز. انتابني شعور بأنّ حياتي قد انتهت قبل أن تبدأ. ومن الخلف وصلتني أصوات مكابح الأودي أيضاً. كنت عاجزاً عن تفسير هذه اللوحة ، حيث أنا وزوجتي وابنتي عالقون بين جبهتين مسلحتين ، لا ندري إن كان هؤلاء قد ظهروا لقتلنا أم لإنقاذنا ، وهل سنتمكن من النجاة؟

وسط الحاجز كان هناك ممر ضيق ، وقد اصطدمت بأكياس الرمل في محاولتي العبور ، فيما الجوار يغص برجال مسلحين من شاكلة عناصر (الإف بي أي) وبالسيارات السوداء. وجهت المقود نحو اليمين ، وأنا أرتطم بالحواجز التي ترتفع على جانب الطريق ، وبدأت أصوات الحجارة المتطايرة من تحت عجلات السيارة ، وارتطام غطاء الصندوق تصلني.

درجة على سلالم هرم الجثث

«ارفعوا رأسي لتشاهده الجموع ، لأنني

جدير بذلك».

(آخر كلمات جورج دانتون قبل قطع رأسه

على المقصلة ، 1759-1794)

كنت أكثر تشوشاً من ثور ارتطم به قطار ، حين رميت نفسي من السيارة. اقترب منا أحد القادة من ذوي البدلات الرسمية ، يمتاز بجسد مفتول ، شعر رمادي وعينين تومضان. وقد سألنا بابتسامة كلاسيكية:

- هل أنتم بخير؟ هل من إصابات؟

- بخير.. - أجبت.

اقتربت يده بلطف من ياقتي - اسمح لي. - وأزال قطعة زجاج مغروسة في كفتي..

- آآه..

ترجلت سرييل وهي تحتضن صحارى التي تحتضن الباندا ، فقمتم باحتضانهم كلهم. فيما كان أعضاء عصابة الموت يراقبوننا في تعاطف واضح.

سألت سرييل: - الرجل الذي داخل الأودي.. أكان تيمور تومور؟

- هو بذاته سيدتي. بالطبع لم يعد على قيد الحياة. إن كنت راغبة في الاحتفاظ

برأسه كذكرى ، أستطيع تنظيفه وتحنيطه لك..

- وما الذي سأفعله برأسه ؟

قلب الرجل شفته: - لا أدري.. ربما منفضة سجائر..

كانت صحارى قد هدأت قليلاً: - لقد أنقذتم حياتنا.. هل أنتم رجال الشرطة ؟

- شرطة ؟ - ضحك في قهقهة صاخبة - لا. نحن نمارس هذا العمل كهواية ليس

إلا..

على الطريق الممتد ظهرت سيارة كاديلاك إلدورادو سوداء موديل العام (1967). وبعد استدارة مائة وثمانين درجة وقفت بمحاذاتنا. كانت السيارة مألوفة لدي ، ترجل السائق وأغلق أزرار سترته ، وبدا لي أنني رايته سابقاً. أجل ، فحين كان معصوم جيغي يحدثني لدى خروجي من مدرسة (كسيك باش) وأنا أتحدث مع معصوم جيغي عبر الهاتف ، كان هذا السائق ينتظري أمام هذه السيارة ، والتي أقلتني إلى (باكت). فتح السائق باب الكاديلاك وأشار بانحناءة من رأسه إلينا لكي ندخلها. تبادلنا أنا وسربيل النظرات.

- نحن لم ننه عملنا هنا بعد ، لذا لا نريد أن نعطلكم سيدي.. - أوضح لنا القائد وهو يتابع بنظراته الحواجز التي تناثرت على الطريق.

ركبنا الكاديلاك ، حيث معصوم جيغي يجلس في المقعد المجاور للسائق. التفت نحونا: - حمداً لله على السلامة سيد جيفان.

- شكراً لك.

كانت صحارى تشير للأشجار والعصافير التي في الجوار ، وهي تحدث الباندا بحبور. في حين بدا القلق واضحاً على سربيل ، وحين حاولت إمساك يدها بهدوء ، أدركت أنها لا تزال ممسكة بالمسدس ، فأخذته منها وثبتته على خصري إلى جوار الغلوك.

فاحتضنت ساعدي ، فيما الدماء المنسابة من كتفي قد رسمت خطأ مستقيماً على قميصي .

- أنت ذو مكانة استثنائية بالنسبة لـ (باكت) - أوضح معصوم جيغي - أرجو ألا تعتبر عملية الإنقاذ هذه ، تدخلاً في حياتك الشخصية .

دنوت منه هامساً: - لقد ضربت رجلين ، وأطلقت النار على آخر ، ومن المرجح أن رقم سيارتي وملامح وجهي قد وصلت الشرطة ..

كانت الكاديلاك تتجه من (جامليجا) نحو (أجي باديم).

- لا تخشَ شيئاً. فقد قام رجالي قبيل الاشتباك بنزع رقم سيارتك. كما أن سيارة صوبارو بنفس الموديل والرقم ، تقف الآن أمام باب منزلك. - وأمسك بذراعي ووضع في راحة يدي مفتاح الصوبارو.

استبدت بي الحيرة ، كما أن سيطرة معصوم جيغي بهذه البراعة على كافة التفاصيل ، زعزعت كبريائي وجعلتني أشعر بالضعف: - حسناً ، ولكن كيف ؟

- كما تعلم سيد جيفان ، فالاتفاق المبرم بيننا ، يتضمن الحفاظ على سلامتك . وحين تلوح بوادر الخطر ، فإن واجب الصداقة يحتم علينا الإسراع إلى نجدتك. لذا ما من شيء يستحق الشكر.

- وأنا أيضاً أشكرك كثيراً.. - علّقت سربيل في نبرة امتنان مصطنعة.

كنت أحاول ترتيب الأحداث في ذهني ، فما الذي كان تيمور تومور يفعله في حديقة (أوزغورلوك)؟ لا بدّ وأنّ أحدهم قد أخبره مسبقاً بنية سربيل الذهاب إليها. وبالطبع لا يمكن سوى لموظفي (باكت) وعلى رأسهم معصوم جيغي الذين يعلمون بفضل الرقاقة التي تراقبني ليل نهار ، أن يطلعوا على هذه المعلومات. وبالتالي فقيامه بالتخلص من تيمور تومور - البلاء المزمّن بهذه السهولة ، كانت طريقته لمطالبتني بالولاء التام من جهة ، ولإخافتني من جهة أخرى. الآن فقط أدركت تماماً أي الذئاب أراقص. فحين يسقط القناع عن

القناع ، يظهر وجه المحتال الحقيقي .. كنت بطلاً ، حين كنت شريداً ينام ويحيا في الأزقة ،
وأما الآن فأنا لست سوى مجرد بيدق ..

- أستميحك عذراً سيدتي الجميلة ، لم أعرفك بنفسني ؛ أنا معصوم جيبي صديق
السيد جيفان - قالها ومدّ يده مصافحاً ..

تصافحا ، فاجتاح مغص مؤلم معدتي .

- تشرفت بمعرفتك .

- الشرف لي سيدتي .

في تلك اللحظة خطر لي أن استلّ الغلوك وأفرغها في رأس معصوم جيبي
الأصلع . ولكن صحارى شاهدت من الدماء المرافقة ما يكفي لليوم . هل ستتاح لي فرصة أخرى
للقضاء عليه ؟ لا أدري ، لكنني واثق من أمر وحيد ؛ لن أكون درجة أخرى في سلالم هرم
الجثث الذي يتسلقه هذا الفرعون المتحذلق .

السكين في ظهره

على بساط من الأشواك

«إن لم تمعن النظر ، فلن تدرك أبداً ما

يمكن للإنسان أن يقدم عليه.».

(محسن بيك المناسترلي ، 1808-1888 ، القسوة الزائفة).

الحقيقة ليست الثواب الذي تناله من الحب. ماذا؟ هل أنا مخطئ؟

نزلنا من الكاديلاك أمام منزل نازلي هلال ، وأمام باب الحديقة كانت صوبارو
طحلبية الخضرة تقف بانتظارنا بالفعل. نسخة مطابقة عن سابقتها.

كنا نحن الثلاثة ، أنا وسربيل وصحارى منهكين من التعب ، فأشرت نحو المنزل:

- هل تودين الدخول؟

- أتعيش هنا؟

- يمكنك قول ذلك في الوقت الحالي.

في الطابق الأرضي المطل على الطريق جلس شاب ضخم على الشرفة يقرأ كتاباً ،
ويحدق فيه وكأنه يشاهد مجريات الأحداث أمام ناظريه ، وحين سمع باب الحديقة قد فتح ،
أنزل الكتاب قليلاً وتابعنا بعينيه عديمي اللون.

في المنزل غسلنا أجسادنا من غبار الطريق والتعب ، وبدلت ثيابي.

أخبرت سربيل بأن المنزل يعود لزوجة المرحوم أخي ، فتذكرت نازلي هلال .
أسندت رأسها على كتفي ، على جهة الجرح ، دون أن أنبس بشفة .

- لا زلت غير مصدقة أن تيمور تومور قد مات . لقد عشت لسنوات بسكين في
ظهري على بساط من الأشواك ..

لم أسمع ما تلا ذلك ، فمن جهة كنت أراقب صحارى التي اندمجت في اللعب ،
ومن جهة أرن في ذهني احتمالات الموت المتربصة . فيما سربيل تبتسم من خلال عينيها
الدامعتين .

- صحارى - ناديتها .

فأجابتنني في جدية : - نعم بابا! - والتفتت نحوي .

بابا؟ فاض صدري حبوراً ، سيستغرق الأمر وقتاً حتى أعتاد عليه . حتى الباندا الذي
يرافقها في اللعب بدا ممتناً من صداقتها . جلست إلى جوار ابنتي الصغيرة :

- هل منحته اسماً؟

- أجل - كانت تدقق النظر في عيني بعينيها المتغايرتين ، ولكن كبرياءها
الفطري يمنعها من التطرق إلى سبب هذا التغاير القزحي في عينينا .

- ما اسمه؟

التفتُّ نحو الباندا: - بونزا .

- وما الذي يعنيه بونزا؟

- اسم معدن ، وهو في الوقت ذاته اسم جزيرة في غرب إيطاليا .

- أمر غريب حقاً .. أحسنت ، تعالي إلى هنا يا حلوتي .. - احتضنتها وأنا أتشقق

عبير شعرها الذهبي ، وقد أحاطت عنقي بذراعيها اللتين تشبهان بحزوز الليمون اليوسفي .
كنت أشعر بخلاياي تتجدد ، وأنا أتشقق نسيم الجنة الذي يوضع من جسد ابنتي الرقيق .
كانت المرة الأولى التي أبكي فيها من الفرح في حياتي .

كانت صحارى في قيلولة ما بعد الظهر ، حين رنّ هاتف سربيل :

- أهلاً سيد حبيب!

.. -

- أنا وصحارى في المتجر ، سنعود بعد قليل إلى المنزل .

.. -

- مات تيمور تومور ؟ هل أنت متأكد ؟

.. -

- حسناً ، بالطبع . شكراً جزيلاً .. - وأنهت المكالمة .

في وسط كل هذه المعمعة كان الفضول يستبد بي لمعرفة أي نوع من الرجال هو
عشيق سربيل . هل تنام معه حتى الآن ؟ بالطبع تفعل . ورغم أنني أهدرت شبابي في سبيلها ،
فمن العبث أن أطلبها بالثمن ، لأنّ الذنب لم يكن ذنب أحد . فحتى قوة الحب الجارف
ووقار الحداد لن يتمكننا من الوقوف في وجه قوانين الطبيعة . يبدو أنني إلى جانب كوني
خنزيراً حسن النوايا وخاسراً مزمناً ، بدأت أتحوّل إلى وغد متمدن أيضاً . فقد بت أدرك أنّ
حبنا لشخص ما لا يخولنا امتلاكه . الجنس ، الماضي والوعود ليست مهمة أو ملزمة . والآن لا
يسعني سوى أن أمتنّ لما خسرتّه وعاد إليّ بطريقة أخرى .

كنا ممدين أنا وسربيل على الأريكة ، نستمع إلى دقات قلبينا. أمسكُ بياقة قميصي وأسحبه عن جسدي ، وأنا أرنو إلى أزرار ثوب سربيل المتراسة حتى الصدر. سألتني مشيرة إلى طعنة السكين المجاورة لأثر الرصاصة في بطني: - متى حدثت هذه الإصابة؟

- إنها المرة الأولى التي أراها. - أجبته مبتسماً.

فابتسمت بدورها ، لن أبالي بالموت إن جاءني الآن. فقد أدركت أنّ أقداري تقودني لاكتشاف ذاتي ، وأنّ هذا المكان ، هذه المرأة وهذا الدماغ ، كلها ليست لي. أعترف أنني أتفقد الواقعية ، الحدس والنبيل ، ولكنني كنت ممتنا. لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «إطفاء نيران الاضطراب بكأس شراب» لقمتم بإيجادها. فالعمر سيمضي على أي حال ، وقد أحببت وكنت محبوباً ، متّ وبُعُثت ، افتقرت والتقيت ، وليس في وسعي طلب المزيد. لم أكن أشعر برغبة في القتال وبلوغ النصر ، ما كنت أراه من الكأس القذر والمكسور هو نصفه المليء. أمّا المتطفلون الأوغاد الذين لا يستطيعون التخلي عن الطمأنة الزائفة في امتلاكهم ناصية الصواب ، فيصرون على ارتكاب الفظائع. لا أعرف عنك شيئاً عزيزي القارئ ولكن عن نفسي ؛ أنا لست بطلاً. والآن اسمحوا لي أن أقضي بعض الوقت مع حبيبتي. فهناك مائة وسبعة وثلاثون زراً عليّ فكّها. (اقتباس من روجي مجرد: الحميمة ترياق سموم الهجران). اقلبوا الصفحة.

القفز من فوق كافة مباني المدينة

«هناك معتوه يقبع داخلي ، عليّ

التعلم من أخطائه».

(بول فاليري)

شعرت بنفسي مشدوها إزاء عيني صحارى الناعستين الأحاذتين ، وقد كانت ألعاب نارية تفرقع في صدري ، وتنفث غبارها المضيء من أذنيّ. دعوتها باسطاً ذراعي قدر استطاعتي.

- بابا - ركضت نحوي وتعلقت بعنقي. لم تحاول أن تسألني أو تتهمني وتقاضيني.

- ابنتي الحبيبة! - رفعتها وأنا أدور بها عالياً ، وقد بسطت أجنحتها. ثم مددتها على الأريكة وبدأت أدغدغها ، لتنعش أجراس ضحكاتها الصافية الحياة في أوردتي. فيما تراقبنا سربيل سيلاجلي بيبي وقد أضيء وجهها بنور أيقوني. لقد كدت مع حبيبتي التي ظننتها ماتت وابنتي التي لم أتخيل أنها أبصرت النور ، أن نشكل عائلة بالفعل.

- جيفان علينا أن نذهب - قالت سربيل.

أوصلتهم إلى (كيزيل توبراك)، وفي الطريق طرحت على سربيل فكرة استئجار منزل والزواج إن كانت راغبة.

- لا أدري جيفان. لقد مرّ وقت طويل ، ولم يعد أي منا الشخص الذي كان عليه

في الماضي.

- أهنأك ورم أكبر من تيمور تومور؟

- ورم؟

- أعني حبيبك.. هل اخترت البقاء معه؟

- لم أقل شيئاً كهذا. ولكنه قدّم لي الكثير من العون ، ولا أريد التسبب في جرح مشاعر أحد..

فكروا في سرب من الغربان تجتمع حول جثة (شمار أوغلان) 44 تعس ، بعد أن حطمت عاصفة جسده الضعيف ، ونثرت أعضائه في الأرجاء. هذا ما أنا عليه الآن. قبل قليل حين كنا نمارس الحب ، تمكنا من إعادة الشعلة إلى معبد حبنا ، ونحن نخوض تجربة بالغة الخصوصية لا تقبل طرفاً ثالثاً.

- إن لم يكن لديك مانع.. من هو ابن اللعينة المحظوظ هذا؟

- دعك من ذلك جيفان ، هل ستعرفه إن أخبرتك؟

- إن ساعدتني ، قد أتمكن على الأقل من تكوين فكرة عن منافسي. ما مجال عمله على سبيل المثال؟

- يقوم بتنظيم حفلات الأعراس والمناسبات..

- وكيف يعاملك؟

- ببالغ اللطف. كما أنّ علاقته جيدة بصحاري.. إنه جنتيل مان حقيقي. أرجوك لا ترغمني على المزيد..

ودعتها في نهاية الحي الذي تقيم فيه. ولكن صحاري لم تكن راغبة في الابتعاد

عني:

- بابا! هل أستطيع رؤيتك مرة أخرى؟

- بالطبع حبيبتي! لن نفرق عن بعضنا أبداً. - فألقت سربيل علي نظرة ، وتصنعت ابتسامة وكأنها تحاول كتم ما يجول في خاطرها. ترحلنا من السيارة ، واتجهنا نحو البيت سيراً. وبقيت لبرهة أراقبهما ، حتى انعطفتا يساراً لتختفيا عن ناظري. قادت السيارة خلفاً ، وحين التفت للتحقق من الطريق ، رأيت الباندا مستلقياً على المقعد. فأعدت وضع ناقل الحركة على السرعة الأولى على عجل ، من أجل اللحاق بهما ، وقد كانتا على وشك بلوغ باب البناية. وفيما أحاول الوصول إليهما بسرعة ، رأيت بدري دوبارا الواقف على باب البناية. ما الذي يفعله في هذه الأرجاء؟ اجتزتهم وركنت سيارتي في مساحة فارغة بين السيارات المتراصة على الرصيف ، وبدأت أراقبهم من مرآتي الأمامية. كانت حبيبة قلبي سربيل سيلاحلي بيри ترتمي في حضن أكثر الأوغاد دناءة وفجوراً. الوضع الدنس ، كان يمسد بيده رأس صحارى. وقد دخلوا ثلاثتهم سوية البناء.

بوووووم!

كان ذلك صوت انفجار قلبي.

إذاً ، فعشيقها المجهول هو بدري دوبارا؟ ابن العاهرة الذي مزق أحشائي طعناً ، فقط لأنني أفسدت تلاعبه في مباراته اللعينة. سرّة كينغ كونغ القذرة ، الوضع الذي لن تفكر إن شاهدته وسط النيران ، ياتقاده لأنه مجرد مسودة وسخة. كان قلبي يتخبط في صدري ، كحمامة في حوض غسالة أوتوماتيكية ، وقد انعقد حاجبائي بإحكام ، وأنا أنفث الهواء من أنفي ، واصطلى المقود الذي أحكمت قبضتي عليه دون وعي. بدأ جسدي من الرأس وحتى أسفل القدمين يزحّ قطراناً مغلياً كذاك الذي في مراحل المصانع النووية. المشهد الذي رأيته ، ألمني أكثر من طعنات سكينه بألف مرة. إذاً فسّر سعادة الزبانية الذي يقطن قعر الجحيم ، ليس سوى سربيل! بلعت ريقى ، واحترت في معرفة ما الذي تريده سربيل بالفعل.. كنت أشتهي الصعود على أسطح كافة مباني المدينة ، والقفز من فوقها.

لا تسأل أسئلة لا تملك الإجابة عنها

«السؤال ؛ يجذب الجواب ، ولكن ليس

الحقيقة».

(جيكاكاتا بونغو ، متعة الكرسي الكهربائي)

ينطبق الليل كغطاءٍ قدر صدئٍ قدر ومسحّم ، على صدر المدينة.

التقيت مع فوجير فوجي في حديقة المستشفى. كان وضع أوزان مستقراً ، ومزاج نازلي هلال في أفضل حالاته.

حين رأني أوزان هتف في سعادة: - عمي جيفان - احتضنت يده وأنا أستغرب الطاقة الهائلة التي يمنحاني إياها هو وصحاري ، إنها إكسير.

عرّفت نازلي هلال على فوجير ، والتي رفعت من معنويات زوجة المرحوم أخي:

- عمليات نقل نقي العظم ، تكون مضمونة النتائج بالمجمل. كما أنّ الفحوصات الشهرية والسنوية التي تليها ، أمر اعتيادي. فحتى أمراض الكريب تستدعي مراجعة المريض لطيبه أثناء عملية العلاج. حمداً لله على سلامته..

- شكراً على لطفك..

كنت دائم الفضول لمعرفة الأحاديث التي تتبادلها النساء الجميلات فيما بينهن. لم تحاول نازلي هلال التلميح حتى بإيماءة بسيطة حول طبيعة علاقتي مع فوجير فوجي. وهذا ما أحبه فيها.

- اذهبي للبيت وارتاحي نازلي - قلت - سأمكث أنا الليلة مع أوزان .

- لا ، أنا في غاية الامتنان من وضعي . الأمور تسير على ما يرام ، وأستطيع النوم براحة . كما أننا في الغد أو بعده سنغادر المشفى . شكراً لك ..

قامت فوجير فوجي باحتضان نازلي هلال ، فبدتا كأختين . ورغم أنّ ظاهر الأمر يشير إلى محاولات فوجير لمواساة نازلي وتطمينها ، لكن الأمور ربما تكون معاكسة ، وبدا لي وكأن نازلي تقول لفوجير : « أنت أيضاً ستصبحين أمماً في يوم ما أيتها الشابة الجميلة » .. من الصعب حقاً ، فكّ شيفرة هذه الرسائل النسائية السرية ، والتقاط إيماءات التواطؤ بينهن .

افترقنا على وقع قبلات الوداع ، والكلمات الأقرب للهمس ، والمصافحات الودية الحارة . توجهت مع فوجير إلى (كادي كوي) ، وبعد ركن السيارات على الرصيف ، صادفنا في منطقة (باهرية) مكاناً باراً (شيكاغو 1929) أسفل اللوحة خُطت عبارة (فترة حظر الكحول) . تسللنا نحو الداخل ، لدخل ردهة واسعة عالية السقف ، خافتة الإنارة ، مزينة بلوحات أصلية ، يطغى عليها تناغم يشنت التركيز . أما رواد المكان ، فكانت ملابسهم متباينة الطراز كمثلي الأمم المتحدة ، وكأننا في موقع تصوير أحد الأفلام . التجأنا إلى طاولة مستديرة كرخيف .

اقترب منا رجل متوسط القامة ، أصهب ، يستحضر للذهن صورة الأطفال الأذكياء . صوته ، النبرة التي يتكلم بها والعبارات التي يستخدمها ، جعلتني أشعر بأنه يلقي علينا درساً في آداب السلوك :

- أهلاً بكم في شيكاغو 1929 ، شرفتم المكان . اسمي أحمد خان ، وكل ما سيُقدم لكم الليلة هو ضيافة منا ، أرجو منكم قبولها .

انتابني الدهشة :

- وما سبب هذه الضيافة المجانية ؟

- لم نتمكن من إقامة حفل الافتتاح ، بدلاً من ذلك وخلال مدة ستة أشهر ، نقوم باستضافة الزبون الذي يرتاد المكان للمرة الأولى.

- عذراً سيد أحمد خان ولكن ماذا إن قررت طلب كل ما في القائمة ؟

- ستكون ذكرى طريفة يرويها كل منا لأصدقائه سيدي. سيحضر لكم النادل القائمة في غضون دقائق. عن إذنكم.

طلب كل منا قهوة إيرلندية. كان البخار المتصاعد من الفناجين ، يتصاعد كغلالة تضيء المزيد من السحر على وجه فوجير.

- استغرب أن تكون شابة بمثل جاذبيتك جرّاحة أعصاب. لكن ما لا يمكنني فهمه على الإطلاق هو أن تحمل جرّاحة السلاح ، وتستخدمه كرئيسة عصابة محترفة. هل من توضيح لكل هذا؟

- أنا في الرابعة والعشرين من العمر.

- حسناً ، ست سنوات في كلية الطب ، وأربع سنوات للاختصاص.. إن كنت قد دخلت الكلية في الثامنة عشرة ، فتحتاجين للمزيد من الوقت لإنهاء تخصص جراحة الأعصاب..

- لقد أنهيت الثانوية وأنا في الثالثة عشرة ، وتخرجت من الكلية في السابعة عشرة. وحين أنهيت اختصاصي كنت في العشرين من العمر..

- ماذا؟ هل أنت من ذوي الذكاء الخارق أو ما شابه؟

- على الأغلب..

- حقاً غريب.. لقد كنت على الدوام ، ومنذ زمان بعيد ، أحرق ، وما زلت. وما الذي تستطيعين القيام به ؟ أعني مما لا يمكن لجموع الحمقى من أمثالي القيام به.

- هل لنا أن نتحدث في موضوع آخر من فضلك ؟

- سؤالان فقط !

- حسناً..

- هل يمكنك حفظ النص الذي تقومين بقراءته من المرة الأولى ؟

- إيببيه ؟ أجل..

- هل لي بمثال ؟

- رواية المزعزعون لأغوز أتاى الصفحة 99: "يجب ألا يغيب عن ذهننا، أنّ الأشياء التي نعتبرها قيماً شخصية، قد لا تكون سوى سمات مزيفة نتبناها لضغوط مجتمعية ليس إلا..".

- فقط ؟..

- هل لي بالسؤال الثاني ؟

- حسناً.. 1791×2739 ؟

- 4905549.

- متأكدة ؟

- ضحكت:

- لا تسأل أسئلة لا تملك الإجابة عنها جيفان كازانوف..

- ولما تهتمين بما يفعله معصوم جيحي؟ أنت شابة ، ذكية ، جميلة ، غنية وطبيبة وفوق ذلك خارقة الذكاء..

- عليّ الذهاب الآن. إلى اللقاء ، أراك لاحقاً. - وأخرجت من حقيبتها غطاء للرأس مصنوعاً من التيتانيوم ، ومغطى بالتيفلون ، وضعته على رأسي ، وثبتته بحزام أسفل ذقتي - والآن نستطع التحدث.

نقرت بأصابعي على الخوذة المعدنية.

- حتى لا يتمكن موظفو ال.(باكت) من سماع حديثنا؟

- تماماً. أنا من أوحى لمعصوم جيحي بفكرة الرقاقات الإلكترونية في الدماغ ، وكان مشروعني ينصب على فكرة تقوية الذاكرة. فالسبب الرئيسي في الواقع لضعف الذاكرة هو الطبيعة العدائية للعلاقات الاجتماعية. حيث يقوم الدماغ بمسح الإشارات السلبية ؛ التي تحمل طابعاً تهديدياً أو تشكل خطراً على الحياة. وخلاف ذلك يؤدي إلى إصابتنا جميعاً بأمراض نفسية. ولكن هذه العملية تطوّر لدى الدماغ ميلاً لمسح المعطيات المهمة والإيجابية أيضاً. وبالتالي فالاستراتيجية العقلية المبنية على الابتعاد عن التأثيرات القاتلة ، توصلنا إلى مرحلة يصعب فيها التمسك بالحياة. ولكن بفضل رقاقة مثبتة في الفص الجداري للدماغ ، يمكن التحكم في الذاكرة. والتي ما إن يرتفع معدل بياناتها ، ترتفع سوية المشاعر والسلوكيات والتعبيرات أيضاً..

- هل كنت تعملين مع معصوم جيحي إذا؟

- أجل. ولكنه حرّف المشروع نحو مسار مختلف تماماً. هل تتذكر الحادثة التي وقعت في تشرين الثاني من العام الماضي؟ حين اصطدم قطار في محطة حيدر باشا بإحدى السفن؟

- قطار الكوكا كولا وسفيننة البيبسي. أجل ، سمعت عن ذلك..

- مات في ذلك الحادث سبعة وسبعون شخصاً فقط من أجل حملة إعلانية ، دون أن يبالي معصوم جيحي بالأمر على الإطلاق.
- وكيف يتيح له هذا الأسلوب كسب المال ؟
- معصوم جيحي ليس مهتماً بالمال.
- بم يهتم إذا ؟
- يعتقد بأن الحياة اليومية باتت تتكيف مع الأنماط الإرهابية. وبأنّ المعايير الإنسانية لا تؤخذ بعين الاعتبار في أي من العمليات: السياسية ، الاقتصادية ، الاجتماعية ، التعليمية ، الطبية ، الإعلامية ، الرياضية أو وسائل الاتصال ..
- لم أفهم ..
- إنه يرى بأننا نعيش في عصر يشهد نقلة نوعية في الفن والعلم ، بحيث باتت فيه المشاعر ، المعتقدات والأفكار موضع تساؤل ..
- هممم. حتى الآن يبدو لي محقاً ..
- التسلسل الهرمي الذي يحققه المال بوصفه وسيلة للتبادل ، يسبب خللاً بنيوياً في التواصل والعلاقات الإنسانية بحد ذاتها. تخيل نفسك في جزيرة مهجورة عثرت فيها على مائة مليون ليرة ، ما الذي ستفعله بها ؟
- سأستخدم الأوراق النقدية لإشعال النار ..
- لأنها لا تمتلك سلطة بمفردها. إنها تمتلك دلالتها من نظام السوق فقط.
- صحيح ..
- في عالم تقوم فيه الرأسمالية بتعويم هذه القيم المخادعة ، فهي تُغرق الإنسانية

في الخوف. فقد أخذت العلامات التجارية باغتصاب أهم المفاهيم كالحب والسلام والحرية. وغدت المعرفة ، الفن والمعتقدات مطبوعة بطابع تجاري. وأصبحت سرعة وحجم التعاملات المالية هي المؤشرات الإيجابية الرئيسية للحياة الاجتماعية. وبالتالي بدأت الحياة تتحول إلى حملة دعائية للحياة. ولم يعد الحرب والسلام سوى ظواهر اقتصادية. لذا فإن معصوم جيغي يناهض تحول الإعلان إلى ظاهرة أكثر طبيعية من تبادل التحية. ولست الوحيد الذي يحمل رقاقة في رأسه. فالمسألة تحمل أبعاداً مرعبة أكثر مما يمكن لك تخيله بكثير.

- يحاول إسباغ طابع فلسفي على قرصنته إذأ؟ ولكن ما الذي ينوي فعله؟

- لا أعلم ، ولا أملك سوى بضعة احتمالات..

- أنا أسمعك..

- ما أخشاه أن يقوم بدفع كافة سكان المدينة إلى قتل بعضهم البعض..

- ها؟ نوع من المجزرة الداخلية؟

- إن لم يقيم أحدهم بإيقافه ، سيغرق إسطنبول برمتها في الدماء.

- فقط من أجل متعته؟ إنها سخافة محضة. ومن أين له التمويل المادي لكل

هذا الجنون؟

- لقد أخبرتك أنه لا يهتم للمال ، ولكني لم أقل بأنه لا يكسبه. فهو يوقع عقوداً

سرية مع كبريات الشركات التجارية. وما إن ينتشر خطاب روجي مجرد في التاسع عشر من أيار على اليوتيوب ، حتى يتضخم حساب معصوم جيغي البنكي.

- ولكن ما عدد من سي شاهد روجي مجرد على اليوتيوب؟

- أكثر من مليار شخص..

- أوووووف! ليس إلى هذا الحد..
- سيقوم معصوم جيغي بخلق سيناريو سينمائي مؤثر وإخراجه بطريقة استعراضية..
- وكيف لك الاطلاع على كل هذا؟
- لأنني أعرف معصوم جيغي غاية المعرفة. هل سبق وقرأت جان بودريار؟
- أممم!
- بحسب بودريار فإنّ قدرة أي رسالة على التأثير ، تتناسب طردياً مع طاقة الإرهاب التي تحتويها.
- ولكنني لم أفهم حتى الآن إن كان معصوم جيغي يحاول إنقاذ العالم أم تدميره.
- إنه مجرد مريض نفسي ، يمكنك تسميته يارهابي دعائي.
- ولكنه لا يبدو كشخص خطير!
- المرضى النفسيون متحدثون بارعون ، الساديون حديثهم حلو ، والمجرمون لبقون. وحتى لو كنت أنفر من تصرفات معصوم جيغي ، لكنني كنت منبهرة بذكائه.
- وما مهنة هذا الوغد القيمّ؟
- مهندس معلوماتية.
- كيف لوغد بهذه الوضاعة أن يبلغ هذا القدر من الكمال؟ أتعنين أنه لن يخرج الرقاقة من دماغ روجي مجرد بعد التاسع عشر من أيار؟

- روحي مجرد هو نجم إعلامي خارق. وسيلقي به معصوم كطعم للشركات العملاقة. وسيبرر ذلك بالطبع بما يتوافق مع نزعته الجنونية في الانتقام..

- ومن هم البقية؟ أعني ممن يحملون رقاقات في أدمغتهم؟

- جميع المنتجات الدعائية التي تظهر أثناء تغطية النشرات الإخبارية لأخبار الجرائم، الانتحار، الخطف.. تقف وراءها (باكت). كلها مجرد خدع، على سبيل المثال تم اختطاف (غامزة غاما) من مقهى الستار بوكس، حيث أقدم رجال مقنعون تحت تهديد السلاح على إرغامها بالصعود إلى السيارة واختطافها. ومن ثم تم العثور عليها على مقعد على شاطئ إيجة، مغلولة القدمين واليدين، وقد وضع شريط لاصق على فمها، وعلى المقعد علامة بينتون.

- أما من أحد يشكك في هذه الإعلانات؟

- بالطبع يفعلون. ولكن هذا يصب في مصلحة هذه الشركات، فقد نظمت بينتون لقاءات صحفية أوضحت فيها براءتها، وتعاطفها مع الضحية، كما قامت بزيارة غامزة في فيلتها. وقامت الستار بوكس بوضع اسمها مرفقاً بجانب علامته في ذلك الفرع. لذلك فالصراع مع الإعلانات يزيد من تداولها اليومي، وبالتالي ارتفاع أرباحها..

- وماذا عن شهداء البيسبي، ومن ماتوا في سبيل الكوكا كولا؟

- في تلك الحادثة لم يكن أي من المقتولين يحمل رقاقات. ولكن مديرة المحطة؛ زهرة ظريف أوغلو كانت عشيقة معصوم جيحي. وفي تلك الفترة كانت الكوكا كولا الراعي الرسمي لرحلات القطار والجولات السياحية في البوسفور، وقد استثمرت الأرباح في ترميم المحطة. قام معصوم جيحي برشوة العمال الذين يرممون الأرضيات الخزفية، من أجل حفر نفق يمتد من نهاية القضبان الحديدية، إلى رصيف الميناء، وملئه بالجص، أي أنها كانت عملية تخريب متعمدة لقطار الكوكا كولا. كان من المفترض أن يلتقي ركاب سفينة البيسبي وركاب قطار الكوكا كولا في الميناء ليتباروا في نوع من التحدي، وقد رافق بعض

نجوم الغناء كلا الطرفين. فيما ملأ مراسلو المحطات التلفزيونية المكان بين المحطة والميناء من أجل نقل الحدث على الهواء مباشرة. بعد الحادثة أدركت زهرة ظريف أوغلو التي كانت تكنّ مشاعر حب صافية لمعصوم جيغي أنها وقعت ضحية خديعة. وبعد مضي شهر انتحرت بالقفز من فوق مبنى المحطة.

- إذاً، فقد كانت زهرة ظريف أوغلو تحب معصوم جيغي؟ وكيف لك أن تعرفي

ذلك؟

- أنا أيضاً كنت مغرمة به. كل الفتيات اللواتي يعرفنه، يقعن في حبه.

الحب ؛ ليس حكرًا

على الثنائيات المتوافقة

«التوائم السيامية ، تعوم متفرقة في أحلامها».

(جيا جوي ، 777-844 ، أغاني على سبيل المزاح)

أنا وفوجير على ساحل موزا في ليلة (بوم فايت) والمكان يعجّ بأشخاص إما على هيئة قتلة أو جثث. وحتى لو نثرت الملح فلن يصل الأرض. تحت الخوذة التي تغطي رأسي ، ربطت وشاحا حول فمي. فليس من المستغرب أن يغطي مشاهدو المباريات وجوههم ، ذلك أنّ السادة المحترمين لا يريدون أن تلتقطهم عدسات الكاميرات وهم يحضرون مباريات غير قانونية ويраهنون عليها مقامرين..

كان ضبع الجيف بدري دوبارا أيضاً هناك ، يهمس بتعليماته في آذان البؤساء المشاركين في المباريات. وبالطبع كان محبو منظر الدماء المنسابة - ممن يعتبرون أناساً عاديين - متراصين صفوفاً عند الشاحنة ذاتها للمراهنة.

في وسط الجموع سمعت أحدهم يقول:

- لقد كان كولومبو الأفضل ، ومن الخسارة أنه لقي حتفه..

فيما كان صديقه يوميء برأسه موافقا:

- تماماً. كان مجرد صعلوك نحيل ، ولكنه في المباريات ينقلب إلى بروس لي.

فليغفر الله ذنوبه..

- آمين .. - دمدم الآخر.

كانت فوجير تتأبط ذراعي ، وقد التقى المقاتلان البائسا المظهر ، وسط حلقة المشاهدين. كانت قذارتهم الفاضحة تطغى على كل ما حولها. وفيما أطلنطا ترعى بلامبالاة تحت أحد الأعمدة ، كانت نظراتي تبحث عن فينيما ، فقد كان من عادتها أن تنبثق في المكان فجأة عند الحادية عشرة من كل ليلة.

كيف تمكنت من النجاة في هذه الأماكن طوال هذه السنوات ؟

بدأت المباراة ، وعلى وقع الهتافات اقتلعت الأسنان ، وكسرت الأنوف ، وتفجرت

الدماء ..

عدت لأصيح السمع إلى حديث الصعلوكين:

- لقد استولت الفئران على مكاننا ..

- قل القوادون ..

وأثناء ذلك أمسكتُ معصم يد كانت تحاول التسلسل خفية إلى حقيبة فوجير ، كان صاحبها سكيراً أشعث الشعر ، شخصاً بترت كل آماله ، وبدا وكأنه في لحظة سحيفة من الماضي قد توصل أحدهم ، فظلت ملامحه متحجرة على ذلك الانطباع. أصدر صوتاً أشبه بالأنين ، فوضعت في راحته مائة ليرة ، وطلبت منه الابتعاد.

على وجه الطبيبة الشابة ، كانت ترسم ملامح إعجاب ، وابتسامة تقدير واضحة. يبدو أنّ الكرم ، هو أكثر الأمور التي يقوم بها الرجل إثارة. وفيما القتال يستمر ، غادرنا الساحل على متن قارب ، وبدا القمر وكأنه لُون بضربات فرشاة ، فيما النجوم بدت كحبات كريستال تزين ثريا عملاقة. أشعلنا سيجارتين ، وأرسلنا سحابتي الدخان نحو البدر. حتى لو لم تشرق الشمس غدا ، فهذا البدر سيتدبر الأمور على خير ما يرام. مع رقاقة في رأسي ، وأنثى طاغية الإثارة إلى جواري ، ومسدس معلق إلى خصري ، كان من الصعب علي التخمين أيّ

منهم سيفتح عليّ أبواب بلاء أكثر فداحة من الآخر.

- هل أنت متأكد من أنك ستعثر على الحب بقتل الرجل الذي تحبه المرأة التي

تحبها؟

- لا يمكن لسربيل وبدري دوبارا أن يشكّلا ثنائياً. لا بدّ أنّ القدر في لحظة تماس

خاطئة لخطوطه ، جمع أقدارهما لبرهة ، قد يبدو لك أمراً غير معقول ولكنه المبرر الوحيد.

كما أنّني كنت أنوي تصفية حسابي القديم مع بدري دوبارا.

- لماذا؟

بعد أن رفعت قميصي من الأسفل وأنا أريها ندبة السكين ، أشرت إلى الحلبة

قائلاً:

- هناك بالضبط ، قام بطعني.

- لو لم تره برفقة سربيل ، هل كنت ستقتله؟

- ما الذي تريدين الوصول إليه؟

- الحب ، ليس حكراً على الثنائيات المتوافقة. وهذا هو السبب الذي يجعله

يبادل مواقعه مع الكراهية بكل سهولة..

- أنا لم أقع في حب دوبارا قط - علّقت - كما أنك لست مضطرة إلى التورّط في

الأمر.

أدارت وجهها نحو القمر ، ووجهت حديثها نحو رأس الشمعة التي تسبح في

السماء:

- شراكة الذنوب ، هي الأمر الوحيد الذي استمتع بتقاسمه مع الآخرين.

دماء على لوحة العائلة السعيدة

«إن لم تتمكن من مشاهدة الطلقة

المتجهة نحوك مباشرة ، ستبقى قليل

الشان ، فأنت لم تشاهد الكثير من الأمور».

(ليون ليبي ، 1919-1991 ، خمس دقائق

في بروكلين ، المجلد الرابع)

لو لم يسبقني أحدهم إلى مقولة «وضع مصايد الفئران في قعر البحر» لقمتم بإيجادها. بدأنا نتعقب شاحنة الفوردي (إف 100) موديل العام 1979 ، بالصوبارو ، وكانت فوجير وراء المقود ، وقد تركنا البورثش في المرآب.

وقفنا إلى يمين الشاحنة ، أمام إشارة المرور ، وقد كان بدري دوبارا يحتسي الجعة وراء المقود. كان الزيادة الوحيدة في التعداد السكاني لكادي كوي. ومن شاحنته وصلنا أنغام أغنية (تغلب على وشم الشيطان) ل. (بلاك ريبيل متورسيكل كلوب) ، وحين أدار رأسه ورأى فوجير ، بدأ يتمعن بها بتركيز الثمل. أوماً برأسه الذي بدا وكأن الطحالب تغطيه ، ورفع زجاجة البيرة. وحين أضيئت الإشارة الخضراء ، وارتفع زemor السيارة من خلفه ، عاد ليتابع طريقه. دخل في أحد الشوارع الجانبية ل. (كوشيلو) فتوقفنا في مدخل الشارع لمراقبته. وحين أضيئت مصابيح التوقف في الشحنة ، أكملنا الطريق بحثاً عن مكان لركن السيارة ، وترجلنا. كانت الفوردي في حديقة منزل مؤلف من طابقين ، تحت ظلال أشجار إجاص مهلهلة. وبدا وكأن الأشجار معدنية ، فيما الفوردي هي الخشبية. ورغم ذلك فقد كانت

تماثل صاحبها في الشبه بخنزير.

الستارة الشفيفة على النافذة كانت تسمح لنا برؤية الداخل. فتحنا باب الحديقة بهدوء وتسللنا، واختبأنا بين أشجار الإحاص. كان هناك آخرون في الصالة، فيما امرأة تسكب الطعام من القدر على المائدة، في الصحون الموضوعة عليها. جاءت فتاة ترتدي زي المدرسة الثانوية، وغلام في الحادية أو الثانية عشرة من العمر للجلوس إلى المائدة. لم يكن المشهد يختلف عن عرض مسرحي تم التحضير له مسبقاً.

- هل دوبارا متزوج؟ - سألت.

- هذا ما يبدو عليه. - أجابت فوجير.

كانت الجريمة ترخي بظلالها على لوحة العائلة السعيدة، وكان بدري دوبارا أكثر قدرة على التملص من سمكة يابانية تغطيها رغوة كثيفة، ولكنه بالمقابل ليس سوى داعر مكروور يخون زوجته مع سربيل سيلاحلي بيرى، التي ستركله وتعود إليّ راکضة حين تنكشف الأعيبه.

- ما الذي يتسمونه يا ترى؟

- شيء شبيه بالسبانخ..

- ومع تناولهم الطعام بدأت اشعر بأنني جائع: - أليس من الغريب أن يجلسوا إلى مائدة الطعام في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

- كم الساعة؟

- الثانية.

- هذا سبب بدانتهم..

- هذا الكلام ينطبق على دوبارا ، وليس على ثلة المهزولين الثلاثة..

وفيما كنتا نتبادل الهمس ، نهض بدري دوبارا عن المائدة بعنف ، ليقبلها رأساً على عقب ، فيما هربت الأم مع أبنائها. توجه النذل إلى غرفة النوم وأشعل الأضواء ، فيما المرأة تترجاه. ولكنه أخرج عصا البيسبول من الخزانة واتجه نحوها ، وبدأ يضربها بعنف ، والمسكينة تغطي رأسها بيديها. دخل الطفلان الغرفة ، فرمى دوبارا الفتاة بالعصا ، وبدأ ينهال باللكمات والركلات على جسد المرأة ، فيما الطفلان يبكيان .

انتابنا شعور مرّوع ، ولم نحاول الاختباء أكثر. ولكن صرخات الطفلين واستغاثات الأم ، وشتائم دوبارا كانت تطغى على كل صوت آخر.

حين سحبت المسدس من خصري ، كانت فوجير أيضاً قد لقمتم المسدس . بينما يواصل دوبارا ركل المرأة المتكورة على الأرض .

كنت أظن هذه اللوحة المروعة خاصة بطفولتي وحدها ، لكنني كنت مخطئاً.

أثناء توجهننا نحو باب المنزل ، كان آخر مشهد رأيته من النافذة ، هو براثن دوبارا الملتفة حول عنق ابنته ، وهو يلوح بها. تخطينا العتبة ودخلنا من الباب الذي كان مواربا ، فكان الداخل مروعاً بما لا يقاس مع الخارج ، حيث صرخات الرعب ، والبكاء والأنين وأصوات تنفس مخنوق. في حين أنّ أصوات الركلات والارتطام بالأرض والجدران توقظ ألبماً بكم..

تجاوزنا الصالة التي بدت كهيروشيما بالطاولة المقلوّبة ، وبقايا الطعام والصحون المتناثرة في كل مكان نحو غرفة النوم. حين رأنا الولد أخذ يحدق فينا برعب ودهشة ، فيما أمه ملقاة على الأرض. أما بدري دوبارا ، الذي كان يدير ظهره لنا ، فقد ألصق الفتاة بالجدار وهو يخنقها.

- بدري دوبارا - كان صوتي من الارتفاع بحيث ارتجّت أذناي من وقعه.

التفت فجأة ، وقد بدا عليه التعب نتيجة عملية التعذيب التي يمارسها على أفراد عائلته ، حتى أنه كان يلهث ، وقد تجعد وجهه الأشبه برأس يقطينة. نطق آخر كلماته:

- كولومبو؟! -

في اللحظة ذاتها وجهنا أنا وفوجير المسدسين نحوه ، وبدأنا بإطلاق النار. كانت أصوات الرصاصات المنهمرة أكثر نعومة من لحن أغنية أطفال هادئة على البيانو. فتحنا نفقاً واضح المعالم في بدنه الشحيم ، الذي انهار على الأرض وقد بدا كجثة فرس نهر خرجت للتو من الماء.

نهضت المرأة التي كانت ملتصقة بدمائها بسطح الأرض ، مستندة على يديها في تعبير برم على وجهها. فيما ضربات قلوب كل من في الغرفة كانت تعلو في ضجيج واضح. الآن فقط أصبحوا عائلة حقيقية. وقد كانت أضواء الثريا المعلقة على السقف تسقط علينا متراقصة في انعكاسات قوس قزحية. تمنيت حينها أن يلتقط أحدهم صورة لنا.

كان وجه سربيل سيلاحي بيدي غائماً جزئياً ، تنهمر أمطاره بين الفينة والأخرى ، وقد تعرفت على زوجة بدري دوبارا وطفليه في الجنازة. وهي تتجرع كوكتيلاً من لوعة الخيانة والفراق والموت. ورغم حنفي عليها ، لكن ذلك لم يكن لينقص من حبي لها ، كما أنني تجنبت اطلاعها على قيامي بقتل دوبارا بيدي الاثنتين. يبدو أنها قد اكتشفت جانباً مشرقاً من دوبارا ، الذي لم أجد فيه ذرة إنسانية واحدة. الحقائق المريرة تبدو أحياناً تافهة أيضاً.

بعد دفن دوبارا ، قمت بإيصال سربيل إلى منزل عائلتها في (كيزيل توبراك) ، وقد شعرت بأنّ السنوات قد غيرت حبيتي بطريقة بالغة الغرابة. أكانت قصة حبنا الأسطورية ، مجرد حدث عابر كحقبلة الخزامى⁴⁵ بالنسبة إليها؟ كان الحب يتقدم في مفارقة واضحة مع الرومانسية ، فمن المحال أن يقدم اثنان على حب بعضهما بالقدر ذاته. وبذلك لا

يتمّ تقاسم المتع والمآسي بمساواة في الحب ، لذا فهو ليس عادلاً ، ولا يمكن له حتى التطرق إلى الديمقراطية والحرية. والأدهى أنه بعيد كل البعد عن الثبات والديمومة. ويمكن أن تنال أعنف ركلة في حياتك من اليد التي تحنو عليها وتلثمها. لقد سقطت ضحية سوء تفاهم عميق ، فتلك السنوات السبع وسط التشرذم والسفالة ، لم يكن لها من مقابل في الحياة الواقعية. لقد تسلسل الحب من القصائد والرسائل والسيرنادات إلى العقود والفواتير والمدفوعات ، ولم يبق منه سوى مجرد الدعاية.

ربما هذا ما دفع معصوم جيغي إلى حافة الجنون ، فالحب ليس سوى بروتوكول للخيانة ، غارق في حوض مليء بالكاذيب. فدون خداع نفسك وشريكك لن تقدم على التحرك خطوة واحدة. وفي الوقت الذي أهدرت شبابي في سبيل الحب ، كان معصوم جيغي ، وبسبب فقدان الحب ، يحاول أن يهدر حياة كل من حوله بمن فيهم أنا.

هناك حلقة مفقودة في حياتي أغلب الظن ، وجانب خفي من شخصيتي لم أتمكن أبداً من التعرف إليه. فأني عمق يمكن لجراح شخص ضحل مثلي أن تبلغه؟ أعني انظروا بالله عليكم! فالأفكار السلبية حول أكثر شخص أحبته في حياتي ، تدفع بي نحو التعاطف مع ألد أعدائي.

الأكاذيب الوردية التي يصدقها كل الناس

كنا نتابع احتفالات التاسع عشر من أيار في غرفة المدرّسين لمدرسة (الرأس المقطوع) التي تبث على الهواء مباشرة ، حين تمت دعوة روعي مجرد إلى المنصة .

كانت الكلمات التي يليها أمام الشاشات ، تخرج من فمي أيضاً في الوقت ذاته ، عاجزا عن إطباق فمي ، وبدأت الكلمات تتدفق كسيل من الدماء ، أمام عجزني عن إطباق فمي :

- نحن لم نشاهد الحرب على الـ CNN.. فلم نكن نملك شاشات فيليبس LCD.. ولم نحارب من خلال أجهزة التحكم عن بعد.. وفي الخنادق وبعد توقف الانفجارات لم نكن نتناول أسماك (داردنيل تون) المعلبة ونتجرع لبن (سوتاش) المعبب ومن ثم نشعل مستمتعين سيجارة مالبورو.. لم أتمكن من ارتشاف قهوة ما بعد التعب (جاكوبس غولد) إلا بعد مرور سبعين سنة على نشوب الحرب. وما أراه أنكم على طرقات ألعاب القوى المرصوفة ، تتقدمون بأقصى سرعة بأحذية (الأديداس) ، فيما كنا نسطو على أحذية المطاط السوداء في أقدام الشهداء.. ذلك أنه ومع انطلاق وابل الرصاص لم يكن سيرك حافياً بالأمر السار إطلاقاً [...] ستجدون أكبر عزاء لكم في الشاشة الذكية لهواتفكم (الآيفون) ، القدرة التي تحتاجونها ، موجودة في مواقع الشراء على شبكة الإنترنت.. وصيتي للشابات ؛ لا بديل لكن عن (الجادور) ، أما نصيحتي للشبان ؛ تعقبوا أثر (الجادور) ..

ما معنى ذلك ؟ هل الإشارات المرسلة إلى دماغ روعي مجرد والتي تصلني أيضاً مجرد خطأ ؟

ومع الأمطار المنههرة على أرض الملعب في أنقرة ، بدأت حوامة أيضاً بالهبوط ،

وعلى عكس الأمطار التي تلامس الأرض ، ظلت معلقة في الهواء. ظهر من داخل الحوامة فريق من المسلحين المقنعين ، وبدأوا يوجهون نيران رشاشاتهم الأتوماتيكية نحو روحي مجرد. سقط آخر المحاربين من المنصة التي تحولت إلى حطام ، على المرح المعشب. ملأت صدري صرخة رعب هائلة ، لكنها صوتي أبي أن يخرج. وكما في أحد الكوابيس ، رددنا أنا وروحي مجرد الذي ينازع الموت ، بصوت واحد:

- حين تخطّ أقدارك لا يمكنك استخدام الجداول ، ولكن يمكنك استخدام ال.(بي إم دبليو)..

كانت دموعي تترك على إسفلي خدودي ، آثار عجلات محترقة:

- فلتحي ال.(بي إم دبليو)..

كانت نظرات المدرّسين في الغرفة تنتقل بيني وبين الشاشة ، وقد بدوا أكثر بلاهة من أي وقت مضى ، وأظني كنت مثلهم.

هربت إلى الخارج ، وبينما سرت مترنحاً نحو سيارتي ، كنت أفكر فيما يتوجب عليّ فعله. كنت أفزع عبر دوائر العبث المتداخلة كدوائر الأولمبياد ، فيما دموعي تنهمر لزجة ، كأمطار صمغية. انقلب العالم رأساً على عقب ، وبدأت أسقط نحو السماء. رنّ الهاتف ، كانت فوجير:

- جيفان ، روحي مجرد لم يميت.

- لقد أطلقوا عليه النار ، أحالوا جسد بطل بلغ المائة ، إلى جثة تفوح منها ننانة الإعلانات..

- اسمعني جيداً ، إن لم يتم وضع حدّ لهذه المسألة ، فسأندخل أنا لحل مشكلة روحي مجرد. هل تفهمني؟

كنت أنتحب:

- فوجير.. أنا غير قادر على فهم أي شيء..

احتدت:

- السيد روجي لا يزال حياً. ما الذي لا يمكنك فهمه في هذه الجملة؟ وتوقف عن البكاء دون سبب، هذا لا يليق بك..

- لا يزال حياً؟ كيف لك أن تعرفي؟ - كنت قد بلغت السيارة، وخارت كل قواي، واستندت بيدي على نافذتها حتى لا أنهار على الأرض..

- أكرر ما قلت، سأحل المشكلة.

كانت تخبرني بأنها ستخرج الرقاقة من رأس روجي مجرد بواسطة عملية جراحية، ولكنها لم تكن ترغب أثناء حديثها عبر الهاتف أن تستخدم كلمات الرقاقة، العملية، الدماغ.. ولأنني عديم الدماغ، فقد غاب عن بالي أنني أتحدث مع اختصاصية جراحة عصبية. سألتها نائحاً:

- هل تقسمين ببطاقة أمريكيان إكسبريس الائتمانية؟

أغلقت الهاتف:

- تيت!

احذر شر التعساء

«إن كنت راغباً في قبول أدعيتك ،

فلتدعُ من أجل الآخرين».

(أوكيللو أوكيللي)

كانت فوجير محقة ، فرغم أنّ سبع عشرة رصاصة قد استقرت في جسد روحي مجرد ، لكنه بُشّر بالنجاة..

بعد إجراء عمليتين في أنقرة ، تمّ نقل روحي مجرد بطائرة تعود لوزارة الدفاع إلى إسطنبول. وبدأ علاجه في المشفى العسكري. كل هذه الأحداث كانت تدل على أنّ الدماغ الذي يقف وراء (باكت) ذو قدرات خارقة.

كنت أزور روحي مجرد كل يوم أثناء مكوثه في المشفى. ظل يرقد نائماً كالأطفال في الأيام الأولى ، فكان من الصعب عليّ التخيل بأنه كان طفلاً صغيراً فيما مضى ، لقد خلق ليكون رجلاً عجوزاً. ورغم معرفتي بعدم وجود إصابات تحت الضمادات التي تغطي ساقيه وجذعه ، فإنّ منظرها كان يسبب لي الضيق.

يومها بقيت إلى جواره أكثر من ساعة ، وفي لحظة شرود راعني صوته:

- أما زلت هنا؟

- أجل سيدي ، أنا معك.

سحب نفساً عميقاً ، وأكمل بصوتٍ متأوه: - لست أخاطبك ، بل أخاطب نفسي يا

بني. في كل مرة أظنني سأفتح عيني في العالم الآخر ، ولكنها الحياة..

- أتريد ماءً؟ ستنعشك مياه (الحياة) المعبأة في عبوات زجاجية.

- برأيي أفضل أنواع مياه الشرب هي (إريكلي). فحتى لساني المطاطي هذا يستطيع أن يميز مذاقها المنعش..

ساعدته على النهوض قليلاً من أجل شرب رشقات قليلة من الكاس التي ملأتها من إبريق الماء الموضوع على الطاولة ، وكأننا لم نتطرق نهائياً إلى ماركات الماء.

- الحمد لله - وأعاد إليّ الكأس - أتعلم يا جيفان ، أحياناً أسمع نفسي أردد كلمات لا تحمل لي أي معنى ، وهذا ما يغرقني في الأسى..

وكيف لي ألا أعلم؟

- برأيي أنت تتحدث بطريقة بالغة الانسجام..

- لا.. أكثر ما أخشاه ألا أتمكن من نطق الشهادة قبل أن ألفظ أنفاسي..

- لا تقلق ، فملفات أرشيف العالم الآخر ، تتضمن بكل تأكيد أدلة على قوة إيمانك وعقيدتك..

- إن شاء الله..

- كما أنّ المهم ما تقوله في الظروف العادية ، وليس على فراش الموت..

- من قال ذلك؟

- عوني واو..

- إنه يبيض طائراً.. - قالها واستسلم للنوم مرة أخرى..

تحدثت مع طبيب روحي مجرد على انفراد ، وبعد أن شرح لي سلسلة من الأكاذيب المتوافقة مع الحادثة المزيفة ، اقترب ليهمس في أذني:

- سنزيل الشريحة من الفص الدماغي أيضاً..

لقد بتت متأكدا أن هذا العالم يسير على وقع الأكاذيب التي يرددها الحمقى.

حين مغادرتي المشفى وعلى باب المصعد نزولاً ، التقيت بعوني واو ، فتبادلنا النظرات لعدة ثوان. اقترب مني وهمس وكأنه يبوح بسر:

- كل ما نتلفظه من كلمات فهو إما دعاء أو لعنة..

- في هذه الحال هل نلتمس الطيبة أم الهرب من الشرور؟

- الأولى بنا الحذر من شرور التعساء. - ودخل المصعد وهو يكبس على زر الصعود. في تلك اللحظة بالذات توجه سرير نقال يحمل جريحاً غارقاً بدمائه نحو غرفة الطوارئ وهو يتضرع:

- إلهي.. ساعدني.. لا أريد أن أموت!

قبل أن تلقى حتفك هاوياً إلى القعر ،

حاول الاستمتاع بالمنظر

«إن كان كل شيء على ما يرام ، فهذا يشير

إلى أنكم لا تسيرون بالسرعة المطلوبة».

(ماريو أندريتي)

غدا المحارب الشهير - الذي تمكن من النجاة من الحروب ، حوادث الطيران والاعتداءات المسلحة - حديث العالم برمته.

حتى باراك أوباما رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كان يتحدث عن روعي مجرد. وكنتُ السبب في كل هذا الاستعراض الخارق.

لم يكن روعي مجرد يمثل لمعصوم جيغي ، بأكثر مما يمثله الجنود البلاستيك بالنسبة لأوزان. كان قتلة (باكت) المأجورون يتبادلون التميريات مع الأطباء الدجالين ، ويصممون الأكاذيب الوردية التي تمنح الأمل لكافة الإنسانية. كانت محفزات ملائمة لسكينة العالم الوجودية.

ولكن بعد مضي ثمانية أيام ، تغير كل شيء مجدداً..

ففيما نعود بالسيارة إلى المنزل ، كانت الأسئلة تهيم في رأسي كجماهير هائجة في أحد الملاعب ؛ هل حقاً سيقتلعون ظلف الشيطان من دماغ آخر المحاربين ؟ هل سنتمكن أنا وسربيل سيلاحلي بييري من إحياء سعادتنا كما في الأيام الخوالي ؟ هل سأمارس أبوتي مع

صحارى؟ وماذا إن قام معصوم جيحي بقتلنا جميعاً؟ وبفضل شاشة الديجتال التي يعرضها ذهني، اتجهت أهدافي نحو صورة معصوم جيحي، ففي حساء الإرهاب كان لي حصة من الملح المذرور..

من مذياع الصوبارو كانت تنساب أغنية غزال شكري (أغنية الدرويش الأحمر).
كنت حزيناً..

حين وصلت فتحت سربيل لي الباب، واستطاعت أن تمسك بتلابيب قلبي، لتفك عقد الأحزان فيه. كان وجودها يُكسب وجودي تأكيداً.

كنا نتظاهر بأننا متزوجان. خلعت بدلة الرياضة الخاصة بالمدرسة، وارتديت بيجامة منزلية. وبعد خمس دقائق كنت وسربيل نشرب الشاي على الشرفة. وعلى الطاولة وضعت بسكويت (أولكير ديدو) أو ربما (إتي هوشيش)، أو ووف إنها (نستله كرونش)..

أوزان وصحارى في الحديقة الخلفية يراقبون السحالي والحشرات المختبئة بين الأعشاب، ويقطفون وريقات الأزهار.

- متى ستعود نازلي هلال؟ - سألت سربيل.

- في السابعة.

وضعت رأسها على كتفي، لتستقر كل أحجار الكون في مواضعها، وتنهت بصمت. دونها كنت لا شيء، ولا يمكنني إحلال شخص آخر مكانها. قدري، وجودي وذاتي كلها كانت رهن إشارتها.

مسدت شعرها بحنو.

لم تكن تعلم أن بدري دوبارا لا يقل عن تيمور تومور قذارة، ولكن لا بأس.

الموت يجمعنا حيناً ، ويفرقنا أحياناً أخرى ، وكأنّ أقدارنا كانت عبارة عن مصفوفة (نسخ - لصق) من مجموعة صفحات قدرية.. وكأنّ أقدارنا مجرد انتحال ، فلا صلة بين الأسباب والنتائج. وفي الأفق كانت أعلام الموت تعلو رويداً رويداً ، فيما حبنا مجرد استراحة محارب.

كانت سلطنة قلبي الوحيدة ، ولم يكن لي من سبيل إلى حياة أخرى لا يرتبط فيها مصيري بمصيرها. فرضاها وجفاها ، كلاهما حلوا. والسبيل إلى مواصلة العيش هو هذا التناقض الجنوني. لقد قال روجي مجرد مرة «الجنة حيث المكان الطبيعي للإنسان ، هي موطنه الأصلي».. وبالقرب من سربيل كنت أشعر بأنني في مكاني الطبيعي.

حمدا لله! فقد نجوت في اللحظة الأخيرة التي تلقيت فيها ضربة قاصمة من الموت. واستطاعت حبيبتي أن تحيا بعد أن فارقت الحياة تحت الأنقاض ، وابنتي التي لم تُخلق ، ها هي تبلغ السادسة ، وتم اختياري لأكون السبب في إنقاذ حياة ابن أخي الذي كان بحاجة لنقي عظام للتماثل للشفاء. لقد تعرفت على روجي مجرد وربحت الجائزة الكبرى. هل يمكن لشخص واحد أن يحوز كل هذه الحظوظ؟ بالطبع لا يملك أحد فرصة اتخاذ القمة مسكناً. كنت فقط أحاول الاستمتاع بالمنظر قبل أن أهوي إلى القعر. أظن أنّ سعادتني ، مثل علب الهدايا التي يفتحها الآخرون. لم أكن سوى وسيلة لإسعاد سربيل ، صحارى ، نازلي هلال ، أوزان ، روجي مجرد وبالطبع معصوم جيحي.. فوجير فوجي؟ لم أتمكن من مساعدتها ، على العكس هي من كانت تهبّ لمساعدتي على الدوام..

- البارحة مساء وقع زلزال - قلت - ما الذي كنت تريدين قوله لي؟

- عفواً حبيبي؟

- كنا نتحدث على الهاتف ، وآخر ما قلته لي: "اسمع ما سأقوله لك.. وانقطعت المكالمة ، وظل الفضول ينتابني لسنوات طويلة ، لمعرفة ما كنت تودين قوله لي.

- هاااا؟ حسناً ، كنت أودّ أن أطلب منك أن نذهب لمشاهدة (أشخاص

جميلون) لياسمين ديزدار.

لو أنني سمعت تلك الجملة ، فمن المؤكد أنني كنت سأذهب لمشاهدة (أشخاص جميلون) ، حينها ربما كانت لمحة مواساة ستنجي روعي من الانسحاق ، لتجري الأمور في منحنى مغاير تماماً..

في كل مرة أحاول التفكير فيها ، يزيد اختلاط الأفكار في ذهني.

وسام الشرف على صدر الخائن

كانت صورة روعي مجرد المنشورة على غلاف التايم ، تظهره بالغ الوسامة. وفي الفترة التي رقد فيها في المشفى تحت رقابة الـ (باكت) ، تم إخراج خردة الإعلانات أيضاً من رأسه ، وقد أوضح لي معصوم جيحي البارحة خلال محادثة هاتفية ، بأنني أيضاً حرّ في اختيار الوقت من أجل «إنهاء مدة البرنامج»..

حين وصلت منزل يلدغيرمان ، فتح لي السيد روعي بنفسه الباب ، فيما اختفت فيغان ، وهذا بالطبع خبر جيد.

- لقد تصدرت صورتك غلاف التايم. - قلتها وأنا ألوح بالمجلة في يدي.

لم يرقه الأمر: - المبالغات الخاطئة ، تقلل من شأن الإنسان - ومدّ نحوي علبة العلكة - هل ترغب في الفيفيدينت ؟

إذاً ، لا يزال تحت وطأة الدعاية.

- ماذا؟!!

- على رسلك أيها الشاب ، هل أنت تائب عن العلكة ؟ ولكن لا تنسَ أنّ مكانة التائب تنبع من خطورة الآثام التي ارتكبتها سابقاً..

لكنني بدأت بطرح الأسئلة عليه من أجل التأكد ، فالرسائل الدعائية تتضح أكثر ما يمكن في الجمل الجوابية.

- عفواً.. أمهم.. ما الذي يمكنني فعله من أجلك ؟

- ما الذي تعنيه ؟

- اطلب مني شيئاً ، أي شيء .

كان يتكلم بمزاج رائق: - وأنا - متمدداً على أريكة الـ (إيكيا) أمام تلفازي (السوني) ، مرتدياً روب (بيير كاردين) ومنتعلاً خفيّ (تويجي) - ما الذي يمكنني أن أطلبه ؟ .. ها ؟ ربما عصير اليوسفي من (شوييس) ومن ثم قد نلعب جولة مصارعة الذراعين ..

كانت الرقاقة في مكانها:

- حس .. حس .. حسناً .. يبدو أنك شفيت سريعاً بعد العملية ...

- الحمد لله .. الأدوية تعمل جيداً ..

هذه المحادثة التي تتواصل بجهل تبدو عادية ، كانت تحمل ثقلاً سيزيفياً بالنسبة

لي .

- يبدو أنني لم أعتن بك كما يجب ، هل يمكنك أن تسامحني ؟

- وقد بدأت أعضّ على شفتي المرتعشتين ..

أجاب بصوت يملأه الحنان: - أيها الولد الطيب . لقد تحملت تبرمي في أيامي الأخيرة ، وتحملت سوء مزاجي ، وارتضيت مرافقة عجوز عنيد مثلي .. - وبعد أن أنهى كلامه ، قام بنزع وسام الاستقلال المثبت على صدر معطفه العسكري ، وعلقه على أذن إيميليانو زاباتا المرسوم على صدر بيجامتي ، ووضع يده على كتفي:

- هذه الوسام أصبح لك من الآن فصاعداً .

كانت الصدمة كفيلة بمسح كل أفكاره فجأة: - هل أنت جاد سيدي ؟

- بالرغم من قيمتها المعنوية الكبيرة لدي ، فليس بإمكانني أخذها إلى العالم

الآخر معي..

احتضنته ببطء ، حذراً من إلحاق الضرر بجسده الهش ، وحين ردّ باحتضاني بقوة
أدهشتني ، انهمرت الدموع من عيني..

كان عليّ التصرف بأقصى سرعة. فلم أكن جديراً حتى بتوجيه الشكر لروحي
مجرد ، فيما الوسام يرتج على وقع ضربات قلبي. وبالكاد تمكنت من القول:

- هناك أمر يتوجب عليّ حلّه ، وسأعود بعدها.

لو لم يسبقني أحد إلى مقولة «الأعمال العظيمة التي تجعل منك بطلاً، هي
الخوض في حروب سهلة تستطيع الانتصار فيها» لقيمت بإيجادها.

وحاولت الابتعاد هرباً من المكافأة المعلقة على صدري ، والتي لن أستحقها أبداً..

بينوكيو شاهد جيبيتو 46

«لقد تخليت عن الجبن فنجوت من

المصيدة.. آه يا رغبتي الوحيدة».

(مارش الفئران الفرنسي)

الدرع السميكة لن تحميك من نفسك. وأكبر النوازل والهموم ، تنبع من أخطائك التي لا تتقبلها.

قذفت بي رياح الغضب إلى (مشروعية كويو) ، وأنا أتقدم في ممرات الـ (باكت) بخطى شديدة الوقع. بدا وكأنّ الشيطان قد حطم الأرقام القياسية لإبداعه هنا ، وترك توقيعه الشخصي يزيّن المكان. تناول الموظفون العاملون وقوفا على شاشات الفيديو في الحجرات المتجاورة ، برؤوسهم لمشاهدتي. وحين اقتحمتُ غرفته ، نهض معصوم جيغي من على كرسيه. كان وحيدا ، دن أن يرفّ له جفن. وبالنظر إلى الابتسامة المواربة على وجهه ، فلا يبدو أنه يخاف على الإطلاق. كان الوحش المنشرح الذي يعيش في بذخ بالغ ، يحاول السخرية مني.

- سأصنع من جلدك حقيبة أملؤها بالخراء.. - ولكمت الطاولة.

ارتعش المسخ ، واعترض في نبرة صوت وكأنه يقلّد شخصاً آخر:

- هيببيبيبي! أنا لم أفعل شيئا..

- إلى متى تنوي استعمار الرمز الوحيد الباقي من حرب استقلالنا؟ ولكنك

ستدفع ثمن هذا الخيانة. وسيكون الثمن أقسى مما تتصور. - هذه التهديدات التي نطقتها بنبرة صوت عبد الرحمن بالاي ، جعلتني أشعر بجونيت أركان يتسلق أذني.

- اهدأ سيد جيفان. كلها كانت مجرد خديعة ، ألم تفهم؟ لقد حشونا بدلة روحي مجرد بأكياس "دماء مزيفة" والأسلحة التي حملها فريق الحوامة كانت مجرد ألعاب لا أكثر. كان خطابه الاحتفالي حملة دعائية لا ضرر وضرار من ورائها ، لقد رأيت أنها أتت ثمارها..

- معك حق ، أرجو أن تغفر لي وقاحتي. فأنت داهية سيد معصوم ، وقدوتي. فقبل أن أنام كل ليلة ، أشرب كأساً من حليب (بنار) ، وأنظف أسناني بمعجون (كولغيت) ، وأدعو الله أن يحفظك. أنا مدين لك بحياتي ، فأنت المخلص والحامي وولي نعمتنا. وقد تحول روحي مجرد بفضلك إلى شخص نافع. أرجو أن تسمح لي بتقيل يدك المباركة.

جلست على الأريكة ، وتشبثت بالمساند مرتاعاً من التنافر بين ما يجول في ذهني ، وما ينساب على لساني ، الذي أصبح كمرحاض أحد السجون خارجاً عن نطاق السيطرة. ومجرد فكرة تقبيل معصوم جيحي كانت تثير غثياني. لقد أتيت إلى هنا لتهديده ، وإرغامه على إخراج الرقاقات من رأسينا أنا وروحي مجرد. ولكن للأسف لم أكن سوى شخصية كرتونية ، لا تستطيع سوى التلطف بما يودّ معصوم جيحي سماعه وإسماعه ، حسب ما تتيحه لي الحظوظ في نصوص الدوبلاج.

وأدركت حينها أنني لست سوى دمية في مجموعة معصوم جيحي. مجرد كاذب آخر في طاقمه. فمن المحال أن يدلي بينوكيو بشهادة ضد جيبيتو. ولكن كان عليّ أن أجرب حظي. لذا أخرجت مسدسي ، وصوبته نحو رأسه الأضلع: - لقد انتهت الاتفاقية ، وعليك أن تخرج الرقاقة من رأس روحي مجرد.

- ألدك الشجاعة لسحب الزناد سيد جيفان؟

- سيكون آخر أمرٍ تشعر بالفضول نحوه.

- أنت لا يمكنك حتى أن تصبح متدرباً لدى مساعدة سكرتيرتي ، لذا أغرب عن

وجهي ..

- كما تشاء يا صاحب السعادة. - ولكنني وضعت فوهة المسدس على أسنانه.

في تلك اللحظة ظهر على شاشة التلفاز المعلقة على يساري ، وجه صحاري.
فانتابني رعشة أشبه بضربة برق على عظامي.

- ما هذا أيها الوغد؟ - صرخت.

فرفع معصوم جيغي الصوت بواسطة جهاز التحكم الموضوع على طاولته.

نظرت إليّ صحاري وهي تقول: - بابا ، أنا أحب عمي معصوم جيغي كثيراً. أرجو أن
تحسن معاملته ، لأنه يعاملني بصورة رائعة. انظر لقد اشترى لي أسداً ، لكي يصبح صديق
الباندا الذي أهديتني إياه. كما أنّ أصدقاء عمي معصوم يرافقونني في نزهة. - ولم يظهر سوى
ظهر الرجل الذي احتضن صحاري والأسد مبتعداً بهما ، فقامت من فوق كتفه بإرسال قبلة
ولوحات مودعة. وانطفأت الشاشة.

لقد تمكن زبانية الجحيم من النجاة مرة أخرى ، وأخذ يطرق الطاولة بأطراف
أنامله ، تعبيراً عن تبرمه من انتظار انطلاق الرصاصة من المسدس.

- أراك لاحقاً جيفان كازانوف - وأرفق نظراته المتوحشة بابتسامة صفراء.

كنت أشعر بنفسي وقد منحت قبلة فرنسية ، لخنزير تناول قذاراته ، وتقياًها
ليتناولها من جديد.

- سأقطع أصابعك وأجعلك تتناولها. - قلت.

زّم شفّتيه وقطب حاجبيه: - أهذا كل ما لديك؟

- سأسحق أضلعك وأنتزع عمودك الفقري.
- إنك تؤذي مشاعري. - دون أي اختلاجة في صوته.
- الآن فقط أدركت ما قاله روعي مجرد: «ما يجعل الجحيم جحيماً ، هم الزبانية وليست النيران»..
- سأخرج أمعاءك من حلقك ، وأشنقك بها.
- هممممم؟ أظن أن الخلاص مني سيتطلب وقتاً طويلاً ، وهو الأمر الذي لم يتمكن أحد من النجاح فيه حتى الآن.
- الاستبداد ؛ ذلك الهوس في إبقاء الآخرين تحت السيطرة ، نفاق يثير الاشمئزاز وهو يتلون في كل شكل..
- لو لم يسبقني أحد إلى مقولة ، “سأطارد الكلب حتى أجعل من العنب الذي تناوله ، يخرج دبساً من مؤخرته ” ، لقيمت بإيجادها..
- غير دفة الحديث: - أتعلم ما هي آخر رغبات روعي مجرد؟
- أن ينطق الشهادة قبل تسليم الروح.
- إنها رغبة مليار ونصف مليار من المسلمين. عليه أن يقتلني لتحقيقها.
- لم أفهم؟
- مجرد ترهات. ولكنني لا أجد مانعاً من إراحته ودفعه للاعتقاد بأنه تمكن من قتلي. وكما تعلم ، فأنا أيضاً مارست معه - من قبل - هذه اللعبة ، ومن حقه أن يرغب في ردّ الركلة إليّ. سنلتقي مساء الثلاثاء في منزل روعي مجرد. وبعد أن يطلق عليّ الرصاص ويصل إلى مبتغاه ، سيكون لديك ثلاث دقائق لتضعني في كيس جنث ، وتحملني على ظهرك.

هذا العالم حجرة تبديل

«الآن حين تصل إلى (ب) ستغدو

ال. (أ) مجرد تاريخ».

(مايكل فرين)

فيما أسير بالصوبارو بأقصى سرعتها ، هانفتُ سربيل ، وقد ردّت عليّ من أول رنة:

- مرحباً جيفان. - كانت تضحك ، ما الأمر؟ هل فوّتّ على نفسي طرفة لا تُفوت؟

كان قلبي على وشك الانفجار: - أين أنتِ عزيزتي؟

- أنا وصحاري في (ناوتيلوس) نشرب عصير الفاكهة. - كان أفضل خبر سمعته في

حياتي.

فأخذت أهذي: - هاااا؟ صحاري؟ هل هي معك؟ - رفعت قدمي عن دواسة

البنزين.

- لحظة يا جيفان ، تريد التحدث إليك..

كانت ابنتي الصغيرة تزفّزق من الفرحة: - بابا! كيف حالك؟ هل تستطيع القدوم

إلينا؟

ما إن سمعت صوتها حتى كاد يغمى عليّ فرحاً: - طبعاً حبيبتي ، على الفور. في أي

كافيتريا تجلسون؟

كانت كلماتها تحمل رنيناً طبيعياً ، وكأنها تشدو لا تتحدث: - لا أعلم بابا ، سأسأل
ماما. ماما أين نحن؟

وصلني صوت سربيل من بعيد وهي تقول: - مادو.

- نحن في مادو بابا.

- رائع ، حسناً ابنتي الحلوة ، هل تعيدين الهاتف لأمك؟

- حسناً بابا.. حين تأتي سنذهب إلى زارا وتيكنو ساي ، وإلى ميغروس أيضاً..

ما الأمر؟ أهنالك رقاقة في رأسها أيضاً؟

كانت سربيل تضحك مجدداً: - إنها تهز رأسها مومئةً كلما قالت لك حسناً، ..

كان حلقي متحجراً ، وكل نفس يحرق أضلعي: - حبيبتي ، أرجو ألا تتركي صحارى
بمفردها. ولا تنهضي عن الطاولة التي تجلسين إليها..

- ما الأمر جيفان؟

- لا يمكنك القضاء على كارثة الحشرات سوى بال.(ريد)..

- عفواً؟

كان لساني يتورم داخل فمي كدولاب السباحة: - إننننن!

- جيفان! هل أنت بخير؟ يكاد شحن الجوال أن ينتهي.. يا للحظ..

- سأكون هناك بعد قليل.. - تمكنت من القول.

لكي أصل إلى مركز التسوق ، انتهكت كافة قوانين المرور ، والطبيعة والفيزياء
والمنطق. لقد قام الأوغاد بثقب رأس وحيدتي بالمتقب. ركنت السيارة في المرآب ، وتوجهت

مسرعاً نحو المبنى ، وأنا أتسلق السلالم المتحركة راكضاً. احتضنت حبيبتى وابنتى. وتحسست شفق ابنتى الأيمن بأصابعى ، وحين لامست أناملى التورم الصغير المختبئ بين خصل شعرها ، ارتعشنا كلانا.

كنا قد نجونا من تيمور تومور بعد الهجوم الذي تعرضنا له في حديقة (أوزغورلوك) ، ولكن حلقة العبث المدمرة لا تزال تدور بنا. ولم نكن سوى في حجرة تبديل للكون الذي يحيا فيه معصوم جيغى.

أتمنى لك حظاً موفقاً

مع كيس الجثة

كان الشاب على الطرف الآخر من الخط يتكلم بصوت مرتفع وبسرعة لا تجارى:

- أهلاً بكم في المعدات الصحية من سامسا ، أنا أوكيش كورشيبك ، كيف لي أن أساعدك ؟ هل لي بمعرفة اسمك ؟ تفضل !

- اسمي جيفان ، وأريد شراء كيس للجثث.

وبأسلوب معلق على سباقات الخيول ، بدأ بههمة الشرح:

- بالطبع سيد جيفان ، بداية أريد أن أوضح لك بأننا نملك مجموعة متنوعة من الأكياس الخاصة بالأطفال ، الرجال والنساء ، كما أننا نملك نوعية ما نسميه بلاعب السلة (110×220). منتجاتنا لا تحوي قطب خياطة ، وإلا فإنّ السوائل التي قد تخرج من أجساد الموتى ، يمكن لها أن تتسرب من خلال القطب إلى الخارج ، وهو المنظر الذي لا يرغب أحد في رؤيته. وهناك بالطبع تدرجات في الجودة ، كما أننا قادرون على تلبية طلبات تصل إلى مائتي كيس. وإن اخترت اللون ، سنطبع عليه الشعار الذي ترغب فيه. كما أنّ أكياسنا تحتوي على جيب شفاف ، يظهر من خلاله وجه المتوفى. ومقولة “الكفن لا جيوب له” باتت من التاريخ. هلا أخبرتني ما عدد الجثث التي تملكها؟ وأي نسيج تفضل؟ القماش ، النايلون أم الفيينيل؟

- النايلون.

- أوصيك بالفيينيل سيدي. صدقني ستكون في غاية الامتنان. وكم أبعاد الجثة؟

- 110×220.

- ممتاز. لآعب السلة. حسناً ، وكم كيساً تحتاج ، خمسة أم عشرة؟

- واحد.

- هممم ، إن اشتريت عشرة أكياس يمكنني أن أضمن لك خصماً مشجعاً سيد

جيفان..

- لا أريد. ما ثمن الكيس الواحد؟

- مائة ليرة.

- حسناً ، أستطيع أخذ الكيس دون انتظار حين القدوم إلى متجركم؟

- إن شئت تستطيع الدفع عبر الإنترنت بواسطة بطاقة بنكية ، وسنقوم بإيصال

الكيس إلى عنوانك سيدي.

- لا أستخدم بطاقات بنكية. سوف أحضر إلى المتجر.

- سنتشرف بزيارتك سيدي.. عفوا ، وماذا عن اللون؟

- زهري.

اختيار موفق. أهنيك سيد جيفان ، وأشكرك لأنك فضلت التعامل معنا. ونحن

باننتظارك ، ومنذ الآن أتمنى لك حظاً موفقاً مع كيس الجنة..

النجاة من الموت

في كافة المراحل مُجدٍ

كانت العلاقة بين سربيل سيلاحي بييري ونازلي هلال تسير بسلاسة ، وفيما كنت ألاعب الطفلين في الردهة ، كانت سربيل تحدثها عن أهمية فن العمارة ، وبدا الاهتمام على نازلي هلال: - كان دوغان هاسول يقول لنا دوما: «لا يمكن أن يترعع إنسان جيد في بناء سيء».. ومن المدن المنحرفة ، لا يظهر أناس أسوياء. كلنا لدينا لاعب أو فنان أو موسيقي مفضل ، ولكن لا نملك معمارياً مفضلاً. لقد كتب المعماري الروماني فيتروفيوس في العام 2000 ق.م: «كل بناء يجب أن يرتكز على ثلاث أسس: المتانة ، المنفعة والجمال».. وهذه الأسس بالطبع تنسحب على المدينة برمتها. خلاف ذلك قد تغدو المباني المتينة رموزاً متناقضة ، وليست الصروح الرمزية كالكعبة ، برج إيفيل تمثال الحرية.. ما يحدد هوية المدينة ، بل كل الأبنية التي تضمها.. فتقافة المدينة الخاصة ، هي السبيل أما لحيويتها ، أو لفقدانها الحياة.. النسق المعماري المتوافق ، يحمل طابعاً إنسانياً يبعث على الألفة والحميمية. فالناس المحرومون من «الهيكلية» المشتركة ، لا تدوم علاقاتهم العاطفية إلى أمد طويل ، بينما تطول خلافاتهم. كما يحدد الطابع المعماري للمدينة ، الأدوار المنوطة بقاطنيها ، ويوجه مساراتهم. هل نحن كتلة بشرية واحدة ، أم مجموعة أفراد يتشاركون الجوار؟ هذا يعتمد على الأسلوب في العمارة. فحين التمعن في صورة بانورامية لأي مدينة ، ستتشكل لدينا فكرة واضحة عن مستوى سكانها الثقافي ، التعليمي وضعهم السياسي والاقتصادي.. والمدن التي تفتقر إلى الميادين ، لا سبيل فيها إلى الديمقراطية. وإن كانت الأرصفة ضيقة ، فهناك خلل في احترام الأفراد ، أما إن كانت الأبنية كثيرة الطوابق ، فالسرطان منتشر ، ذلك أنّ الجيرة منقرضة.. الأبنية تعمر أكثر من البشر ، وبغض النظر عن

مالك البناء ، فهذه الأبنية تخص كافة ساكني المدينة ، لأنها جزء لا يتجزأ من مشهدها ، وحتى لو لم تكن تعيش داخله ، فهو يطالعك بمنظره. الأبنية المتجهمه ، تفقد الحياة رونقها. وحين يقوم الشخص ببناء مبنى جميل ، فهو يقدم هدية رائعة لأبنائه ، أحفاده وجيرانه. وبالمقابل فالأبنية الدميمة تنسب في مرض الأجيال القادمة ، وتدفعهم إلى اكتئابات مزمنة. وإن أفضل نتائج التأهيل العمراني هو التكلفة المنخفضة لتشييد أبنية تعليمية تتوافق مع شروط البيئـة والجمال. ففي المدارس التي تصحرت حدائقها ، فيما هيكلها أقرب لهياكل السجون ، لا يمكن للمعلمين أن يكونوا عطوفين ، وللطلبة أن يكونوا سعداء. كما أنّ الحدائق أعمال دنيوية تمثل انعكاساً لحدائق الجنان.. هل يمكن لشخص تخرج جنازته من بيت لا يملك حديقة ، أن يكون مصيره الجنة ؟ ها؟ الحديقة هي المشهد الأساسي في كل بناء. فالمراكز المدنية الضخمة المهيأة كأماكن اختباء مثالية ، تبدو وكأنها مصممة خصيصاً من أجل الهاربين ، فهي تبعد الناس عن بعضهم ، وتفرقهم.. وبالتالي فهي تمارس أحد مهام السجون. فأبنية العالم الافتراضي المخدرة ، تضيف سلسلة جديدة من الكوارث التي ابتليت بها المدن الضخمة. وإن كنت تقطن مدينة كبيرة ، فأنت إما هارب أو محكوم. التفكير في الهندسية المعمارية ، ينجينا من الهواجس الإيديولوجية. فمن يعرف الفرق ما بين الأساليب العمرانية ، فهو حكماً يختار الحب لا الخلافات.. ودون ثقافة عمرانية ، لا يمكن لك أن تصبح متحضراً.. كما لا يمكنك أن تكون شخصاً اجتماعياً ، طالباً للحريات ، متديناً ، محافظاً أو حتى قومياً.. ورغم أنّ الضوضاء الجوفاء القادمة من الأنقاض لا تتوقف ، لكن النجاة من الموت في كافة المراحل مُجدٍ..

كنا أنا وصحارى وأوزان ، نراقب سربيل بأفواه مفتوحة. وحين أنهت كلامها التفتت نحونا ، فتبادلنا الابتسام مع نازلي هلال.

أوزان: - نحن لدينا حديقة..

فعلقت نازلي هلال بجملة تتراوح بين الحزن والسعادة: - صحيح ، ولدينا فكرة عما ستبدو عليه الجنة..

لم تتخلل جمل صحارى أسماء ماركات تجارية ، أيمنكن أن أكون مخطئاً ، وماذا عن الانتفاخ في شدقها؟

وكأنها كانت تقرأ أفكاري ، حين التفتت نحو أوزان لتخبره: - أتعلم أنّ بابا يحلق ذقنه بألة (ويلكينسون) ، ويتعطر بعطر (كلفين كلين).

أخذت أجول بيدي على ذقني ، الذي نبت شعره الخشن ، مدركاً أنّ مشاكلتي لا يمكن لها أن تُحل بألة الحلاقة والعطر.

لقد بعث روعي للشيطان الذي كان يصلو بأظلافه القذرة على قمة رأسي ، في مقبرة (زينجيرلي كوي) مقابل بعث سربيل من جديد. لم يكن لدي أي توضيح آخر سوى أنني كنت مذنباً وضحية في الآن ذاته.

أخرجت وسام الاستقلال ليشاهده الطفلان.

صحارى:

- إنها جميلة جداً بابا ، هل هي قرط؟

- لا عزيزتي ، ليست أقرطاً ، بل وساما..

أوزان: - عمي ، لقد شاهدت واحدة تشبهها لدى روعي مجرد أيضاً.. - لم تعد جملة تراكيب للكلمة واحدة.

حين سمعت نازلي هلال اسم روعي مجرد ، أصاحت السمع إلى حديثنا.

- هو من أهداني إياه.. - أجبتي..

هتف أوزان: - ماما ، وسام عمي الحربي - ورفع الوسام في الهواء..

اقتربت نازلي هلال منا: - هل أهداك روعي مجرد أغلى كنوزه؟ - وحملت الوسام

برفق ، وتفحصته بتمعن ، لترفعه إلى شفيتها وتقبله بحنو..

إن استطعت ضبطه ؛

فهو ليس غضباً

«الشیطان ليس حليفاً قوياً ،

هو ليس حليفاً ، وليس قوياً».

(هيرشي بوش ، 1888-1999 ، كم غراماً يزن العالم؟)

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ونحن في غرفة العمليات ، الإضاءة القوية تجعلني أشعر بأننا نخطو فوق كوكب قد خُلِق للتو. المكان أكثر هدوءاً من مكتبة اللغات المنقرضة..

فوجير فوجي على وشك بدء العملية ، فيما روحي مجرد يستلقي نائماً على طاولة العمليات تحت تأثير التخدير العام.

تغطي القفازات يدينا ، ورأسانا مغطيان ، والأقنعة الطبية حول وجهينا. عشر ثوانٍ وتبدأ الجراحة..

أنا المسؤول عن المثقب ، المقبض ، المقص ، المبضع والعديد من الآلات المعدنية الأخرى التي لا أدري ما اسمها..

الدكتور فوجي: - الأتوسكوب.. - تطلب.

- أي واحدة؟

تشير بإصبعها البلاستيكية: - ذلك المصباح الصغير.

أقوم بأخذ المصباح وأعطيه لملكة الجراحة العصبية.

تسللنا خفية - أنا وفوجير - إلى منزل روحي مجرد الذي كان يغطّ في نوم عميق ، حيث حقنته فوجير بالديازبام47. ومن ثم حملت المحارب الأخير ووضعته في المقعد الخلفي للصوبارو ، حيث أتينا به إلى مستشفى السلمونيليا. دخلنا من باب الطوارئ إلى المشفى ، وقد أعلنت فوجير للمرضة المناوبة: - لقد ساءت حالة جدي الصحية قليلاً ، سأهتم به بنفسي. - ولم يعترض أو يظهر أحد من الأطباء..

كانت غرفة العملية باردة ، وشاحبة. قامت فوجير بضبط الإضاءة ، ومسحت بقطعة شاش معقمة رأس روحي مجرد ، وعقمته بالبوفيدون - إيودين ، وبدأت العمل بالمتقب الصغير.

- بعد انتهاء العملية ، سأقوم بنزع الرقاقة من رأسك أيضاً..

- لقد زرعوا برّاية الإعلانات في رأس صحارى أيضاً..

أوقفت المتقب: - ماذا قلت ؟

- هناك رقاقة في رأس ابنتي.

صرّت أسنانها ناصعة البياض - هذا المأفون معصوم جيحي ، لقد اختل عقله تماماً.. ورغم أنّ التوقيت والمكان كانا غير مناسبين على الإطلاق ، وجدت نفسي أصح:

- أنا وأنت.. لقد رجعنا القهقري من عتبة الحب..

- وما المشكلة ؟ قصص الحب الضائعة دوماً أكثر من المعاشة..

- هل أنتِ غاضبة ؟

- إن لم تتمكن من لعب دور البطولة في حياتك الخاصة.. لا أدري ، ربما الأجدى أن يدوسك الكومبارس بالنعال..

أعادت تشغيل المثقب وانحنت نحو رأس روحي مجرد ، وحين كانت على وشك غرزه في الشدق ، هتف أحدهم:

- هويناً يا زوج القمّر! مذبح رومانسي ها!.. - كان المتحدث معصوم جيحي يقف بين عملاقين ممن قضوا سنين طويلة في الأندية الرياضية لتربية كتل العضلات المتضخمة حد الإفراط في جسديهما ، وهو يتقدمهما خطوة.

استقامت فوجير بعد أن أطفأت المثقب: - أغرب عن وجهي.

- أوووو! يا للعار عزيزتي! - واقترب منا ومدّ رأسه الأصلع نحو طاولة العمليات - روحي مجرد أيضاً هنا؟ - ألقى تحية عسكرية - هل اهتز ذنبه؟ - وغمزني.

تملّ لساني: - لم تف بوعدك يا (ماسيمو دوتي)! فبعد التاسع عشر من أيار كان من المفترض أن يصبح رأس روحي مجرد نظيفاً كآلة (بوش) لغسل الصحون. وفوق ذلك سممت رأس صغيرتي التي لم تبلغ السادسة من العمر ، بالنسكافيه! ومقابل ذلك سأتناول وحدي كل (البيسكريم) الذي يخصك...

- حسناً أنا أفهمك! - أمسك بمشرط من على الطاولة ، ووضعه على قذالي ، فذكرني ببديري دوبارا قبل أن يطعنني بالسكين ، غرزاها في الموقع ذاته. ولكن الفارق بين ذلك اليوم والآن ، هو أنني أريد العيش لا الموت. رفعها في الهواء ملوحاً بها يميناً ويساراً ، وهي تعكس بريق أضواء المسلاط (البروجكتور):

- أي عينيك تحب أكثر؟ الزرقاء أم البنية؟

أمسكت بذراعه ولويتها ، فسقط المبضع ، وسددت ضربة قوية لفكّه. فتراجع بضع خطوات فيما تحرك الماردان ، ولكنه أمرهما وهو يرفع أكمامه: - توقفوا. - خلع سترته

ورماها على الأرض ، وسحب ال. (ديسرت إيغل) التي كانت تلتمع على خصره ، وبدا وجهه كشريحة لحم دامية. وفيما كان يذرع الغرفة ، أخذ يثبت كاتم الصوت على فوهة المسدس .

كان صوت فوجير يتراوح بين الغضب والنحيب ، وعيناها تتقدان كطائرتين اصطدمتا في الهواء: - نرجسي شاذ لا يتقن سوى ارتكاب شرور مكرورة حدّ الغثيان. نظرياً أحق ، وعملياً طاغية.. مجرد ذكر رديء التصنيف ، يحمّل غيره تبعات عجزه الجنسي.. انقلع من هنا..

معصوم جيبي: - اسحبي آخر أنفاسك..

دوووف!

وأطلق النار على فوجير ، الرصاصة المنطلقة من ال. (ديسرت إيغل) بصوتها الممزق ، أطاحت بفوجير أرضاً ، وقد أحاطت الدماء المتدفقة من جسدها ، بالمثقب الذي ظل في يدها.

كان روحي مجرد برداء العملية ، ينام بعمق دون حراك ، فيما الماردان منتصبان كتمثالين.

حلّ معصوم جيبي ربطة عنقه ليضعها أرضاً فوق سترته: - اقترب أيها البطل..

انطلقت نحوه وبكل ما أوتيت من قوة ، وجهت لكمّتي نحو صدغه. ترنح ، فاقترب الحاميان وهما على أهبة الاستعداد نحونا خطوة إضافية ، لكنه عاد ليوقفهما بحدة: - لا تتدخل..

كان بدري دوبارا يأمرني أثناء مباريات ال. (بوم فايت) أن أتلقى بعض الضربات في البداية ، لكي تغدو المباراة أكثر تشويقاً. أما الآن فالوضع مغاير ، سأقضي على معصوم جيبي ومارديه أيضاً..

سدد نحوي بعض اللكمات التي تجنبتها كلها ، فزاد حنقه ، وبدأ يسدد لكماته نحو الفراغ ، وأنا أعلم ما يفكر به ؛ كان يظن بأنه سيطيح بي بضربة واحدة ، ومن ثم يتخلص مني نهائياً ، لكنني وجهت ضربتين متتالين نحو فكّه و صدره ، فقابلها بتماسك ، إلا أنني كنت أكثر سرعة. أحقاً كنت كذلك ؟ ففي الوقت الذي كنت أنوي مهاجمته من اليمين ، سدد ركلة لربلة ساقي ، جعلتني أسقط على ركبتي. ومن فوق هوت يده كمطرقة فوق جبيني. وتتالت الضربات ؛ دوم ، طاخ ، غوم ، يوم! على الصدر ، الرقبة الرأس.. كان يضرب كل بقعة في متناوله. في المباريات تستطيع أن تكشف مشاعر خصمك ، فتصلك أحاسيس الخوف والتردد أو حتى الشفقة ، التي تمر برأسه في جزء من الثانية ، فالانفعالات تروح وتجيء بين الطرفين. كما أنّ الطرف المسيطر في المباراة ، لم يكن في معظم الأحيان يلحق الأذى بخصمه أكثر مما هو مطلوب ، فيقلل من حدة وسرعة ضرباته.. لكن معصوم جيحي كان يفقد هذه الصفات ، فهو يقاتل كروبوت ، ولا يعتبرني كأنا حياً.. كنت على وشط أن انبطح أرضاً حين سحبت نفساً عميقاً ، وتمكنت من النهوض والانسحاب نحو الزاوية ، وقد اصطبغ رداء الجراح الذي أرتديه بالدم ، كنت ألهث وأشعر بالدوار ، لكنه كان أمراً اعتيادياً. فهو يحصل في كل مباراة..

رفعت يدي وكوّرت لكمتي: - هل نبدأ؟

ضحك بخشونة ، واقترب صوبي في خطى واثقة. كنت أفكر في انتزاع المسدس المثبت على خصره ، لأقتله ومن ثم أقتل الماردين ، حين سدد ضربة جانبية إلى صدري ، رفعتني عن الأرض لتلقي بي منبطحاً إلى جوار فوجير فوجي. بدأت أتنفس بصعوبة ، لكنني نهضت بسرعة ، وقد تلطخت يداي بدماء عشيقته السابقة. ما الذي جعل فتاة خارقة الذكاء مثلها ، تقع في حب هذا الوغد؟ ولكن ما الذي اكتشفته سربيل سيلاحي بيبي في بدري دوبارا؟ لن أعرف ذلك مطلقاً. كانت موجة تسونامي هائلة تجتاح أعماقي ، وكما تعلم يا قارئ المثقف ؛ إن استطعت ضبطه ، فهو ليس غضباً..

كان معصوم جيحي ينتظرني ، فلم أخيب ظنه ، وحين تمكن من النجاة من

قبضتي اليسرى ، كانت اليمنى قد انهالت على عينه ، فغطى وجهه بيديه الهائلتين ، فأحكمت يدي حول عنقه .

ابتسم بصعوبة بالغة ، وقد بدت لثته وكأنها محترقة: - اتركني .. لدي زوجتان وطفل .. - خرخر ، وسدد ركلة مروعة لفخذي ، فالتويت في حُرقة مريعة. لكنني وثبت نحوه ، وبدأت أمطره بوابل من اللكمات ، على خديه ، أنفه ، عنقه ، كنت أضرب بسرعة مرعبة ، وقد تحولت إلى قبضتين هائلين ، ولم يعد من الممكن سوى مشاهدة الشرر المنبعث من كل ضربة ، وحين ركلت بطنه ، وجّه كاتم مسدسه نحو أنفي ، فتوقفت على الفور. وكلانا يلهث ككبير الحداد.. قبل عدة أيام صوبت مسدسا نحوه ، ولن يطول الوقت قبل أن يقوم أحدنا بسحب الزناد..

مع سيل الدم الرغوي المتدفق من فمه كان يهدد: - قريباً.. سأرسل إحدى عينيك لأمك ، والأخرى لزوجتك..

كنت نينماً وأعزباً ، ورغم ذلك أثارني تهديده: - سأسلخ جلدك ، لأصنع منه ثياباً لقردى..

- سأمزقك وأسحقك حتى أحيلك إلى كريم ، أدهن به قدمي. - في مباراة ال.(بوم فيات) كان الخصوم يتبادلون المبالغات الشعرية ، والتهديدات المتحدية ، ولكنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا التهديد..

أمسك الماردان بذراعي يعصرانها كالكمبس ، وجراني خلفهما بضع خطوات..

- توقفوا!.. - كانت فوجير فوجي ، فالرصاصة التي تلتقتها قبل قليل لم تقتلها بقدر ما زادت من قوتها. وقد وضعت المبضع على عنق روعي مجرد! نوع جديد من العلاقة بين الطبيب والمريض ، لقد انقلبت الموازين في غرفة العمليات..

ضحك معصوم جيحي في إعجاب ، وقد تلطخت لحية المحارب الأخير بدماء

شكسبير محق فيما قاله ؛ فالعالم ليس سوى مسرح كبير ، أقف على خشبته
والبيض الفاسد يمطرني ، وسط استهجان المشاهدين ، ذلك أنني لست سوى ممثل إيمائي
رديء الموهبة .

ترك الماردان ذراعِي .

وفيما كان وقع خطوات معصوم جيحي يبتعد ، كانت النهاية التي سينتصر فيها
الشرير تقترب أكثر .. ألقىت نظرة على روحي مجرد ، وأخذ قلبي المترعرع في حقول عذابات
الضمير ، يتلوى ألماً على صقيع العجز .. وقد غيرت الدموع طعم الدماء على شفتي ..

لا بد وأن يكون

لكل هذا الرصاص من مغزى

«العقل الذي تم إعلاء شأنه لقرون ، هو العدو

اللدود للفكرة. ولا يمكنك أن تبدأ التفكير ، إلا

في اللحظة التي تدرك فيها هذه الحقيقة».

(مارتن هايدغر ، 1889-1976)

- تصبحون على خير! - تقولها لتستلقي في فراشك سليماً معافى ، وحين يأتي أفراد أسرته لإيقاظك صباحاً ، يجدون وجهك وجسدك مغطىً بالندوب والكدمات ، ألا تتوقع أن تصيبهم الدهشة ، وينتابهم الفضول ؟

لكن العكس هو ما حصل معنا:

حين استيقظت صباح الثلاثاء ، كان أوزان يقف فوق رأسي وهو يسأل: - عمي ، هل أستطيع أن ألمس عينك ؟

كان كل جزء من جسدي يتأوه: - ها ؟ صباح الخير أوزان.. - وفي تلك اللحظة ظهرت على شاشة ذاكرتي ، صور الدماء ، الجريمة ، العملية التي ظلت معلقة دون اكتمال..

قامت نازلي هلال بتعقيم وتضميد جراحي ، فقد تسللتُ منتصف الليل من البيت ، وعدت في الصباح الباكر. وهذا يعني أنّ ما رأيته نازلي هلال هو رقودي في الفراش

سليماً معافى ، واستيقاظي جريحا ومتورماً. ومع ذلك لم توجه أي سؤال ، لأنها تركت الخوف والفضول والشهوات خلفها ، ففقدان زوجها ، ونجاة ابنها من الموت ، كانا أكثر من كافيين لتنال حصتها من لوعة الموت ، وفرحة الحياة.

قضيت طوال النهار ألق أكاذيب متناقضة على تساؤلات من حولي: - ماذا حصل لوجهك؟ هل خضت عراكاً؟ هل تورطت في مصيبة؟..

بعد الخروج من المدرسة مررت بمتجر سامسا للمعدات الطبية ، من أجل كيس الجثث. لم يكن أوكيش كورشيبك في المكتب ، بل امرأة في منتصف العمر ، بطيئة الكلام ثقيلة السمع متأنية الحركات ، وكأنها خرجت للتو من إحدى تلك الأكياس. أعطيتها النقود وحملت الكيس الزهري ، وأسرعت بالهرب..

محطتي الثانية كانت في مكتبة الكتب المستعملة (صحاف متفرقة): - أرجوك ، هل لديك العدد الثاني والعشرون من سلسلة (القناع الأحمر)؟

أخرج لطفي سيمان الذي لاحظت أنه يشبه عوني واو في شبابه ، ملفاً مهلهلاً من محفظة ومدته نحوي وهو يسأل: - أهذا ما تريده يا جيفان؟

ألقيت نظرة على صفحة التعويذة الخاصة ببعث الموتى من قسم (غريب لكنه حقيقي) - أجل أستاذي ، أيمكن أن تظل معي؟

- مباركة عليك..

- شكراً جزيلاً..

- لا شيء لتشكرني عليه يا صديقي..

وما بين إغماضة عين وانتباهتها عزيزي القارئ ، كنت في إحدى محلات بيع

الدراجات في شارع بغداد:- أريد قبعة دراجات للأطفال.

ومن هناك توجهت نحو محل بيع الورود.

التقيت سربيل وصحاري في إحدى كافيتريات ساحل (كيزيل توبراك)، كانت فوندا تغني أغنية (من منا لم يحب؟) لمسلم غورسيس. قدمت باقة الزنبق لحبيبتني:- تبتهج الأزهار لرؤيتك.. -قلت.

وقد أثارت قبعة (نولان) الواقية فضول صحاري:

- ما هذه بابا؟

- قبعة. هل تودين تجربتها؟

وضعت القبعة على رأسها ، وقد التفتت نحو أمها تسأل:- ماما ، هل هي مناسبة ؟

لم تفهم سربيل الوضع:- إنها تليق بك كثيراً حبيبتني.. - وقد اتجهت نظراتها نحوي.

غمزت لها بعيني وأومأت برأسي أن «لا أسئلة»..

- حسناً حبيبتني ، ضعي قبعتك هنا ، وسترتدينها فيما بعد ، اتفقنا ؟

- اتفقنا بابا. - وركضت باتجاه مجموعة الألعاب ، وركبت ظهر الحصان لتميل به نحو الخلف وإلى الأمام غارقة في أحلامها اللذيذة.

أحضر النادل دون أن يسألنا ، كأساي شاي وضعهما على طرفي القبعة التي بدت كعلبة السكر.

- أحبك سربيل سيلاحي بييري..

- تعلم أنني أريد تصديقك..

- أنا مغرم بك منذ عشر سنوات.. وأوصيك بأن تكوني واثقة من ذلك..

- ولكن كل شيء قد تغير الآن. لو لم تكن صحارى موجودة ، هل كنت ستستمر

في حبك لي ؟

- لقد أصبت في أول مرة رأيتك فيها ، وحين عثرت عليك للمرة الثانية ، أصبت

من جديد. وفي أول مرة تعرفت فيها على صحارى ، انهال علينا وابل النيران ، لا بد وأن يكون لكل هذه الرصاص من مغزى.

علت ابتسامة أشبه بإشراق الشمس بعد ليلة عاصفة وجهها: - لقد مرّ وقت

طويل ، وكلانا لم يعد في الثانية والعشرين من العمر ، كما أنني لاحظت كيف تنظر فوجير فوجي إليك..

فيما نواصل الحديث كانت صحارى على الرمل تجمع القواقع البحرية ، فتذكرت

أيام طفولتي حين كنا نذهب إلى الشاطئ وأنا وأخي أوكان مع أصدقاء الطفولة. أنا أيضاً كنت

أجمع القواقع والأصداف في مجموعة خاصة.. عدت من الخيال إلى الواقع ، ومن الماضي

إلى الحاضر: - الغيرة ، اضطراب نفسي يبحث له عن أسباب. برأيك أليس لدينا من

الاضطرابات التي مرّت بنا ما يكفي ؟

- أيعقل أنك طوال هذه السنوات لم ترافق إحداهن ؟

- لا.. لأنك كنت ميتة ، وقد دفن طفلنا الذي لم يولد بعد تحت الأنقاض. أغلقت

دفتر المستقبل بعد انتفاء دوافع الحياة ، وانتظرت قدوم عزرائيل لاحتضاني..

- أنا أيضاً عانيت عذاب الضمير لسنوات ، كنت أظنك قد أقدمت على الانتحار

- يا للغرابة! لقد أضعنا بعضنا في ظروف غير متوقعة ، وعثرنا على بعضنا بعد فقدان الآمال..
- منذ بضعة أيام وأنا أتابع مبارياتك على اليوتيوب. إنها مريعة ، لم أستطع أن أكمل أياً منها.. أحقاً تمكنت من هزيمة ذلك الزنجي ؟
- وصنعت من أسنانه قلادة..
- لم تتغير مطلقاً ، ولا زلت قادراً على التندر على أقسى آلامك.. - كانت الكلمات الرقيقة المناسبة من بين شفيتها اللتين كعجينة الكرز كافية لترميم كافة روابطنا الممزقة..
- متى يصادف عيد ميلاد صحارى ؟
- العشرون من نيسان..
- في ذات يوم عيد المولد النبوي الشريف..
- ها ؟ لم أكن أعلم ذلك..
- واليوم أيضاً بحسب التقويم الميلادي ، هو ذكرى وفاته ؛ الثامن من حزيران..
- ولم تنقص غزارة معلوماتك أيضاً.. - لا زالت سربيل وكأنها منحوتة من الرخام الصقيل ، تنعكس أضواء القنديل المتقد داخلها ، على بشرتها وعينيها..
- إن كنت تحاولين فهم الأسباب التي دفعتك حينها لتغرمي بي ، ستفقدين حبك حين عثورك على الحقائق..
- لها ؟

- ذلك أنّ الإيضاحات تُفقد المشاعر تأثيرها لتضمحل..

تبتسم:

- بالحديث عن الموت ، كيف أيقظت موتى (زينجيرلي كوي)؟

- قرأت تعويذة في العدد الثاني والعشرين من (القناع الأحمر).

- هراء! أنت تمزح..

- أنا في غاية الجدية ، رغم أنّ الأمر يبدو لي أنا أيضاً غريباً الآن. ولكن من يرقد

في القبر الذي دوّن عليه اسمك؟

- إحدى سجينات (كانديرا)، فمع الزلزال تعرض السجن أيضاً للدمار ، وقاموا

بوضع جثة إحدى الضحايا في القبر باسمي.

- سربيل.. ألم يحن الوقت لنبدأ أنا وأنت وصحاري حياتنا؟

لم تعلق ، وهي تنتظرني لإكمال حديثي.

- فلتنزوج ، كل منا ينتمي إلى الآخر. سنشتري فستان العرس من (أوبغ

كاسيني)، وبدلة العريس من (بيير كاردان)، ونستأجر سيارة (أولديسموبيل) موديل العام

1، ونقيم العرس في (بيرا بلس)، وننزل السلالم على وقع أنغام (مارش العرس) من مقطوعة

(حلم ليلة صيف) لفليكس مندلسون ، ونحن نمسك بيد صحاري. أم أنّ (مارش العرس)

لريتشارد فاغنر يناسبنا أكثر؟

فكرت قليلاً:

- فلتعزف الأوركسترا كليهما ، وننزل مرتين من على السلالم.

- سيكون استهتاراً حاذقاً..

كانت ابتسامتنا تتسع كلما تشابكت أيدينا على الطاولة أكثر. وفي تلك اللحظة تذكرت ما قاله يوماً روجي مجرد: «لا تثق أبداً بأحد يرتدي بدلة العرس ، خاصة إن كانت امرأة».

قبل المغادرة وضعت الورقة التي أخرجتها من جيب بنطالي على الطاولة ، وقد دونت فيها: «حين المغادرة من هنا ، ضعي القبعة على رأس صحارى ، واذهبا فوراً نحو جزيرة (بيوك أدا). لا يجب لها أن تنزع القبعة لأي سبب من الأسباب. سأتصل بك غداً لأوضح لك الموقف ، ثقي بي»..

أظنها تقبلت هذا الموقف الغريب ، فقط لأنها اضطرت إلى التعامل سنوات طويلة مع رجال الشرطة والعملاء والقتلة المتمرسين.

- سيكون كل شيء رائعاً حبيبي..

سأدقّ إسفيناً إسمنتياً في أحلامه

«يوم مماتك يماثل بقية الأيام ،

الفرق أنه يستغرق وقتاً أقل».

(ديوب ديا با ، ربع تعاطف)

توجهت صوب (يلدغيرمان) ، وشعرت بأن قلبي المفعم سعادة ، وذهني الذي يومض كجهاز إنذار ، ليسا للشخص نفسه.

كان المرور خانقاً ، وكنت راغباً بشدة في مشاهدة موت معصوم جيحي حتى لو كان الأمر مشهداً تمثيلاً. بعد مسرحية الغرفة كان عليّ حشره في كيس الجثث ، ومحاولة إبقائه فيه إلى الأبد.

كنت أعلم بأنّ روحي مجرد قد عمل مناوباً ليلاً في محطة (حيدر باشا) منذ زمن بعيد. وقد ذيل معصوم جيحي جريمة ارتطام قطار الكوكا كولا وسفينة البيبسي الصاخبة بتوقيعه. كما أنّ مديرة المحطة زهرة ظريف أوغلو ، كانت عشيقة معصوم جيحي ، وقد انتحرت بعد الحادثة بإلقاء نفسها من فوق مبنى المحطة ذاته. كما أنها عملت في المحطة بعد ثلاثين سنة من عمل روحي مجرد فيها ، فما العلاقة التي ربطتهما؟ أيمن أن تكون إحدى حفيدات

العجوز؟

لم أستغرب أن يتقبل معصوم جيحي قيام روحي مجرد بإطلاق النار عليه ، فهو

يعتبر كل شيء مجرد لعبة. وخدعة الموت ، مسرحية الجريمة ، وتمثيلية القاتل البريء تدغدغه.

وما النيران التي ينوي روعي مجرد إطلاقها عليه سوى رصاص فارغ حُشيت به بندقيته ، يا للسخرية!.

لم يكن بوسعي فعل أي شيء ، فالشرطة لم تطرق بابي حتى الآن ، لأنّ كاميرات المراقبة في المشفى لم تتمكن من تحديد هويتي ، فأنا ميت منذ وقت طويل في السجل المدني. كما أنّ اختلاف لون عينيّ ، لا يمكن أن يظهر في الكاميرات غير الملونة.

ما هي خطة معصوم جيحي؟ هل يخطط لكارثة دعائية هائلة ، من خلال قيام سكان إسطنبول بقتل بعضهم بعضاً؟

حين ضغطت على الفرامل ، ارتطمت الأفكار المندفعة من رأسي بزجاج السيارة الأمامي. ترجّلتُ ، وفيما كنت أتجه نحو باب المنزل سمعت صوت إطلاق نار؛ دووووف! فتذكرت حينها أنني لم آخذ معي كيس الجثة ، لأعود راكضاً وأحمله معي وأنا أسرع بالدخول. ترك باب الشقة مفتوحاً ، فأسندت الكيس على خزانة الأحذية عند عتبة الباب ودخلت. كان معصوم جيحي الغارق في الدماء مستلقياً عند باب الشرفة. وبالإضافة إلى روعي مجرد وفيغان نيغاتيف ، كان هناك عوني واو ورجل آخر.

بدا روعي مجرد مع بندقيته التي تنفث الدخان أشبه بتشاك نورييس:

- ما الذي حدث لعينك؟

كنت أتوقع أنّ الكدمات التي تغطي وجهي ، ستفقد أهميتها إزاء المشاهد الدرامية في الغرفة.

- لا شيء.. - أجبت.

كان حاجبا عوني واو معقودين: - لقد قتلته..

- لقد قطعت حديثكم في أكثر المراحل إمتاعاً، أستمحكم عذراً. لن أخفيكم أنها كانت أكثر الأشياء التي أمتعني القيام بها دون أن أكون عارياً. - ردّ روجي مجرد.

- هل ستقتلنا أيضاً؟ - سأل الرجل المدبّب اللحية.

روحي مجرد: - المكان هنا ليس مملأً على الإطلاق..

- فيغان نيغاتيف: - ماذا سنفعل الآن؟

- فليهدأ الجميع - أعلنتُ بحدة - علينا أولاً أن نقوم بتغليف هذا الوسيم.. - وأسرت نحو الباب لإحضار كيس الجثة.

سأل عوني واو متشككاً: - ما هذا؟ كيس جثث؟

- لا، كيس للنوم. سنضع الجسد فيه وننقله. - قلت آملاً في ألا يكون الحاضرون قد شاهدوا كيس جثث زهري اللون من قبل.

عوني واو: - برأيي أن نتقاسم القتييل، فتسهل علينا مهمة نقله ودفنه..

وفيما أحشر رأس معصوم جيغي في الكيس، أجبت:

- لا، لا، لا... سأتكفل بحل كل شيء. اتركوا الأمر لي.

التفت ذو اللحية المدببة نحوي:

- ألن تسأل ما الذي حدث هنا؟

- ومن تكون؟

- كوركوت أونلي. صديق السيد عوني.. - والتفت نحو روجي مجرد - سيد روجي

لماذا لطخت يديك بالدماء؟ هل يعقل أن يقوم الرجل بقتل ضيفه؟

بدأ عوني واو يروي القصة ، موضحاً الأجزاء التي كانت مجهولة لي: - حين كان ذو الفقار ظريف أوغلو على فراش الموت طلب من روجي القيام بقتل معصوم جيغي. وذو الفقار هو المدير العام السابق لمحطة حيدر باشا ، حيث كان السيد روجي يعمل هناك حارساً ليلياً. وقد ختم ليالي الأربعين عاماً وحيداً وهو يستمع إلى الراديو ، كان يقظاً بينما الكل كانوا نياماً ، فلم يتمكن من التعرف إلى أحد أو عقد صداقة مع أحد. وحين تعرفت إلى روجي مجرد كان ذو الفقار صديقه الأوحد ، لذا لم يستطع ألا يلبي طلبه.. ربما يجدر بي أيضاً في آخر أنفاسي أن أوصيه على جريمة..

توقعت أن ينتفض معصوم جيغي بعد سماع هذه التفاصيل ، أو أن تبدو منه أدنى حركة ، ولكن لا. أيعقل أن يكون ابن العاهرة قد لقي حتفه حقيقة؟

إذاً ، فقد كان جدّ زهرة ظريف أوغلو مدير المحطة فيما مضى! وقد لاحظ الرجل المكيذة التي راحت ضحيتها حفيدته..

ولم يكن روجي مجرد - الذي ينظر إليّ خجلاً الآن - مديناً لمعصوم جيغي كما ادّعى ، بل كان يريد العثور عليه. أرسلت ابتساماً تطمين دافئة إليه ، لتصرخ الجروح في وجهي ألماً..

بمساعدة من فيغان نيغاتيف وكوركوت أونلي ، حملت الجثة على كتفي وخرجت ، لقد كان أثقل من جثة كافر ، حتى أنني هبطت الدرج بمشقة بالغة..

وضعت الكيس في المقعد الخلفي للصوبارو ، على ضوء مصباح الشارع المقفر دون أن تصدر منه أي حركة. وحين أنزلت سحاب الكيس ونظرت إلى وجهه ، لاحظت أنه لا يتنفس. هل تحولت هذه المزحة السمجة إلى حقيقة؟ لم يكن في وسعي التلكؤ فيما روجي مجرد وأصدقاؤه يراقبونني من النافذة. جلست خلف المقود ، وارتديت قبعة التيتانيوم ، ووضعت الغلوك على ركبتي ، وانطلقت. كانت خطتي بسيطة ، فبعد مسافة قصيرة ،

سأقضي على معصوم جيبي. لااا، لن يتمكن من النجاة بسهولة ، سأدق إسفيناً أسمنتياً في أحلامه ، وأقطع مؤخرته لأعطي بها وجهه ، وأصنع من رأسه غطاء لمصباحي. دعوا الخيال جانباً ، كان أول ما سأفعله ؛ نزع الرقاقات الإعلانية من رأس روجي مجرد وصحاري ورأسي ، وإبلاغ الشرطة بجرائم (باكت) ، وإنقاذ المدينة.. ومن ثم سأحيا بقية عمري في تبات ونب..

جززززز!

اخترق خنجر عنقي!

نفذ من يمين رقبتني وخرج من يسارها.

هذا كل شيء. لا يمكن تنميق التُّرْع..

آخر ما رأيته هو الزخارف التعبيرية المتشكلة على الزجاج الأمامي من دمائي

المنبتقة كالسيل..

[روحي مجرد]

«سأغادر هذا العالم الذي إما أن يحيل قلبك

إلى حطام ، أو إلى قساوة الصخور».

(الرسالة التي تركها نيكوس كامفورت

قبل انتحاره ، 1741-1794)

الكذب يؤدي إلى الحماقة ،

والحقيقة إلى الجنون

«فيما تنير الحقيقة الموت ، تُظلم الحياة».

(ألبير جانيغوز)

لا شيء كما يبدو عليه ، ذلك أنّ الأشياء ليست مكونة من مظهرها فقط..

هذا القانون القديم ، ينطبق على حكايتي أيضاً..

فالكذب يؤدي إلى الحماقة ، والحقيقة إلى الجنون..

منذ أن ذهبت نازلي هلال ليلة أمس ، وأنا أبعد مبعثراً كأوركسترا قابعة تحت وابل الرصاص وهي تعزف لحناً جنائزياً.. يجدر بي أن أدخل مكيفاً للهواء داخل أضلعي ، عله يهدّي من لظى قلبي. آه من عينيها ، فكل رمشة منهما كفيلة بإغراق إحدى جزري إلى الأعماق.. حين أكون برفقتها أشعر بنفسي قد ذقت السمّ في وليمة في غاية الفخامة.. سأصنع منها دمية فودو تشبهها وأمطرها بالقبلات وأنا أقول لها: “أحبك.. أحبك..” من شدة اليأس أطلب العون من السحر الأسود باسم الحب..

القهوة التي قدمتها لي فيغان نيغاتيف ، اخترقت بطانة معدتي ، فتوجهت نحو المرحاض. في كل يوم من الأسبوع يصطبغ بولي بلون مختلف ؛ الإثنين أزرق ، الثلاثاء

برتقالي ، الأربعاء أخضر ، الخميس أحمر..

وحين عدت إلى الصالون ارتهبت على الأريكة ، عدت لأهيم في أحلامي..

القدر هو حصيلة كافة الاحتمالات ، أما القيامة فهي أن تتحقق كافة الاحتمالات في الوقت ذاته. أبدو كفزاعة في حقل ذرة مشتعل ، لا مسوغ أو معنى لوجودي بعد الآن ، ولم أعد أشعر بنفسي في منزلي إلا في الأحلام ، فقد تبخرت إرادتي. فحين يتفجر ينبوع الحب في يدك ، لا تستطيع سوى لحس أصابعك. وما الإنكار سوى أكثر الأساليب تداولاً في خداع الذات ، فهو يشعرك بالسلوى ، ولكن عجز المدقع لا يمكن لأي إنكار أن يجدي معه نفعاً ، فسوء طالعي المزمّن لا يترك سبيلاً للسلوى..

أنا محكوم بحمية أبدية ، فأنا لا أملك جسداً لتغذيته ، ولست سوى ظاهرة للإتلاف النفسي. أنا اسم على مسمى ، أدرك كنهني ، ولكنه إدراك لا يمدّ لي يد العون. فكل منفي ومثبت لدي نظريّ ، لدي إحساس ولكن الحدّث غير موجود ، أملك فكراً ولكن الذكر محدود ، والفعل غير موجود..

وفيما يختلج قلبي على وقع الهموم والهيام ، شرّفتني عوني واو:

- الأخبار سيئة يا صديقي!

- خيراً؟ ماذا هناك أيضاً؟

كان يلهث:

- جيفان كازانوف.. لقد تعرض لحادث مروري..

- وهل حدث مكروه للصوبارو؟ - اللعنة! يا للترهات التي تنساب على لساني فيما

أريد الاطمئنان على جيفان!

- لقد تحولت إلى رماد تناثر في سماء المدينة. لم يتبقّ منها سوى الحطام..

زقزقت بحزن عصفور انقرض برمّته: - وكيف هو جيفان؟

كان عوني واو يحشو مسدسه بالرصاص: - سنأخذ بثأر ذلك الشاب..

- هل مات جيفان؟ ومن أين عثرت على المسدس؟ وممن سننتقم؟

- بالنسبة لصديقنا الشاب، البقية في حياتك، أما المسدس فقد كان بحوزتي

على الدوام. سنسلخ جلد معصوم جيغي.. أرجوك أن تجهز نفسك لنغادر..

- ولكنني أطلقت النار على معصوم جيغي! ألم تكن شاهداً على ذلك أنت أيضاً؟

- لقد تمكن الوغد من خداعنا، لقد كان الأمر مجرد لعبة، ولكنني عثرت على

الجحر الذي يختبئ فيه، ومن الأفضل أن نقضي على هذا المحتال بأقصى سرعة..

- جيفان.. - جثم حمل هائل على قلبي، وبدأت عيناي تنفثان البخار كمكواة

بخارية - لقد قام جيفان بوضع جثة معصوم جيغي ليلة البارحة في كيس ونقله في سيارته،

ولكنه مات وبقي معصوم جيغي حياً؟

- الوضع متشابك بعض الشيء سيدي، سأشرح لك كل شيء في الطريق..

- ولكننا.. لسنا ملائكة الانتقام..

- هذا ما سنكون عليه اليوم..

أخرجت البندقية من علبة الكمان ووضعتها على كتفي، موجهة الفوهة نحو

الأسفل، وارتديت معطفاً طويلاً، وعدت إلى الصالون:

- أنا جاهز.

لحقت بنا فيغان نيغاتيف:

- سيد روحي! إلى أين ستذهب في هذا الوقت المبكر؟

- سنقوم بحملة تنظيف ربيعية في هذا العالم..

وفيما نحن نهبط السلالم سألت عوني واو: - هل قتل جيفان على يد معصوم

جيحي؟

- دون أدنى شك.

كنت أخطو على السلالم هابطاً من الحزن إلى الشقاء ، ومن الانكسار إلى الدمار..

لقد اضمحلت كل السعادة من حياتي. الشاب المسكين كان سيحمل تابوتي ، ويصلي عليّ صلاة الجنازة ، ويبتهل بالدعاء على قبري. فحفيد حفيدي ، هو أحد أقربائي من بعيد لن أرجو منه خيراً يذكر ، ولكن جيفان وخلال بضعة أشهر ، غدا صديق روحي الصدوق. تحمّل بصبر خشونتي رعونتي وغبابة أطواري ، يظلّ بالغ الاحترام على الدوام ، بشوش الوجه ، متأهباً لكل الطوارئ ، أكثر تعقلاً وتدبراً وحنكة مني بما لا يقاس. وكان ينوي أن يورث أبنائه وسام الاستقلال الذي منحته إياه. آه من أقداري التعسة.. لسوء الحظ أنّ النظام الذي يبدو عليه العالم ، لا مكان له في تعاقب الزمن.

لقد أطلقت النار على معصوم جيحي لأسباب لم أكن أعرفها ، ولكنني بتّ أعرف.

لذا لن ينجو مني هذه المرة..

أمام الباب كانت سيارة (كارتال) بيضاء مصابة بالإيدز تنتظرنا ، جلس عوني واو

خلف مقودها.

- اصعد يا مولاي..

جلست إلى جواره: - من أين لك هذه السيارة؟

- من ابن زوج ابنة زوجتي.

في أي يوم نحن؟ بالطبع، إنه الخميس.

كانت إسطنبول تبدو وكأنها لم تُكنس قط، وقد انقلبت رأساً على عقب. وكانّ شبكة المجاري خرجت من أحشائها..

بدأ عوني واو يتلو كلماته وكأنه يقرأها من على زجاج السيارة الأمامي القذر: - أتذكر الحادثة التي شهدنا وقوعها في محطة حيدر باشا؟ حيث صدم القطار السفينة؟ تلك الحادثة كانت من تدبير معصوم جيغي، حيث قام بخديعة زهرة ظريف أوغلو وإغوائها، وكما هو معلوم لك فقد أَلقت المسكينة بنفسها من فوق مبنى المحطة. وقد أدرك المرحوم السيد ذو الفقار بأنّ معصوم جيغي قد أوقع بحفيده، ودفعها إلى الموت. وذلك ما جعله يطلب منك أن تقضي على معصوم جيغي.

علّقت بإعجاب مصطنع: - ما شاء الله، تبارك الله.. يعلم الله أنّ المحقق الداهية أدريان مونك سيرتبك إزاء قدراتك..

- هذا من لطفك..

- حسناً، وكيف تمكنت من العثور على مخبأ الأصلع الوغد؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ - سألته.

- يمتلك هذا اللعين الماكر شركة في (شيله)، وكما تعلم يا سيدي العزيز أنا كاتب روايات بوليسية، ولا أعرف أحداً يقدر أن يجاريني في تقفي الآثار..

- كل ذلك بسببي، لقد طلبت من جيفان أن يعثر على معصوم جيغي.. لقد أرسلته إلى حتفه بنفسه..

- أوكد لك بأنك مخطئ يا سيدي، ولم تلحق أي ضرر بجيفان، على العكس من

ذلك ، لقد قدمت له فائدة عظيمة ، لذا كن مطمئناً.

- أنا نادم جداً.. لا ألقى باللوم على أحد ، فقد مات الجميع.. وكما هي العادة بقيت متسماً في مكاني كالخازوق.

البث المباشر

«يَدَايَ تَغْطِيهِمَا الدَّمَاءُ

وَجَسَدِي تَغْطِيهِ الْجُرُوحُ

وَعَيْنَايَ مَدْفُونَتَانِ تَحْتَ التُّرَابِ

وَيُظَنُّنِي النَّاسُ حَيًّا».

(خيرى كورو ، 1899-1977 ،

شيخ الروتين للجرائم المكرورة)

أوقف عوني واو (الكارتال) المتحشجة أمام حديقة باولونيا التي في داخلها حجرة غريبة ، يمكن أن تنقض من نوافذ تلك الحجرة الخفافيش في أي لحظة ، فيما يخيم هدوء مراوغ على المكان ، يمكن أن يؤدي بك إلى القعر فيما لو كنت تسير على الصراط. بينما قام النحل ببناء ديموقراطيته الخاصة داخل هذه الأشجار ، وهو يتناقش في طنين لا يتوقف. وبين الخطوة والأخرى كنا ننزلق على الأرض العجينية. داخل المصعد المعدني الذي تحتويه الحجرة ، نزلنا سبعة طوابق نحو قعر الأرض. تحسست البندقية تحت معطفي ، فيما نقل عوني واو المسدس من حزام خصره إلى جيبه.

- بسم الله الرحمن الرحيم.

فُتِحَ الباب.

كان مكتباً أكثر إشراقاً من قارورة عطر ، يستحضر إلى الأذهان محطة انتزعت منها سكك قطاراتها ، أو متجراً أُخليت كافة رفوفه. وكان الشبان بقوامهم الرياضي والفتيات الحسنات يرتدين بطريقة توحى أنهم على وشك التوجه إلى حفلة باذخة. ومن بين تلك التقاطعات الزجاجية والبلاستيكية ، ظهرت صهباء ترتدي تنورة.

- أهلاً بك سيد روحي ، كيف لي أن أساعدك ؟ - إذاً ، فقد بلغت سمعتي هذه الأرجاء أيضاً!

- نريد مقابلة معصوم جيحي .

- تفضلوا بالجلوس هنا ، وسأحضر لكما فنجاني قهوة ، فيما أبلغ السيد معصوم بقدمكما. - ومع كل فاصلة بين جملها ، كانت تبسم لتظهر أسنانها الشبيهة بمفاتيح البيانو.

- شكراً..

جلست وعوني واو على المقاعد الجلدية ، وبدأنا نحتسي القهوة التي قدمتها لنا فتاة تشبه الفأرة ميكي ، دون أدنى شهية. كان عوني واو يلتفت يميناً ويساراً ، وفيما كنت أمسح المكان بعيني ، كنت أمنح الدرجات للحسناوات اللواتي يظهرن بين الفينة والأخرى: الانتقام ضرورة حياتية ، لكن اللباقة تجاوز للحدود. بقينا ننتظر كحبات الفلفل المزروعة في أصيص الزينة.

لقد اختلت موازيني تحت الأرض ، في هذه الفترة التي امتدت واحداً وثلاثين دقيقة. إنها عطلة مملة. بدأت التفكير بجيفان ، بكل أقربائي الموتى ، وأصدقائي. ربما كلنا مجرد أموات ؟ فيكيف بُعث معصوم جيحي ؟ ربما هذا العالم هو الآخرة! وهناك أسرار لا نعرفها. وكل ما نتذكره ، لم نعشه حقيقةً. حين تتجاز عتبة المائة ، ستغدو فيلسوفاً أو مجنوناً بصورة آلية.

انحنى عوني واو على أذني: - ليس لديه طاقم حماية ، حقاً إنه لأمر غريب .

- ربما ذهبوا لشراء (شكوكو برينس)؟ - أقترح عليه .

أنهينا القهوة ، وكنا نسير من اليقظة نحو الاسترخاء ببطء . وعلى حين غرة هتفت :

- توقف عن محاولات فهمي يا عوني واو!

- ما الأمر سيد روحي ؟

- لست روحي مجرد ، بل معصوم جيغي . - أجبت .

كانت الكلمات تخرج من فمي ، دون أن أكون أنا من يقولها ، وكأنها عملية تخدير

موضعي . غريب! لم يثر الأمر دهشة عوني واو:

- هل تستخدم محارب الاستقلال روحي مجرد ، كهاتف لديك ؟

- أصبت الهدف ، إنه بث مباشر - أغرقتني الحيرة ، فقد كنت مجرد دمية في يد

معصوم جيغي . إنه أمر محال! فأنا لا أنطق بما أريد ، ولا أسيطر على لساني .

سحب عوني واو سلاحه ، وحشره في فمي: - ما لم تأتِ إلي هنا على الفور ، سأقتل

روحي مجرد! - كنتُ مصدوماً .

لم يعجبني مذاق الفوهة كثيراً ، كما أنّ حنجرتي التي غدت مكبر صوت لمعصوم

جيغي ، كانت مليئة بحشجة ظمئة ..

من زاوية الممر ظهر فريق قناصة كامل العتاد ، وقد أخذت أضواء الليزر المنبعثة

من بنادق (هـ.. ك 416) تتساقط متحركة على أجسادنا . كان العدو الذي يتوجب عليّ قتله قد

هرب إلى داخلي ، فيما رفيق سلاحي الوحيد يحشر مسدسه في فمي . ودون تردد وجه فريق

القتل الآلي بنادقهم نحونا .

إما الرّدى وإما النصر

«من الآن وصاعداً ، لا يمكن سوى

للموسيقى أن تحكي».

(إيفان تورغينيف ، 1883-1818)

أفتح باب الغرفة الزجاجي المغطى بستائر معدنية برفق ، وقد أشعل معصوم جيغي سيجارته. كنت أظنه سيعمد إلى الاختباء ، أو سيقوم بمقاومتنا ، ولكنه في غاية الهدوء: - ففي هذه الغرفة أربع كاميرات.. ومن يريد أن يرتكب جريمة على الهواء مباشرة فليتنفضل..

لا يبدو أنّ معصوم جيغي يمتلك من الدهاء ما يكفي ، بل يمكن اعتباره طيب القلب أيضاً. فهو يظن نفسه المأفون الوحيد هنا.

دون ترددٍ أقتحمُ المكتب ، وأنتصبُ في مكاني للحظة: - دافع عن نفسك يا حثالة اللصوص..

- خطوة صغيرة بالنسبة للإنسانية ، ولكنها قفزة هائلة بالنسبة لخرف. - قالها وهو يقلب شفته ، فأخرج الـ (بريزر) من تحت معطفي ، وأصوب نحوه وأطلق النار دون تردد: دوف! فيغرق رأسه الأصلع داخل غمامة حمراء. ترتسم على وجهه دهشة أكثر من قرد داس على قشرة موز وسقط على وجهه. وفيما هو ينازع كان يتهمش تحت وطأة أنه المتضخمة. سيجارته تسقط من فمه.

- كنت أنوي.. بلوغ القيامة.. لأشاهد.. نهاية كل.. كل الشرور.. - يقولها ويفتح ذراعيه كنجم البحر ويسلم الروح..

فتسقط البندقية من يدي.

وأشعر بسلك يُسحب من أعماق قلبي ، لقد حان أجلي ، توقيت رائع. تمكنت من ضبط توقيت الجريمة على موعد موتي. وما أن أنقذ العالم حتى أنجو منه بدوري. ولكن يبدو أنني فقدت زمام لساني ، ولم أعد قادراً على الكلام. أهذه صورة نازلي هلال المنعكسة على بركة دماء معصوم جيحي المناسبة على سطح الطاولة ؟

لقد انتهت مهلة الثواني العشر ، ما بين عمر الصفر والمائة!

أشعر بروحي تنسلّ من جسدي كسيف أثري طويل..

وأخيراً أَلْفِظَ آخر أنفاسي.

أجد جيفان كازانوف قبالي.

ما يقال عنه موت ، هو لقاء!

- سيد روحي!

- جيفان ، يا ولدي العزيز..

أنا مستلق على ظهري ، ويتراءى وجه نازلي هلال أمام ناظري. عوني واو ، أوزان ، فوجير... كلهم حولي.

تسود دقيقة صمت كما في الاحتفالات العسكرية.

- ماذا؟ هل لا زلتُ حياً؟ وأنت جيفان؟

- كلانا مات سيدي ، ولكننا عدنا.

- كيف؟ ولماذا؟

- بفضل دعاء في مجلة رسوم مصورة..

- وهل أستحق هذا المصير يا جيفان؟

- سيد روحي.. التشهد..

تملاً الدموع عيون كل أحبتي المحيطين بي.

- وأنتِ؟

- أنا سربيل سيلاحلي بيبي - قالت الفتاة الشابة.

وأما الحلوة التي برفقتها فقد زقرقت: - وأنا اسمي صحارى سيدي ، تشرفت

بمعرفتك.

سيدور العالم أسرع بعد موتي ، وستستمر الحياة مع روايات مغامرة..

ودعتهم الواحد تلو الآخر. المؤسف أنّ أولى لحظاتي وآخرها في الحياة ، لا مكان

فيها للقهقهة.

قبلت نازلي هلال كفي؛ إنها لحظة من لحظات الخلود. حتى الآن كانت الحياة

هي من فرقتنا ، والآن سيفرقنا الموت. حين أذهب إلى الجنة سأطلب من أحد الملائكة أن

يحضر لي صورتها.

أستودعك الله يا قارئِي الصبور ، وأرجو أن تسامحني..

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنّ محمداً رسول الله..

[والآن نترككم مع فاصل إعلاني]

مراد منتيش

روائي حاز على (جائزة رواية العام) في العام
2009 من اتحاد الكتاب التركي عن عمليه (معضلة
الدوبلير) و(لا تخف أنا هنا)، كما أنّ لديه ديواناً
شعرياً بعنوان (ضمان الحجر الصحي).

Notes

[1←]

هو مدير منظمة سيرن (المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية).

[2←]

تتبع لمحافظة كلس التركية في جنوب شرق البلاد.

[3←]

يشير الكاتب للمقبرة التي تحفها أشجار الصنوبر عادة. (المترجم)

[4←]

مكتبة الصبيان: نوع من المدارس الابتدائية في الدولة العثمانية - الرشدية: بدورها كانت نوعاً من المدارس الإعدادية. (المترجم)

[5←]

باللغة التركية تعني الأخ وتقال خصيصاً للأخ الأكبر أو لمن في مقامه احتراماً وتحبباً.
(المترجم)

[6←]

يعمد المؤلف في معظم الرواية إلى التركيز على الأسماء كمفاتيح لشخصيات روايته ، من

خلال التطابق أو التناقض بين الأسماء وأصحابها ، فجيحي مثلاً تعني الشخص الظريف أو اللطيف ، على خلاف الشخصية التي تحمل الاسم كما سنرى لاحقاً. (المترجم)

[7←]

أو مودا: منطقة معروفة بجمالها العمراني على ساحل المضيق في الجانب الآسيوي من إسطنبول تتبع لمنطقة كادي كوي. (المترجم)

[8←]

هنا تورية فكلمة سجسج بالتركية تشير إلى الدبر أحياناً. (المترجم)

[9←]

هي جزء من من أوبرا (حاكية القيصر سالتان) لريمسكي كورساكوف. (المترجم)

[10←]

تقابلها عبارة (خبر عاجل) بالعربية. (المترجم)

[11←]

بلبل خشبي ، قطعة خشب مستدقة تدور على محور يتم لفها بالخيط ونزعه فجأة لتدور على الأرض. (المترجم)

[12←]

أو نيكرونوميكون: هو كتاب خيالي لاستحضار الموتى ذكره كاتب الرعب الأمريكي لافكرافت في عدد من قصصه ، ولقد ألف الكتاب شاعر عربي من صنعاء اسمه عبد الله الحضرد ، وكان

يعرف أيضا باسم العربي المجنون. ويتحدث الكتاب عن الكيانات القديمة وتاريخها وكيفية الاتصال بها واستحضارها. (المترجم)

[13←]

ريزدنت إيفل بالإنجليزية Resident Evil وتعني الشر المقيم هي سلسلة من ألعاب الفيديو تم تطويرها ونشرها بواسطة شركة كابكوم اليابانية. اللعبة من نمط رعب البقاء. (المترجم)

[14←]

رجائي محمود زاده: مواليد 1 آذار 1847 إسطنبول ، توفي 31 تشرين الثاني 1914. شاعر وأديب عثماني ، من الأسماء التي تأتي في مقدمة الأدب العثماني في القرن التاسع عشر. (المترجم)

[15←]

مصطلح يشير حالياً إلى التقلب المشاهد السريع للمحطات التلفزيونية ، منتقلاً من واحدة للأخرى. (المترجم)

[16←]

كل أوغلان: أو الفتى الأصلع ، هي حكايات من التراث التركي. فيما Kellog هي شركة متعددة الجنسيات لتصنيع المنتجات الغذائية مقرها ميشيغان أميركا. وقد لعب الكاتب على خاصية الجنس على اعتبار الكلمتين تشتركان في اللفظ ذاته تقريباً. (المترجم)

[17←]

تشير المصادر التاريخية إلى أنه كان دجالاً أكثر منه طبيباً ، يقوم بعمليات جراحية الساد أو

عتامة العين وفق طرق بدائية تودي بصاحبها للعمى التام ، وكان من مضاعفات هذه العمليات وما تلاهما من عمليات وأخماج أن توفي باخ. كما خضع معاصره هاندل أيضاً للعملية ذاتها على يد الطبيب نفسه. (المترجم)

[18←]

مقعد حجري في حديقة الجوامع يوضع عليه نعش الميت لإقامة صلاة الجنازة عليه. (المترجم)

[19←]

ما يوازي حقبة الأفلام التي نسميها (الزمن الجميل).. (المترجم)

[20←]

يقسم مضيق البوسفور مدينة إسطنبول إلى قسمين يقع أحدهما ضمن القارة الأوروبية ، والثاني يقع ضمن الآسيوية ويسمى أحياناً بصفة الأناضول.

[21←]

أو علم الأخريات أو علم آخر الزمان دراسة الأخريات: هي جزء من اللاهوت والفلسفة يهتم بما يعتقد أنه الأحداث الأخيرة قبل نهاية العالم. في عدة ديانات تشير الإسخاتولوجيا إلى عدة أحداث مستقبلية متوقعة في النصوص المقدسة أو الفلكلور. (المترجم)

[22←]

تعني الرأس المقطوع حرفياً ، أما كنية سربيل فهي تعني الملاك المسلح ، وكما ذكرنا فالمؤلف يعمد إلى اللعب على مسألة أسماء الشخصيات في تضاد أو توافق. (المترجم)

البيغمي: من الناحية الأنتروبولوجية هم الأفراد الذين لا يزيد طول قامة الذكر البالغ فيهم على 130 سم ، والمرأة البالغة على 121 سم. وتستوطن هذه المجموعات عموماً ، بيئة جغرافية محددة محصورة بين خطي عرض 5 درجات شمال خط الاستواء وجنوبه ، يعيش أفرادها حياة بدائية متنقلة ، قوامها الجمع والاتقاط ، ويقسم الأقسام تبعاً لمناطق توزعهم الجغرافي إلى إفريقيين وآسيويين.

مغامرات هكلبيرري فين وهي رواية من تأليف مارك توين والتي نشرت في شهر كانون أول من العام 1884. وهي تعد أحد أعظم الروايات الأمريكية. (المترجم)

الدادا: هي حركة ثقافية انطلقت من زيورخ أثناء الحرب العالمية الأولى ، كنوع من معاداة الحرب ، بعيداً عن المجال السياسي ، وإنما من خلال محاربة الفن السائد. يطلق عليها أيضاً الدادائية ، وقد برزت في الفترة ما بين عامي: 1916 و1921. العدمية: هي رفض جميع المبادئ الدينية والأخلاقية ، والاعتقاد بأن الحياة لا معنى لها ، يعتبر هذا الموقف الفلسفي أن العالم كله بما في ذلك وجود الإنسان ، عديم القيمة وخال من أي مضمون أو معنى حقيقي. (المترجم)

هو الاسم التجاري لمادة الفيلغراستيم ، تستعمل في علاج قلة الخلايا المتعادلة الناتج عن العلاج الكيميائي أو زراعة نخاع العظم ، حيث أنها يحفز نخاع العظم لزيادة إنتاج الخلايا الحبيبية المتعادلة. (المترجم)

[27←]

الدائن المدعمة بألياف زجاجية هي مادة مؤلفة من لدائن مدعمة بألياف مصنعة من الزجاج. تعرف هذه المواد تحت الاسم الشائع فايبركلاس. (المترجم)

[28←]

الأوريغامي: هو فن طي الورق والذي كثيراً ما يرتبط بالثقافة اليابانية. (المترجم)

[29←]

هي نوع من زيجات التبادل ، تقوم على مبدأ تزويج شخصين من عائلة ما إلى شخصين من العائلة المقابلة في عملية تبادل. (المترجم)

[30←]

التومور بالتركية تعني الورم. (المترجم)

[31←]

قطعة خشبية ملوية يتخذ منها سلاحاً وترتد نحو صاحبها. (المترجم)

[32←]

في اللغة التركية كما في لغات أخرى ، يكون أسلوب المخاطبة الرسمية بصيغة الجمع ، ولا يحدد التخاطب بصيغة المفرد بين الغرباء. (المترجم)

[33←]

برادا هي شركة موضة وأزياء إيطالية متخصصة في البضائع الفخمة للرجال والنساء ، وقد تأسست بواسطة ماريو برادا. (المترجم)

[34←]

الكاماسوترام ، ويعرف أيضا باسم كاما سوترا ، هو نص هندي قديم يتناول السلوك الجنسي لدى الإنسان. يعتبر على نحو واسع عملاً قياسياً للحب في الأدب السنسكريتي. (المترجم)

[35←]

قبيلة من قبائل الهنود الحمر كانت تستوطن جنوب شرق الولايات المتحدة التي قامت حكومتها على إثر رفض القبيلة بترك أراضيها ، بترحيلهم عنوة في ظروف بالغة القسوة ، مما تسبب في هلاك الآلاف منهم أثناء الطريق الذي أسموه طريق الدموع. (المترجم)

[36←]

هي أدنى مراتب الجيش الإنكشاري - جيش الدولة العثمانية ، كان أفرادها مكلفين بتقديم الخدمة لبقية جنود الإنكشارية. (المترجم)

[37←]

هي مؤسسة تابعة لوزارة العلوم والصناعة والتكنولوجيا ، تعمل على دعم هذه العلوم ، وتقديم منح دراسية للطلاب. (المترجم)

[38←]

بحسب الأساطير هي لغة الملائكة. (المترجم)

[39←]

مجموعة من شخصيات بارزة في المجتمع التركي ، من سياسيين وفنانين ورجال أعمال ، تمّ دفنهم في مقبرة زينجيرلي كوي. (المترجم)

[40←]

تشيكويتا: هي إحدى شركات الموز التي تم تأسيسها في أميركا الجنوبية ، وكانت المسؤولة عن (مذبحة الموز) التي وقعت العام 1924. نيكيتا: مسلسل تلفزيوني درامي أمريكي ، تدور قصته حول منظمة سرية تجند الشباب الذين قاموا بمشاكل سابقة ، وتمحو جميع الأدلة عن حياتهم الماضية ، وتحولهم إلى جواسيس وقتلة. ونيكيتا هي المجندة الأولى التي تهرب والتي تعد بإسقاط أصحاب عملها السابق. (المترجم)

[41←]

في جناس مع كلمة (بين باشي) وهي رتبة عسكرية تقابل رتبة الرائد. و(بيم) سلسلة متاجر للمواد الغذائية تنتشر في كل أرجاء تركيا. (المترجم)

[42←]

بالتركية الأربعة هي (دورت) ، ولكن المؤلف حوّر الكلمة قليلاً لتناسب مع السياق الدعائي للحديث. (المترجم)

[43←]

وتعني الحرية. (المترجم)

[44←]

كانت عادة متبعة في قصور الملوك والسلاطين ، في الشرق والغرب على حد سواء ، حيث يتم اختيار أطفال من العامة ، وغالباً من الفئات المعدمة ، ممن هم في سنّ الأمراء ، وحين يرتكب أي من هؤلاء الأمراء مخالفة ، تتم معاقبة الطفل البديل أمام ناظريه بغرض تخويله ، لعله يتعظ. (المترجم)

[45←]

إحدى حقبة الدولة العثمانية: استمرت منذ معاهدة بياروفجا (21 تموز 1718) حتى تمرد وعصيان باترونا خليل في (28 أيلول 1730) توثقت خلالها علاقاتها مع الغرب على الأصعدة السياسية والثقافية والاقتصادية ، وازدهرت فيها الحركة الثقافية والرفاهية. (المترجم)

[46←]

هو الرجل الذي صنع الدمية الخشبية بينوكيو بحسب القصة. (المترجم)

[47←]

ينتمي العلاج إلى عائلة البينزوديازيبين التي تمتلك تأثيراً مهدئاً ومنوماً ، حيث ترتبط بمستقبلات خاصة بها في الدماغ ، مما ينشط عمل مستقبلات “حامض غاما امنوبوترك” التي تمتلك تأثيراً مهدئاً. (المترجم)